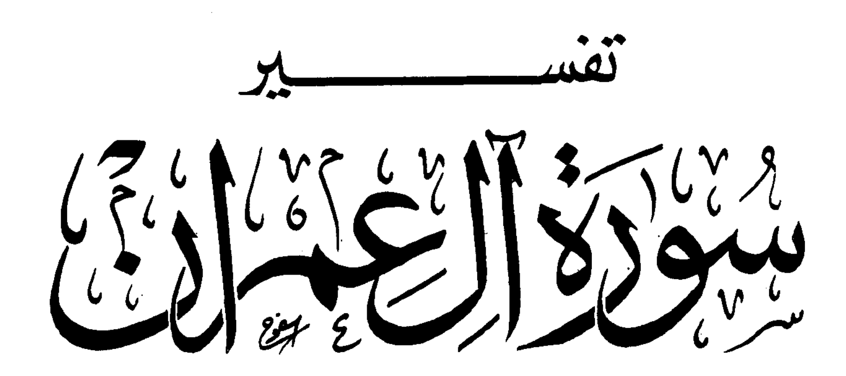
جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
تفسير القرآن الكريم

تفسير



للأستاذ أحمد حسين

القاهرة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لاشك أن أنفع الأعمال لتخليد ذكرى الراحل الأمين الأستاذ أحمد حسين ، هو اصدار العمل العظيم الذى أنجزه قبل رحيله ، وهو تفسير سورة آل عمران ٠

ويجدر الاشارة فى هذا المجال الى أن المجلس قام باصدار تفسير سورة فاتحة الكتاب ، وتفسير آى الذكر الحكيم من سورة الأحقاف الى سورة المرسلات ، وكذلك تفسير سورة البقرة للمجاهد الاسلامى الكبير ٠

رحمه الله رحمة واسعة وأنزله منازل الصديقين والشهداء جزاء ما أخلص لربه ، وقدم لأمته ، انه نعم المولى ونعم النصير ٠

جمال الدين محمود

أمين عام

المجلس الأعلى للشئون الاسلامية

فضل سورة آل عمران :

قيل كلام كثير فى فضل هذه السورة والذين تتبعونا فى هذا التفسير يلاحظون اننا لا نحب الافاضة فى هذا القول فجميع ما بين دفتى المصحف هو كلام الله ، وكله بركة ، وكله خير ، نسأل الله سبحانه أن ينفعنا ببركة القرآن كله وببركة تلاوته وفوق ذلك كله وقبل ذلك بفهمه والعمل بأوامره والانتهاء بنواهيه .

على أن ذلك لا يمنع أن ننقل للقارىء ما جاء فى كتب التفسير القديمة من اقتران سورة البقرة بسورة آل عمران ، وانه أطلق عليهما وصف « الزهراوين » واخرج مسلم حديثا عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سبق لنا أن اوردناه بمناسبة الحديث عن سورة البقرة ، وقد جاء فيه : « اقرأوا القرآن فانه يأتى يوم القيامة شفيعا لاصحابه ، اقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران فانهما يأتيان يوم القيامة كانهما غمامتان أو غيابتان أو كأنهما فرقتان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، اقرأوا سورة البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة » .

ونحن نرى فى هذا الحديث تأييدا لوجهة نظرنا وهى أن القرآن كله يشفع لصاحبه يوم القيامة ثم خصص رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سورتى البقرة وآل عمران لطولهما واشتمالهما بالتالى على كل مقاصد القرآن الكريم .

فليتل كل مؤمن القرآن الكريم تلاوة استيعاب وليحفظ منه ما استطاع أن يحفظ واضعا دائما نصب عينيه وذاكرته الزهراوين : « البقرة وآل عمران » .

هل نزلت بعد الانفال :

وقد اجتهد البعض « مشكورا » فى محاولة ترتيب نزول سور القرآن ، وعندنا أن الله سبحانه وتعالى وهو القائل : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » والقائل لنبيه صلى الله عليه وسلم : « لا تحرك به لسانك لتعجل به ● ان علينا جمعه وقرآنه » .

وبناء على هذين النصين يكون جمع المصحف وترتيبه على الصورة التى هو عليها مذ جمع فى عهد أبى بكر الصديق ، اى عقب وفاة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مباشرة قد تم بتوفيق من الله وارشاد وتوجيه ، تحقيقا منه سبحانه وتعالى لوعده لنبيه « ان علينا جمعه وقرآنه » .

فأصبح من غير الجائز متابعة غير المسلمين الذين يعاملون القرآن معاملتهم لأى كتاب عادى .

خذ على سبيل المثال القول بأن هذه السورة نزلت بعد سورة الأنفال كما قال بعض فضلاء

المجتهدين ، ولاجدال فى أن اجزاء من السـورة وخاصة تلك التى اشارت الى احداث غزوة احد وما تلاها ، قد نزلت بعد الأنفال لأن الانفال تحدثنا عن غزوة بدر فأصبح الحديث عن نزول هذا القسم من سورة آل عمران بعد سورة الانفال هو صحيح بلا جدال او شبهة ، ولكن سورة آل عمران من ناحية أخرى تشـتمل على آيات خاصـة بيهود المدينة ، لا يعرف على التحقيق متى نزلت ، فهى من نوع المجادلات التى ورد الحديث عنها فى سورة البقرة وذلك كله فضلا عن القول بأن سورة : « كذا نزلت بعد سورة كذا » فيه مايشعر ان السورة كانت تنزل وحدة واحدة متكاملة وهذا خلاف المتفق عليه بالاجماع من أن القرآن كان ينزل « منجمـا » أى على اجـزاء حسب المناسبات ، وان جبريل عليه السلام كان يرشد سيدنا محمدا الى موضـع كل آية فى السـورة الخاصة بها ، وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يرشد اصحابه بالتالى عن موضع الآيات المعينة فى كل سورة بعينها . ولقد مر بنـا على سبيل المثال آيات فى سورة البقرة قيل عنهـا انهـا كانت آخر آيات التشريع نزولا ، حيث اشتملت البقرة على آيات لا يمكن الا ان تكون من أول آيات القرآن فى المدينة نزولا .. ومن هنا فمن رأينا أن لا نتحدث عن سور القرآن بعامة وعن الطويلة منها بخاصة ، باعتبارها وحدة واحدة نزلت مجتمعة فى وقت محدد ، وأقصى ما نستطيعه هو أن نحدد الموقف بالنسبة لآية معينة أو مجموعة من الآيات ، مستندين الى الوقائع المادية الثابتة كحدوث غزوة أحد بعد غزوة بدر ، أو مما جاءت به الأحاديث الثابتـة عن رسول الله وعلى هذا يكون من الصواب أن نقول ان ما اشتملت عليه سورة آل عمران من حديث عن غزوة أحـد لا يمكن الا ان يكون بعد سورة الأنفال « التى هى حديث عن غزوة بـدر وانتصار المسلمين بها » أما ما زاد على ذلك فعلمه عند الله .

سورة العقيدة والتوحيـد :

وإذا كانت سورة آل عمران قد اشتملت فى نصفها الثانى على قصة غزوة أحد ، فان نصفها الأول يمكن وصفه بأنه كان وقفا على أخص خصائص القرآن ، وهو التوحيد المطلق الصارم ، وتنقية عقائد أهل الكتاب « اليهود والنصارى » مما غشـيها من الغواشى ونالها من التحـريف والتغيير والتبديل ، حيث يكشف القرآن الكريم عن أن جوهر الرسالات واحد ، على التفصيل الذى سيرد علينا عند استعراض آيات السورة الـكريمة ، وسـورة آل عمران نزلت فى المدينة بالاتفاق ، وبعـد ذلك نقـول وبالله التوفيق :



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ

« الم ● الله لا اله الا هو الحى القيوم » .

الحروف المقطعة فى أوائل السور :

اعتبر البعض هذه الحروف المقطعة من مشكلات القرآن . والجمهرة على انها من المتشابهات التى يجب ان نفوض فيها العلم لله . على أن الكثيرين حاولوا واجتهدوا فى تفسيرها فذهبوا فى ذلك مذاهب شتى ، وكان يهود المدينة أول من حاول أن يفسرها « بحساب الجمل » والذى يعطى لكل حرف قيمة رقمية ، ثم يحاولون أن يستنتجوا من المجموع الكلى استنتاجا .

واللطيف أننا قابلنا فى العصر الحديث انسانا فاضلا كد نفسه وأرهقها ليثبت انها تدل على مجموع آيات السورة .

اما فى خارج دائرة الحساب ، فقد قال قوم أنها تحوى بين ثناياها اسم الله الأعظم ، وقال صاحب المنار ان المختار هى انها اسماء للسور فيقال الم « البقرة » والم « آل عمران » ومن أطرف ما قابلنا فى هذه الابحاث قول من جمع « الر » ثم « حم » ثم « نون » فأصبحت « الرحمن » .

وكان آخر ما بذل من جهد فى هذا السبيل هو استخدام العقل الالكترونى فى أمريكا وانتهى صاحب البحث الى ان هذه الحروف التى تبدأ بها بعض السور تكون هى السائدة ، مثل : ن ، ص ، ق .

ومن ناحيتنا فنحن نرتاح وينشرح صدرنا للقول القائل ، ان ذكر هذه الاحرف يعنى ان هذا القرآن

المعجز يتألف من الحروف التى ألفتموها وتنطقون بهــا وتكتبونها ، ومما يضاعف فى ارتياحنا لهذا المعنى أن القرآن الكريم قد احتفل منذ أول كلمة نزلت منه حتى نهايته بالقراءة والكتابة فكان أول ما نزل به الوحى « اقرأ » و « علم بالقلم » وكانت « ن . والقلم وما يسطرون » .

فان يقسم الله بهذه الحروف أو يلفت النظر لأنها المــادة التى صيغ منهــا القرآن فهو معنى يطمئن له قلبنا كما قدمنا وفى كل الأحوال فهو من متشـــابه القرآن والذى نقرر فيه بالايمان كله والخشوع كله « هو من عند الله » .

« الله لا اله الا هو الحى القيوم »

الله ــ اسم الجلالة الذى أطلقه القرآن على الخالق المبدع لسائر الكائنات ، وقد كان العرب فى الجاهلية يعرفونه بهذا المعنى كأثر من تعاليم سيدنا ابراهيم عليه السلام ، وقد سجل القرآن الكريم معــرفة المشركين لهــذه الحقيقة « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » .

« لا اله الا هو » هذا هو جوهر التوحيد ولبه ، وما يجعل الاســـلام اعظم دين عرفه البشر ، ولا يعرف الكثيرون من المسلمين الطيبين ان هذه الحقيقة البسيطة التى تبدو لهم بديهية هى سر افتــراق الأوروبيين والأمريكان عن الدين كلما ازدادوا علما ، حيث يتمسك المسلمون بالدين ويزدادون ايمانا على ايمانهم كلما ازدادوا علما ، فقد انتهى العلم الى وحدة القوة التى تسيطر على الوجود بعد أن أثبت انشطار الذرة أن المــادة ليست سوى طاقة مجمدة ، وان الطاقة ليست سوى المادة فى حالة اشعاع ، وأن الضوء هو الأصل الواحد لكل شىء ، هذا الذى انتهى اليه علم اوروبا وامريكا التجريبى هو ما يحفظه كل مسلم عن ظهر قلب وهو يتلو :

« الله نور السموات والأرض » .

وسنرى بعد قليل تفوق العقيدة الاسلامية على العلم وعلوها عليه علوا كبيرا .

وهكذا انتهى البشر الى وحدانية القدرة الخالقة « الله » .

نفى يعقبه الاثبــات :

وقد صيغت عقيدة التوحيد الاسلامية بالتعبير الجامع المانع « لا اله الا الله » فنفى أولا ان يوجد فى الكون كله أى قوة أو قدرة أو فاعلية من أى نوع كان ، ثم اثبتها كلها لقوة واحدة مريدة فاعلة هى « الله » ، ولكى تتم الصورة التعبيرية فى أروع صيغها من حيث البلاغة والبيان المتعارف عليهما صدر التعبير باسم الجلالة « الله » ثم أحال عليه بالضمير « هو » وهكذا يتحقق كمال التعبير شكلا وموضوعا فى القول « الله لا اله الا هو » .

« الحى القيوم »

جاء فى معجم الفاظ القرآن للمجمع اللغوى :

الحى ، اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى وقيل فى بعض التفاســير الحى ضد الميت فهو سبحانه لا يموت أبدا والاتفــاق على أنه حى حياة تليق بكماله ولكننا وقد آلينا على أنفسنا أن نتكلم بلغة العصر التى يصفونها بأنها لغة العلم الحديث وبعد ذلك نقول . وبالله التوفيق : قال

تعالى وهو يحدثنا عن خلق آدم عليه السلام « فاذا سويته ونفخت فيه من روحى » ، كما قال تعالى : « قل الروح من أمر ربى » أى أن الروح التى هى سبب الحياة هى نفخة ربانية ، فالله سبحانه هو أصل الحياة ، هو خالق الحياة ، هو الحياة الباقية الازلية التى لا يدب اليها وهن أو ضعف فضلا عن فنـاء .

فكل ما فى الوجود يفنى الا هو لأنه الوجود « موجود » وكل من فى السموات والأرض يموت الا هو فهو الحى الذى لا يموت ، فهو حى أبدا وكان حيا أبدا ، حياة تليق بذاته وربوبيته .

ايمان المؤمنين وايمان الماديين :

الملحدون يعزون الى المادة كل شىء نعزوه نحن المؤمنين الى الله سبحانه وتعـالى ، فهى — فى نظرهم — واحدة وهى قديمة أوجـدت نفسـهابنفسها وهى بعـد ذلك القـوة التى خلقت كل شىء حتى الحيـاة هى بعض نتـاج المـادة ، والعقل والفكر هو نهاية تطور الحياة ، فالمادة والمادة وحدها هى خالقة كل شىء ، مادة ميتة عمياء صماء بكماء هى التى تطورت فخلقت الحياة والسمع والابصار والافئدة ! .

أما نحن المؤمنين بنعمة الله فنؤمن بالله الحى الذى منحنا الحياة بكل معطياتها من سمع وبصر وفكر فالله الحى هو مصدر كل حياة ، وهو السميع البصير الحكيم المريد ، وللماديين أن يؤمنوا أنهم نتاج مادة ، وان هذه الدنيا مجرد عبث جـاء بالصدفة وينتهى بالموت ، أما نحن فقد هدانا الله الى أننا من خلق اله حى حكيم ، خلقنا لغاية ، وانا اليه راجعون فمحاسبون فاما الى جنة واما الى نار .

القيوم : اى شديد القيام وهى صيغة مبالغة من قائم ، وهو اسم يختص به الله سبحانه وتعالى ومعناه أنه القائم بشئون خلقه أبدا فلا قيـام للسموات والأرض الا به ، وقديما قال بعض الفلاسفة ان الله خلق الكون وخلق النواميس والسنن وترك الوجود بعد ذلك يتطور وفق هذه النواميس والسنن بدون مدخل منه ويقول الماديون اليوم مثل ذلك ، فانما هى مادة ونواميس وسنن ، أما نحن المؤمنين فنؤمن بالنواميس والسنن ، لان القرآن يعلمنا ذلك «ولن تجد لسنة الله تبديلا» ولكنه يعلمنا فوق ذلك أن ارادته تعلو النواميس والسنن فيجريها حيث شـاء ويوقفها حيث شاء وقديمـا قال الغزالى : ان السبب ينتج دائما المسبب الا ان يشاء الله ، فارادة الله حاضرة عند كل سبب وكل ناموس وكل سنة ، وهذا ما يجب أن نفهمه من قيوم ، أى أن كل شىء يعود اليه فى وجوده وقيامه ، والله أعلم بمراده ونستغفر الله من الخطأ والزلل .

« نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل »

بالحق : يقول بعض المفسرين أنها تعنى بالصدق وعندنا ان ذلك هبوط بكلمة « الحق » الى كلمة الصدق ، والحق كلمة تنتفض لسماعها القلوب وتخفق الأرواح فالله هو الحق ، ويكون الـكتاب الذى هو القرآن حق من حق ، ولذلك فنحن لانقر قول من حاول أن يفسر كلمة الحق بأنهـا تعنى الصدق ، فذلك من قبيل تعريف الكل بذكر الجزء أو الجوهر بذكر العرض

التـــوراة : لفظ يعنى به القرآن « الوحى الذى أوحى به الله سبحانه وتعالى الى سيدنا موسى وقـــد حاول بعض لغويى العرب ان يوجـــدوا اشتقاقا للكلمة من اللغة العربية فقالوا انها من كلمة « أورى » ولكن كلمة التوراة موجودة فى اللغة العبرية بمعنى الشريعة .

الانجيل : يستعملها القرآن الكريم لتفيد معنى الوحى الذى نزل على سيدنا عيسى ، وهى فى اللغة اليونانية القديمة التى كتبت بهـــا اقـــدم الأناجيل تعنى « البشارة » جاء فى القرآن الكريم « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » .

والمعنى المستفاد من عموم الآية ، ان الله سبحانه وتعالى قد أنزل القرآن الكريم ينطوى على ذات الحق والجوهر الذى تنطوى عليه الكتب السماوية الســـابقة وبخاصة التوراة والانجيل ويتلخص هذا الحق والجوهر فى توحيـــد الله والاستسلام لمشيئته .

من قبل هدى للناس وانزل الفرقان هذه الآية الكريمة متعلقة بما قبلها من انزل التوراة والانجيل وان انزالهما كان قبل انزال القرآن لذات الغرض وهو هداية البشر .

« وأنزل الفرقان »

الفرقان : مصدر من مصادر فرق ، ومثله الفرق كالخسران والخسر ، واستعمل فى القرآن بمعنى الحجة وبمعنى النصر واسما للـــكتاب المنزل « الفرقـــان » .

وفى القرآن الكريم سورة بأكملها اسمها الفرقان تقطع بأن كلمة الفرقان تعنى اذا ما ذكرت مطلقة انها القرآن ، قال تعالى :

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » .

ومع ذلك فان العلامة الشيخ رضا يقول فى تفسير المنار ان القول بأن الفرقان هو القرآن قول « مردود » أى انه لا يأخذ به وهو يتابع فى ذلك رأى أستاذه الشيخ محمد عبده الذى قال ان الفرقان يعنى « العقل » وحجة الشيخ رشيد رضا واستاذه فى هذا الراى انه قد قيل فى أول الآية السابقة « نزل عليك الكتاب » فلزم أن تكون كلمة « الفرقان » تعنى شيئا غير القرآن ، مع أن أساليب اللغة وأسلوب القرآن بالذات يجعل تكرار اللفظ أحيانا نوعا من بلاغة التعبير فكيف عندما يتباين اللفظان « الكتاب » و « الفرقان » ثم يكونان فى آيتين منفصلتين ، الحق أنه مـــع احترامنا الكبير للشيخين ، نرى فيما قالا مدى اعجابهما بالعقل ، فاجتهدا فى تفسير الفرقان بأنه يعنى العقل ، ونحن نخالفهما فيما قالاه جملة وتفصيلا ونرى أن كلمة الفرقان هنا تعنى القرآن الـــكريم .

« ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد»

وبعد أن يقرر الله سبحانه وتعالى أن جوهر الكتب السماوية ، وبخاصة التـــوراة والانجيـــل والقرآن واحد ، فكل منها يصدق الآخر ويهدف الى هداية الناس الى طريق الحق والرشاد ، فقد توعد « سبحانه » كل من يكفر بآيات الله وآخرها آيات القرآن التى تحكم كل ما سبقها ، توعد كل من يكفر بهذه الآيات عذابا شديدا « والله عزيز ذو انتقام » .

والله سبحانه وتعالى خالق الانسان وهو العارف بطبيعته البشرية ، يعلم ان كل نشاط انسانى انما يتم ببواعث من الرغبة والرهبة ، وان الترغيب هو النافع فى بعض الأحيان كما أن التخويف هو الأكثر نفعا فى أحيان اخرى فهو اذا كان يقرر انه رحمن رحيم وانه يغفر الذنوب جميعا ، فهو يقرر كذلك انه عزيز اى قوى غالب . ذو انتقام : اى انه يعاقب ويجازى ليحقق العدل بين الناس .

وطالما اشرنا من قبل اننا يجب ان نفهم كل ماجاء فى القرآن من مثل كيد الله ومكر الله وانتقام الله انما هو خطاب للبشر بلغتهم التى يفهمون ، وعلى المؤمن الحق أن يفهم ان الله يحذره ويعلمه على أن ينزه الله عن كل المعانى الانسانية التى يعبر عنها اللفظ ، فاذا كان المعنى الانسانى لكلمة انتقام هو التشفى فيجب أن ينزه الله عن هذا المعنى .

« ان الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » ويمضى القرآن الكريم فى بناء العقيدة عقيدة التوحيد فالله لا شىء قبله ، ولا شىء بعده ، انه الواحد الذى لا اله غيره ، انه الحق خالق كل شىء ومدبره وحافظه « القيوم » وهو بهذه الصفة قادر على كل شىء عالم بكل شىء ، ولما كان القرآن كتاب وعظ وارشاد يخاطب الناس فى كل زمان ومكان وهم متفاوتو العقول والادراك فقد راى أن يعرفهم وهو اذ يعرفهم يحذرهم انه « لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء » .

عـــالم الفضـــاء :

واليوم يحدثوننا عن غزو الانسان للفضاء وانه هبط بالفعل على ظهر القمر ، وان الانسان فى طريقه الى سكنى الكواكب ، بل ان بعضها قد يكون مسكونا بالفعل ، والاهم أنه ايا كان ما سوف يكون عليه المستقبل بالنسبة للفضاء الخـــارجى « السماء » فان القرآن الكريم ما تحدث عن الأرض الا وقرنها بالسماء لا يختص احداهما بحكم لايسرى على الأخرى ، وهو فى هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها يعلمنا انه حيث كنا فى الأرض او فى السماء فلن تخفى عليه ادق خواطرنا فضلا عن اعمالنا .

فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ
هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ
وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾
رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ
لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ

« هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشـــاء »

الأرحام : جمع رحم ، والرحم هــو المــكان المخصص لسكنى الجنين وتكونه فى جسد الانثى.

وقد قيل على ما أشرنا منقبل أن الآيات منصدر ســورة « آل عمران » حتى الآية ٨٢ قد نزلت بمناسبة محاجة دارت بين سيدنا محمــدصلى الله عليه وسلم وبين وفد من النصــارى جاءه من نجران ، وسترد علينا آيات تمثل دورة هذا الحوار ، ومن هنا ذهب المفسرون القدامى الى توجيه المعنى فى أى كلمة الى هذا الجدل حول المسيح وكيف كان وتكون ثم ولد ، فيقولون أن المسيح قد تكون فى الرحم وصوره الله سبحانه وتعالى كما يصور أى جنين آخر فاستحال بذلك أن يكون الها . وعندنا أن القول هنا عام يتحدث عن معجزة الحياة المذهلة ، وقد حدثنا القرآن عنها من قبل ، وسوف يحدثنا عنها بعد ذلك ، لأن مجرد تأملها كفيل بالايمان بالله الواحــد الأحد الحى القيوم القادر والقدرة لا تستطيع عقولنا أن تستوعب مداها فلا يبقى أمامنا الا أن نقربهــا بوجداننا ونستسلم لمــا قدره الله علينا .

وفى كتابنا «الطاقةالانسانية» ذكرنا فى عشرات من الصفحات ما يذكره العلماء عما يجرى داخل الرحم ، وحسبى أن أشير بايجاز جدا الى ملاحظتين حول التنوع والنمو .

التنــوع :

أما الملاحظة الأولى فخاصة بالتنوع الذى يعيا العقل بتتبعه . فمعلوم أن الجنين يبدأ بخليــة واحدة ثم تروح تنقسم وتنقسم مما سنشير له فى ملاحظتنا الثانية ، أما هنا فحسبنا الحديث عن التنوع المذهل الذى تتنوعه الخلايا التى تنقســم اليها الخلية الأولى ، فثمة خلايا ستكون العظام واخرى ستكون اللحم أى العضلات وثالثة ستكون الدم ورابعة ستكون الجلد وخامسة وسادسة.. الخ ثم يأتى التنوع فى اللون فمن سوداء الى حمراء الى بيضاء وصفراء ، ثم من حيث الشكل فمن

مربعة الى مستطيلة ومستديرة ومخمسة ومسدسة ومثمنة ، ومن خلايا كالقرص وأخرى كالأنبوبة وثالثة كالكرة أو اللولب أو المكعب .. الخ . وثمة خلايا لتجر وخلايا لترفع ، وخلايا لتقبض وأخرى لتبسط ، وخلايا لتوليد الحرارة ، وأخرى لتوليد البرودة . وخلايا للمخ وأخرى للقلب وهكذا ، كل هذا التنوع المذهل فى التكوين واللون والحجم والكتلة والوظيفة .. الخ .

الانقسام وضخامته المذهلة :

واذا كان العقل يعجز عن متابعة التنوع الذى تصير اليه الخلية الواحدة فان العقل يعجز مرتين بل عديدا من المرات ازاء الحقيقة الثانية من حقائق تطور الجنين فى الرحم وهو مدى نمو الخلايا وتكاثرها وقد قدمت لك أن الجنين ينشأ من خلية واحدة لا أريد أن أثقل عليك بذكر وزنها لأن ذكر الرقم لن يفيدك شيئا ، هذا الجسم الذى لا يرى بالعين المجردة هو الذى سيشرع فى الانقسام والتكاثر بحيث يتحول فى خلال تسعة أشهر الى جسم يزن بضعة كيلوجرامات ، والآن أيها القارىء الكريم استعد لاحتمال المفاجأة .

وليست هذه المفاجأة الا ما يقوله لنا علماء الرياضة من أننا لو تصورنا أن جسما ما ظل يتكاثر بهذه النسبة لمدة عشرين سنة لكان مقداره مساويا لحجم الشمس وتوابعها وكل الفراغ الكائن بينهما .

ولكن الذى يحدث أن الخلايا تظل تنقسم وتتكاثر وتتنوع بهذه الصورة المذهلة الى ان يكون العضو المطلوب بالصورة المطلوبة ثم تتوقف عن النمو والتكاثر ، لقد أدت مهمتها وصنعت العين ، وصنعت اليد والقدم .. الخ وهذه التشوهات التى نسمع عنها فى بعض الأجنة انما هى كى يثبت — فوق ثبوت — أن خلف ميلاد كل طفل سوى ذكرا كان أو أنثى مشيئة الخالق القائمة الى جوار تطور الجنين كل جنين .

« هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم » .

وتختتم الآية بعد الحديث عن عظيم قدرة الخالق الذى يصور الأجنة فى الأرحام كيف يشاء . بأنه واحد أحد لا ثانى له ، وهو اسقاط ونفى لما قاله نصارى نجران من أن المسيح هو الله بذاته ، ففى الآية تعريض بأن المسيح وقد ولدته أمه فقد صوره الله فى رحمها كما يصور أى جنين آخر .

العزيز : الغالب القوى المقتدر على كل شىء .

الحكيم : الذى يدبر كل شىء ، ويحكم كل شىء لتحقيق مايشاء من غايات .

« هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » .

محكمات : جمع محكمة ، أحكم الشىء ، أى أتقنه ، فالشىء محكم وهى محكمة والسورة المحكمة والآية المحكمة هى المتقنة ، من حيث كونها واضحة الدلالة وسنزيد الأمر تفصيلا فيما بعد .

متشابهات : أحسن ما قيل فيها باعتبارهـــا وصفا لبعض آيات القرآن ماجاء فى معجم ألفاظ القرآن من أنها تعنى « قابلات للتأويل » على تفصيل سنتحدث عنه .

أم الكتاب : الأم معروفة وعندما تنسب للكتاب « اى القرآن » يصبح معناها أصـــل الـــكتاب وجوهره .

حقيقة الايمان :

فى راينا أن هذه الآية الكريمة مفتاح الكيفية التى يتعامل بها المؤمن مع القرآن الكريم . فالقرآن كتاب أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم لهداية البشر وتعريفهم بالطريق اليه فانطوى على كل ما يعمق العقيدة بالله خالق الخلق وانه واحدلا شريك له ، وتضمن القرآن الى جانب ذلك كل ما يصلح من شأن العباد بتحريم الحرام وتحليل الحلال ، ورسم قواعد المعاملات بين البشر لخيرهم فى الدنيا والآخرة ، ولكن القـــرآن من النـــاحية الأخرى نزل باللغة العربية التى يفهمها النـــاس فاستعملها بالصيغ التى اعتادوا ان يستعملوها كالتشبيه والمجاز والكناية ، وهو فى سبيل الوعظ والارشاد تضمن قصصا عن الأنبياء وغير الأنبياء ووردت فيه أقوال لا نعرف اذا كانت من مقولات من يحكى عنهم القرآن ، أم هى أقوال يقررهـــا الله عز وجل ، الى غير ذلك ، وهنا كما سوف تقرر الآية المحك لمعرفة المؤمن من غير المؤمن ، فترى المؤمن ينصاع لجوهر ماجاء به القرآن من توحيد صاف فيعتقده ، ومن أوامر فيتبعها ونواه فينتهى عنها ، وما زاد على ذلك فهو يؤمن انه كله كلام الله ما فهمـــه منـــه فقد فهمه ، وما لم يفهمـــه يقـــول : علمه لله ، وثمـــة قســـم من القـــرآن اختص الله بعلمـــه ونبـــه على ذلك ، كالغيب وكل ما يتصل به . هذا هو ما نفهمه من قوله تعالى عن « آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » ولا أحسب أن السلف وجدوا فى فهم هذا المعنى اية صعوبة .

ولكن بعض القدامى ــ وطالما أشرنا الى ولعهم الى التشقيق والتفريع والجدل ــ سرعان ماغرقوا فى بحر المحكم والمتشابه ، حتى انـــزلق البعض فراح يتساءل : ولماذا كان فى القرآن محكم ومتشابه؟ ويتصدى بعض للدفاع عن القرآن مبينا فوائده لاشتماله على المحكم والمتشابه ، وكل من المتسائل والمجيب على تساؤله انما يحكمان بعقلهما وفكرهما على القرآن ــ حيث سيبين لنا القرآن الكريم ــ أن ذلك كله ليس سبيل المؤمنين الراسخين فى العلم الذين يقولون فى اطمئنان أن الكل اى المحـــكم والمتشابه ، من عند الله . وهم يستضيئون دائما بمقاصد القرآن وأحكامه كما تبينها الآيات المحكمات اللواتى هـــن واضحات الدلالة فكن بذلك « أم الكتاب » وقد ضرب مثـــلا لهذه الآيات . من مثل قوله تعالى : « قل تعالوا اتل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئا » الى آخر الآيات ومن مثل قوله تعالى « وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه » الى آخر الآيات ووهم بعض فحـــكوا عن بعض الصحابة ما يفيد ان هذه فقط هى المقصودة مع انه يستحيل عقلا قصر الأمر على هذه الآيـــات فمثلها فى القرآن كثير ، ونحن مأمورون امرا ان نقيم الحدود التى حددها الله وأن نصدع بأوامره .

ومن هنا فلا نحب أن نغرق كما غرق بعض من سبقونا فى محاولتهم وضع تعاريف للمحكم والمتشابه .

وقد ورد فى القرآن وصف لآيات القرآن انها كلها محكمة ، اى متقنة . جاء فى أول سورة هود «كتاب أحكمت آياته » كما وصف القرآن كله بأنه متشابه . جاء فى سورة الزمر : « الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها » اى يشبه بعضه بعضا فى هدايته وبلاغته وانطباق كل آية فيه على الحق والصدق فسلم من الخلاف « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا » .

« فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » .

زيغ : من الفعل ازاغ ، اى امال ، والمعنى هنا « الميل عن الحق » .

الفتنة : الأصل فى الكلمة لغويا تعنى الاحراق ثم استعملت مجازا لتعنى الامتحان والابتلاء ، وهى هنا تعنى نشر البلبلة واشاعة الاضطراب .

تأويله : وردت كلمة التأويل فى القرآن بعديد من المعانى ولكنها تعنى فى ضوء السياق هنا الانحراف عن المعنى ليوافق غرض المتكلم ، وقد يحدث هذا عن حسن قصد ، ولكن المقصود هنا هو فعل ذلك عن سوء قصد لاشاعة البلبة والاضطراب وهكذا لا تكون هناك اية صعوبة فى معرفة ما هو محكم وما هو متشابه فاية آية يستخدمها من فى قلوبهم زيغ لتدعيم ما هم عليه من وهم وضلال أو قاصدين الى اشاعة الفتنة والتشكيك فهذا هو «المتشابه» وما ليس كذلك فهو المحكم ، وقد كان آخر ماسمعناه من هذا القبيل قول أحد الملحدين : اذا كانت الجنة عرضها عرض السموات والأرض ، فأين مكان النار اذن ، فيكفى أن تسمع هذا التساؤل لتدرك على الفور أن السائل ملحد ، لأن المؤمن يعرف ان كل مايتعلق علمه بالغيب فهو عند الله ، والمكانية الأرضية والزمان هما أمران من خصوص هـذه الدنيا ، أما فى الآخرة فلها قوانينها ونواميسها . والمؤمن يؤمن بكل عناصر الغيب أما الذى فى قلبه زيغ فحجته أنه يريد أن يفهم ، وهو فى الحقيقة يشكك .

حول قضية الوهية المسيح :

واذا كانت هذه الآيات قد نزلت بمناسبة محاجة النصـارى فى الوهية المسـيح فقد تضمنت كتب التفسير بعض الآيات القرآنية التى تمسك بهـا النصارى لاثبات الوهية المسـيح فيقولون : أو لا يقول القرآن أن المسيح كلمة الله ؟ او لم يقل ان المسيح « روح الله » وهل كلمة الله وروح الله الا الله بذاته ؟

فهذا هو النموذج الصارخ لتعلق من فى قلبه زيغ بكلمة من هنا ، وكلمة من هناك مغفلا صريح القول بأن الله « لم يلد ولم يولد » وذكر القرآن بأن المسيح عيسى بن مريم ليس الا عبـدا من عباد الله أرسله ليكون مبشرا ونذيرا وكونه كلمة الله فشانه فى ذلك شان اى أمر يريده الله « كن فيكون » وكلمة « كن » هى كلمة ، وكونه من روح الله فشانه فى ذلك شان آدم « فاذا سـويته ونفخت فيه من روحى » .

أما البحث : هل الله شيء غير روحه وكلمته ؟ فهذه هى الأبحاث التى لا يراد بها غير الفتنة ، ولا يقول بها الا من فى قلوبهم زيغ .

« ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله »

وعندنا ان هذه الآية هى فيصل التفرقة بين المحكم والمتشابه ، فكل آية يجد فيها من فى قلبه زيغ سبيلا الى الفتنة عن طريق تأويل الكلمات لهذا المعنى أو ذاك مما يوافق هواه « خارجا عن فهم الجماعة » فهذا هو « المتشابه » .

« وابتغاء تأويله » .

ونريد أن نقف قليلا أمام هذا التعبير ، جاء فى معجم الفاظ القرآن :

« أول الكلام وتأوله : فسره وبين المراد منه . والتأويل : التفسير وتبيين ما يؤول اليه الأمر من الكلام » .

وعندنا أن التأويل بمعنى التفسير لا يمكن أن يكون مفهوما هنا الا اذا تصورنا ان فى الكلام تقديما وتأخيرا بحيث يصبح المعنى « تفسير القرآن بما يحقق الفتنة » ولما كنا لسنا من انصار الاسراف فى القول بالتقديم والتاخير ، فلم يبق أمامنا الا اعتبار التاويل هنا بمعنى تعمد اخراج المعنى عن هدفه .

« وما يعلم تأويله الا الله »

اى أن تفسير الآيات المتشابهة لا يعلمه الا الله سبحانه وتعالى فهو وحده الذى يعرف حقيقة المقصود بهذه الكلمة او تلك ، هذا هو المعنى الذى ينشرح له صدرنا ، اى قصر المعرفة الحقة لما هو متشابه على الله سبحانه وتعالى ، وينتهى هذا القسم من الآية عند هذا الحد ، ثم يستأنف القول بمعنى جديد .

« والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا » .

الراسخون : الثابتون .

ويكون المعنى ان الذين فى قلوبهم زيغ يحاولون تأويله « اى المتشابه » ابتغاء الفتنة زاعمين أنهم يحاولون العلم ، حيث العلماء الحقيقيون الثابتون فى علمهم لا يستنكفون من الاقرار بالاستسلام وتفويض العلم لله ، وحسبهم أن يعرفوا أن الآيات كلها سواء منها المحكم أو المتشابه من عند الله ، وهذه هى سمة العالم الحق الذى يعرف لنفسه حدودا يقف عندها .

واذا أردت أن تعرف سمة الجاهل من العالم فسوف تراها فى جزم الجاهل وقطعه بكل شىء ، فهذا الأمر لا يمكن الا أن يكون هكذا ، ومن المحقق ومن المؤكد ومما لا شك فيه ، عندما يتحدث أمامك متحدث بمثل هذا الأسلوب ، فاعلم انه غير عالم فالعالم اذا تحدث يعلم انه فوق كل ذى علم عليم ، ويعلم اننا « البشر » لم نؤت من العلم الا قليلا ، ولذلك فهو عندما يتكلم يكثر من التحفظ فتراه يقول « منتهى علمى » ان الأمر « هو كذا وكيت » واغلب الظن ، وعلى الأرجح ، والاقرب الى الصواب .

هذه هى اخص خصيصة العلماء واعنى بها : التواضع ، ولذلك فهم لا يشعرون باى غضاضة ، ولا يحسون بانه ينقص من قدر علمهم أن يقولوا اذا سئلوا عن آية من المتشابه : « علم ذلك عند الله » .

« الا الله والراسخون فى العلم » .

هذا المعنى الذى لا ينشرح صدرنا الا له هو الذى يقلبه البعض راسا على عقب اى من معنى التواضع الى حد قرن علمهم بعلم الله ، ويصلون لهذا المعنى بجعلهم « الراسـخون فى العلم » معطوفة على لفظ الجلالة ، ويقفون على العلم ،فيصبح المعنى : انه لا يعرف تأويل « اى تفسير » المتشابه الا الله والراسخون فى العلم .

ولسنا نريد ان ندخل فى مناقشة القائلين بهذا القول ولذلك وقفنا عند حد القول ان الله يشرح صدرنا للمعنى الأول ، ويرجع انشراح الصدر الى الأسباب الآتية :

١ ــ ان الاجماع على ان آيات الغيب مما اختص الله بعلمه وهى من المتشابه بالاجماع .

٢ ــ يقول الله سبحانه وتعالى « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

٣ ــ الراسخون فى العلم مرتبطة ارتباطا عضويا لا ينفصم بما جاء بعدها من كلام : « يقولون آمنا به كل من عند ربنا » حيث لا وجود لهـذا الارتباط العضوى مع ما قبلها .

« وما يذكر الا اولوا الألباب » .

وتنتهى الآية الكريمة ، بأن الهداية فى نهـاية الأمر هى النعمة التى يسبغها الله على أصحاب العقول والقلوب المؤمنة الصادقة ، فلا يزيغون ولا ينحرفون ، ويفهمون من كل كلمة وحرف ما يزيدهم ايمانا بالله .

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا » .

هذا السياق يحتمل وجهين فى نظر المفسرين ،فهو اما أن يكون حكاية عما يقوله الراسخون فى العلم بمعنى انهم يسـلمون بالمتشابه كمـا انزله الله ، ويسألون الله سبحانه وتعالى أن لا يزيغ قلوبهم ، اى لا يميلها او يصرفها عن الحق بعد اذ هداهم ، واما أن يكون القول هو توجيه من الله عز وجل للراسـخين فى العلم أن يتوجهـوا لله سبحانه وتعالى بهذا الدعاء ليحميهم من وسوسة الشـيطان ، الذى ينتهز فرصـة بعض الآيات « المتشابهة » لكى يتسلل الى النفوس .

« وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب »

بقية الدعاء الذى يقوله الراسخون فى العلم او هو تعـليم لهم من الله ابتـداء ، فهم « اى الراسخون فى العلم يعلمون أن الأمر كله لله ،فيسألونه أن يسبغ عليهم الهداية والتوفيق برحمة منه ، فهو الوهاب الذى يهب النعم لمن يشـاء ويسلبها ممن يشـاء .

« ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب فيه » .

استمرار لدعاء الراسخين فى العلم اما ابتداء واما تعليما من الله عز وجـل أن يكون هـذا دعاؤهم ، ولقد قلنا من قبل ونقول ان الايمـان بالآخرة بمعنى يوم القيامة وما يسـبقه ويعاصره ويعقبه من احداث تبدأ بالبعث والنشور مرورا بالحساب فالجزاء ثم .. اما الى الجنة واما الى النار، هو لب التدين وجوهره فبدونه لايكون للايمان اى أثر فضلا عن فائدة ، ومن هنـا كان العلم ــ منتهى العلم ــ ادراك هذه الحقيقـة دون أن يعتورها أى شك .

« ان الله لا يخلف الميعاد » .

وينشط المفسرون مرة أخرى ليتساءلوا : هل هذه العبارة « ان الله لا يخلف الميعاد » أهى استمرار للكلام السابق ، أم أنها بدء قول يقرر به الله سبحانه وتعالى « انه لا يخلف الميعاد » وعندنا أن كلتا الحالتين واحدة فالله سبحانه لن يخلف الميعاد .

« المال والبنون »

كان أعظم ما استطال به كفار قريش على الدعوة المحمدية الى الايمان بالله وتوحيده ، انهم كانوا أغنياء القوم وسادتهم ، وكانوا قد وصلوا لهذه السيادة بأموالهم وقوة عشيرتهم التى كانت وتكون — فى الدرجة الأولى — من أبناء الانسان ، فجاءت هذه الآية « ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا » .

لتنذر هؤلاء الكافرين أن أموالهم وأولادهم ان كانت تساوى شيئا فى هذه الدنيا ، فهى عند الله لا تغنى فتيلا ، حيث يقاس كل انسان بعمله الصالح ، والعمل الصالح فقط وقد ذكر القرآن الكريم فى آية أخرى ان من أكبر نعم الله على العبد أن يرزقه فى هذه الدنيا المال والبنين ، ولكنه أردف ذلك بالتقرير أن الأعمال الصالحة هى وحدها التى تنفع الانسان فى الحياة الأخرى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » .

ومن هنا فالقرآن الكريم يذكر الكفار أن أموالهم وأولادهم لن تغنى عنهم شيئا أمام الله يوم القيامة « وأولئك هم وقود النار » .

اى أن الكفار بأموالهم وأولادهم اذا ظلوا كفارا هم حطب جهنم ووقودها وقد حاول بعض المفسرين أن يجعلوا القول موجها لوفد نجران ، ولكنا نرى الكلام عاما وموجها الى ما أدرجه القرآن على ما نسميهم بالكفار وهم مشركو قريش على زمن الرسول ، وعلى كل من يكفر بالله الى أبد الآبدين ، فلن تنفع الجماعات والدول الكافرة مهما عظمت أموالها أو أسلحتها أو أساطيلها واختراعاتها من الله شيئا ومآلهم جهنم وبئس المصير .

« كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم » .

دأب : دأب فى عمله يدأب دأبا : جد فيه ودوام عليه ، واستعمل الدأب فى معنى العادة والشأن .

ويصبح المعنى أنه لن يغنى الكفار أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، كشأن آل فرعون وكل من كان على شاكلتهم من قبل اى من حيث الكفر ، وخص آل فرعون بالذكر باعتبارهم أعظم القوى فى عصرهم من حيث القوة والعزة والسؤدد فضلا عن الغنى الفاحش الذى لا يزال يبهر البشر حتى عهدنا الحاضر وهم يرون الذهب يكسو كل شىء من آثار الفراعنة ، ومن الواضح أن فراعنة مصر كانت لهم شهرة مدوية فى شبه جزيرة العرب من ناحية الجوار أولا ، وفى مكة والمدينة بخاصة لوجود اليهود ، فالقرآن الكريم ينذر كفار قريش أنهم لن يكونوا أغنى من آل فرعون حيث أخذهم الله بذنوبهم كما أخذ كل من كان على شاكلتهم قبلهم .

ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾
قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ
بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ
ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ
عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ

والله شديد العقاب : اى على من يستحقهومن يعيش كما عشنا يرى مصداق ذلك فى الدنيا قبل الآخرة ، ومن يفلت من عقاب الدنيا ، فلنيفلت ابدا من العقاب فى الآخرة .

« قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الىجهنم وبئس المهاد » .

وهذه آية ناطقة بصدق الرسول من ان القرآن الكريم هو تنزيل من رب العالمين فهو ينذر كفار قريش على وجه القطع واليقين ، انهم سيغلبون،اى فى الحرب والقتال وهو ما تحقق بالفعل وتأكد وسواء نزلت هذه الآية قبل غزوة بدر او بعدغزوة احد فالنتيجة واحدة وهى انها تتنبأ بصورة قاطعة جازمة أن الكفار سيغلبون حيث كان الوا قع والظاهر أن للكفار اليد العليا ، فقبل غزوة بدر كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلمقد اضطر ان يهاجر من مكة بعد ان اصبح من المستحيل مجابهة الكفار بها .

وفى ليلة الهجرة بالذات تربص به الكفار لقتله لولا ان انجاه الله ، فان توعد القرآن الكريم الكفار رغم ذلك بأنهم سيغلبون هى النبوءة التىصدقتها الأحداث .

وان تكن الآية نزلت بعد غزوة احد فهى بدورها تنبىء على خلاف الواقع بما سوف يحدث وقد هزم المسلمون فى احد الى الحد الذى اشيعفيه ان سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل مما سيرد علينا تفصيله فى آيات قادمة .

« وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد » يضيفالقرآن فى وعيده للكفار بعد ان يغلبوا فى الدنيا بأنهم سوف يبعثون يوم الحساب وتكون النارمثواهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار » .

« وبئس المهـــاد » .

بئس : هى ضد نعم ، والأخيرة ترمز لكل ما هوخير . اما الأولى « بئس » فتعنى كل ما هـــو شر وشؤم وتعاسة .

المهاد : الفراش ويقـــال مهد الأمر اذا هيأهواعده . « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله واخرى كافرة يرونهم مثليهمرأى العين » .

آية : تعنى هنا الموعظة والعبرة .

فئة : بمعنى فرقة

هل الخطاب موجه لليهـــود :

يقول ابن كثير فى تفسيره : وقد ذكر محمدبن اسحاق بن يسار عن عاصم بن عمرو بن قتادة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لـــا اصاب من اهل بدر ما اصاب ورجع الى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع وقال يا معشر اليهود اسلموا قبل ان يصيبكم الله بما اصاب قريشا فقالوا يا محمد لا يغرنك من نفسك ان قتلت نفرامن قريش كانوا اغمارا لا يعرفون القتال انك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وانك لمتلق مثلنـــا .

وهذا القول المنسوب ليهود المدينة يظهر لنا أنديدين **اليهود** — فى كل زمان ومكان اذا تجمعوا فى صعيد واحد — هو الغرور والمباهاة والتعالى،حتى اذا جـــد الجـــد كثر بينهم البكاء والعويل والتظاهر بالمسكنة .

فهؤلاء الذين جابهوا سيدنا محمدا صلوات الله عليه بهذا التحدى ، هم الذين خرجوا من المدينة بعـــد ذلك مذمومين مدحورين ، وعندماتصـــوروا فى « خيبر » ان حصونهم ستحميهم ، لم تغن عنهم شيئا بدورها واجبروا على الجلاءنجاة بأرواحهم .

فالجعجعة ، والاســـتتار بالحصـــون بعض سمات اليهود وخصائصهم .

ويرجح جمهرة المفسرين القدامى أن هذا هوسبب نزول هذه الآية ، حيث يطالب القرآن الكريم الكفار بعامة واليهود بخاصة أن يأخذوا العبرة والموعظة مما وقع فى غزوة بدر حيث التقت فرقتان احداهما مؤمنة تقاتل فى سبيل الله والثانية كافرة وعلى الرغم من أن المؤمنين كانوا هم الأقل عددا فقد كان لهم النصر « والله يؤيد بنصره من يشـــاء » .

« يرونهم مثليهم رأى العين »

وقد ورد فى الآية الكريمة ما تصـــوره بعض المفسرين اشكالا حيث لا اشكال فيه فى رأينا كما سوف ترى .

فقد تساءلوا من الذى رأى الآخر مثلين أهم الكفار الذين رأوا المسلمين ضعف عددهم ؟ أم الذى حدث هو العكس بمعنى أن يكون المسلمون هم الذين رأوا ، وقد دفعهم الى ذلك حرصهم الشديد على تطبيق كلمة « مثلين » تطبيقا حرفيا ، ولمـــا كان المأثور والمشهور أن المسلمين فى غزوة بدر

كانوا بضـــعا وثلثمائة رجل ، وكان المشركون ما بين التسعمائة والألف ، اى ثلاثة امثال فقد وجد بعض المفسرين انفسهم فى اشكال التوفيق بين مثلين ، والواقع الذى رواه التاريخ من أن احد الجانبين كان ثلاثة اضعاف الآخر ، مع أن الذى نفهمه من القول ان الذى راى الآخر ضعف عدده هم المشركون لمـــا استولى على قلوبهم من الخوف والهلع وقد كان هذا من أسرار هزيمتهم .

هل هناك تعارض ؟

هنا ويقول البعض ان القول بذلك يتعارض مع ما جاء فى سورة الانفال التى سردت أحداث غزوة بدر حيث جاء فيها «واذ يريكموهم اذ التقيتم فى اعينكم قليـــلا ويقللكم فى اعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا » .

وعندنا مرة أخرى ان لاتعارض من أى نوع كان ، بل تكامل وتوافق فقد شاءت ارادة الله ان يلتحم الكفار مع المؤمنين لأول مرة فى معركة شاملة وكان أن خرج مشركو قريش فى جيش فى الف رجل تقريبا ، ثلثهم من الفرسان ، والفرسان فى ذلك الزمان تساوى الدبابات فى الوقت الحاضر ، حيث لم يكن مع المسلمين سوى فرس واحد وقد كان هذا الفارق من شأنه أن يحول دون المعركة ، ولكن الله سبحانه وتعالى قلل عدد المسلمين فى نظر المشركين حتى بأقل من عددهم ليجترئوا عليهم ويطمعوا فى القضاء عليهم ، وقلل عدد المشركين فى نظر المسلمين ، ليزول من قلوبهم آخر ذرة من تردد . كان ذلك قبل التحام الجيشين ، أما بعد أن التحما بالفعل فقـــد تغير الموقف تماما فعز المؤمنون وتقووا ، حيث خارت قوى المشركين ووهنوا ، وأول مظاهر الوهن ان تتصور عدوك اكثر عددا مما هو عليه فى الواقع ، يقول لنا الشيخ الفاضل صاحب تفسير المنـــار أنه يرى فى هذا القـــول « تكلف » ونحن مع احترامنا لفضـــيلة الشيخ الكبير لا نقره على ما ذهب اليه .

وقد أسعدنا كل السعادة وزاد فى اطمئناننا لوجهة نظرنا أن كان هـــو راى أشياخنا علمـــاء الأزهر فقالوا فى تفســـير الوسيط : « يرونهم مثليهم » .

والراءون : المشركون والمرئيون : المؤمنون والمعنى ، ان المشركين كانوا يرون المؤمنين مثلى عدد المشركين ، أو مثلى عدد المسلمين والمراد من الرؤية : الظن والحســـبان . قد كثر الله المســـلمين فى اعين المشركين — مـــع قلتهم —ليهابوهم فيحترزوا عن قتالهم ، أو ان الله انزل الملائكة حتى صـــار عـــدد المسلمين كثيرا بنظر المشركين فكانوا يرونهم مثلين .

راى العين : اى رؤية ظاهرة لا لبس فيها ، روى محمد بن الفرات عن سعيد بن أوس انه قال : اسر المشركون رجلا من المسلمين فسألوه : كم كنتم ؟ قال : ثلاثمائة وبضعة عشر . قال : ما كنا نراكم الا تضعفون علينا — وارادوا انهم كانوا الفا وتسعمائة وهو المراد من « يرونهم مثليهم » .

وقد يقال : ان هذه الآية تناقض آية الأنفال التى تقول : « واذ يريكموهم اذ التقيتم فى اعينكم قليلا ويقللكم فى اعينهم » فان تلك الآية تقتضى ان كلا من الفريقين قلل فى أعين الآخر وهذه الآية

تقتضى أن المسلمين ضاعفهم الله فى أعين الكافرين والحق الا تناقض بينهما اذ المراد بآية الأنفال :
« واذ يريكموهم » أيها المؤمنون « اذ التقيتم فى أعينكم قليلا » انما كانت هذه الرؤيا قبل الالتحام لتقدموا عليهم ، « ويقللكم فى أعينهم » ليقدموا عليكم ولا يجبنوا عن القتال فلما التحم الفريقان ارى الله المشركين المسلمين مثلين .. الخ .

« والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

وهكذا أيها المخاطبون بهذا القرآن الى ابد الآبدين ، اياكم ان تتصوروا ان الغلبة فى هذه الدنيا بالمال أو الأولاد أو كثرة الجنود والاتباع وانما النصر من عند الله يمنحه لمن يشاء وهو دائما من نصيب المؤمنين الذين ينصرون الله ، ولقد رأيتم مصداق ذلك ، ولكن الاعتبار لا يكون الا لذوى الأبصار الذين لهم عيون يبصرون بها ثم لهم عقول تفقه ما تبصر ، وتستخلص منه العبرة والعظة .

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب » .

مفردات :

الشهوات : ما تشتهيه النفس .

القناطير : جمع قنطار وهو الوزن المشهور ولكن مقداره يختلف من مكان الى مكان ومن عصر الى عصر ، فحيث ذكر بعض الصحابة ان القنطار ألف ومائتا أوقية ، فقد نقل كذلك أنه اثنا عشر الف أوقية ومائتا أوقية ، ونقل كذلك أنه اثنا عشر الف أوقية ، والقنطار كما علمونا اياه فى المدارس مائة رطل وقد قيل لى أنه فى القطن ١١٠ أرطال ولذلك فيجب أن يفهم من كلمة قنطار أنها تعنى القدر الكبير ، ويؤكد ذلك الكلمة التالية .

المقنطرة ، المجمعة أو المتراكمة .

المسومة : أى التى ترعى ، أو المطهمة الحسان .

الانعام : الابل والبقر والغنم والماعز وما أشبه ذلك .

الحرث : أى المزروعات .

الدنيا والآخرة والوسطية والاعتدال :

أحد أسرار الدين الاسلامى التى جعلته دينا انسانيا خالدا صالحا لكل زمان ومكان مصدر الحضارة ما ان تمسك به الناس ، انه كما قلنا اكثر من مرة ، لا يصادر الطبائع والغرائز ، انما ينظمها ويهذبها ، وقد خلق الانسان من مادة وروح ، والمادة هى من نوع مادة الأرض وهو ما يرى بالعين المجردة بعد موت الانسان حيث يتحول الى بعض تراب الأرض .

وهناك الروح التى هى من أمر الله والتى كانت وستبقى الى الأبد سر الأسرار فى هذا الكون .

والانسان مؤلف من هذين العنصرين معــا ،والقسم المادى فى الانســان هو منبع الغرائز والشهوات والأنانية والرغبة فى الأخذ والتملك ،حيث يدفع القســم الروحى فى الانســان الى التسامى والزهد والتجرد والبذل والعطاء .

والمدنية والحضارة تقوم فى المجتمعات البشريةعلى العنصرين معا ، فلا توازن للانسان وبالتالى لا قيــام للحضــارة اذا هو انصرف الى احدالقسمين ، مهملا تماما القسم الآخر ، ويفسد حال الانسان والمجتمع اذا تصور المتصورون ان الحياةروحانيات بغير ماديات ، كما تسوء حال الانسان كذلك اذا تصور الحياة ماديات فحسب وهوما نشهده فى دنيانا المعاصرة حيث نرى المجتمعات التى اغرقت فى المــادة وعبادة المــادة تندفع فىطريق التدهور والانحلال تدهورا سريعا .

الاسلام والتوازن :

وجاء الاسلام للبشرية بالميزان الدقيق الذىيجمع به الانسان بين الروح والمــادة فيأخذ من كل منهما بنصــيب ، فتستقيم أحواله وتزدهر الحضارة بالتالى . والدنيا هى المادة المحسوسة الملموسة والآخرة هى الغيب وهى الروح .

وبقدر ما حث القرآن الكريم على التفكير فىالآخرة والعمل من اجلها فقد جعل العمل الصالح فى هذه الدنيا هو الذى يوصل للنجاح فى الآخرةولذلك قيل بحق أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وحرص القــرآن الكريم على حض البشر أن يأخــذوا بنصيبهم من الدنيا « ولا تنس نصيبك من الدنيا » واثنى على المؤمنين اذ يسألونه : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » وامر المؤمنين أمرا « كلوا من طيبات ما رزقناكم » وانكر علىمن يحرم زينة الله .

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعبــادهوالطيبات من الرزق » الآية .

وصف المــال فى أكثر من آية بأنه « خير »ودعا الى عدم الاسراف فيه ، وحذر من تبديده « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكمقياما » .

على أنه ما من مرة يقرر فيها القرآن الكريمهذه المعانى الا ويشفعها على الفور بما يحول دون الافراط والمبالغة فيذكر بأن ما عند الله خير وابقى ، وهذا هو التوازن الذى يحقق للمسلم الفرد والجماعة أقصى درجات الرقى والنجاح .

اقرأوا الآية على هذا الضوء :

على ضوء المبادىء السابقة التى هى روحالتعاليم الاسلامية وجوهرها يجب أن نطالع هذه الآية الكريمة ونفهمها فهى ليست ذما فيما اشارت اليه من اعراض ، كما قد يفهم البعض خطأ وانما هى تقرير للغريزة الانسانية التى فطر البشر عليهالصلاح الدنيــا وتعميرها ثم لفت نظر المؤمنين الى الجانب الآخر جانب الآخرة والعمل من اجلهاوذلك بقوله تعالى : « والله عنده حسن المآب » اى المرجع .

زين للناس : هنا ويتساءل بعض المفسرين منالذى زين ؟ ويجيب البعض على هذا الســؤال

بأن الشيطان هو الذى زين ، ولا يمكن أن يكون ذلك صحيحا فحب الانسان ، كل انسان ، لهذه الأشياء التى سوف تعددها الآية هو بعض طبع الانسان الذى خلق عليه ، والله سبحانه هو الخالق وحده لا شريك له ، وقد استند القائلون بأن الشيطان هو الذى زين ببعض الآيات التى تتحدث عن الشيطان وهو يزين للناس اعمالهم « وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون » وذلك عن طريق الوسوسة اما عندما تنسب الزينة الى المخلوقات فهذا عمل الله سبحانه وتعالى :

« انا جعلنا ما على الأرض زينة لها » ، « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » الذى أودع فى البشر الغرائز التى تجعل الانسان يحب ما يحب ، هو الله سبحانه وتعالى ولكنه اودع فيه كذلك « العقل » ليكون هاديا ومرشدا ، وبعث الرسل وانزل الكتب لاقامة ما اسميناه بالتوازن او التوسط .

عناصر الحياة :

ثم راحت الآية الكريمة تعدد عناصر الحياة المختلفة التى فطر الناس على حبها ما اسمته الآية الكريمة « حب الشهوات » اى تشتهيها النفس ، وهى بترتيب أهميتها :

١ — النساء .

٢ — البنون .

٣ — القناطير المقنطرة من الذهب والفضة .

٤ — والخيل المسومة .

٥ — والانعام .

٦ — والحرث .

ويهمنا أن نبرز أن الآية الكريمة لم تتم هذه الأشياء وانما وصفتها بأنها متاع الحياة الدنيا ، وقد قدمنا لك انه لم يطلب منك أن لاتأخذ نصيبك من متاع الدنيا وعلمك كيف تتصرف عن طريق الشكر ليتحول استمتاعك الى عبادة . على سبيل المثال لا الحصر .

وغنى عن البيان ، ان القرآن الكريم كان يخاطب عصره بما يفهمه الناس ولكن مراميه واهدافه التى تتسع لها بعض الفاظه تظل خالدة الى ابد الابدين فعندما يتحدث عن الخيل المسومة ، لأنها كانت هى آية العز والجاه والسلطان والغنى ، بحيث تساوى الآن عشق البعض للسيارات الفاخرة واستبدالها العام بعد العام لتظل متابعة لآخر « موديل » وذلك فضلا عن الاكثار منها .

الحرث والانعام :

واذا كانت بعض العناصر كاقتناء المزارع وامتلاك قطعان المواشى ، ينتقل من بيئة الى اخرى حسب الظروف والأحوال فان عناصر اخرى تبقى ثابتة بلفظها ومدلولها .

النساء والأولاد والأموال :

واول هذه العناصر النساء ، واندفاع الذكر للأنثى طبيعة بشرية ولذلك فلم يحرمها الله وانما نظمها عن طريق الزواج وتجىء الأولاد كاحدى الرغبات التى تستبد بالبشر باعتبارها هى الطريق لاستمرار الانسان وقد كان القرآن الكريم يعبر فى الأغلب والاعم عن الأولاد بالبنين ، ولما كان القرآن الكريم قد ندد فى أكثر من آية عن كراهية العرب للبنات ، فأصبح لزاما علينا أن نفهم أن المقصود بذكر البنين والاولاد هو خلف الانسان سواء بنين أو بنات ، ويذكر لفظ « البنين » على سبيل التغليب ، ما لم يرد ما يخصص أن المقصود هو الذكور دون الاناث ، واخيرا يأتى حب المال والاستكثار منه .

« والله عنده حسن المآب »

وتختم الآية الكريمة بعد تعداد نعم الحياة بأن ما عند الله خير وأبقى ، وسوف يلقاه الانسان عندما يعود اليه .

« قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار » .

الآيات الثلاث متصلة :

ذكرنا هذه الآيات الثلاث لانها تؤلف معنى واحدا وهو تفصيل ما اجمله القرآن الكريم فى ختام الآية السابقة .

« والله عنده حسن المآب » .

فجاءت هذه الآيات تفصل ، فاذا كانت الدنيا تنطوى على متع وملذات ، اولها واخطرها متعة النساء ، ففى الآخرة ما هو أمتع «أزواج مطهرة» وفى وصف النساء بالطهارة الدائمة تكمن الزيادة والأفضلية فأجمل نساء الأرض بحكم انوثتها لابد وان تمر فى كل شهر فى حالة الطمث وما يتبع ذلك من قذارة وأذى لا يزولان الا بعد فترة وبعد اغتسال ، اما النساء فى الجنة فمطهرات من هذه الشائبة فهن طاهرات أبدا .

بقية اعراض الدنيا :

واذا كانت الآية السابقة قد عددت فى ما يعتبره الانسان من نعم الدنيا الأولاد والأموال والزروع والأنعام والخيول فذلك لأنها وسيلة الانسان للحياة الطيبة من ناحية ، ولأن أولاد الانسان هم دوام لبقائه ، ولكن أيا كان هذا البقاء فالموت فى نهاية الأمر هو خاتمة المطاف ، ومن هنا جاءت هذه الآيات لتظهرنا على الوجه الأحسن والأكمل .

١ ــ جنات تجرى من تحتها الأنهار .

٢ ــ خالدين فيها

واذا كانت جنات الأرض «أى بساتين الأرض»تحتاج لنموها وازدهارها الى جهد ومشقة وعمل فلا شيء من ذلك فى جنات السماء ، حيث يجد المؤمنون بها كل ما تشتهيه أنفسهم ويحقق رغباتهم ما لم تبصره عين ، أو تسمعه اذن أو يخطر علىقلب بشر ، وهم فيها خالدون أى لا يموتون هذا الموت الذى نعرفه ولا يليق بعاقل أن يتســاءل كيف يتحقق ذلك مســتخدما فى هذا مقاييســه الدنيوية فهذه من الأمور الغيبية التى تخرج عننطاق العقل ونحن ممن يتصورون أن نجاح الانسان فى اختراق الفضاء والهبوط على سطح القمروارتياد المريخ بآلاته هــو أمر تم بارادة الله ليقتنع معاشر المــاديين والملحدين أن دنيــاهمبشمسها وكواكبها كبيرة ما كبرت بعيدة ما بعدت ، ليست سوى ذرة فى ملكوت الله ، وأن مايتصورونه قوانين ونواميس طبيعية ، فليس ذلك الا منتهى علمهم هم ، وهو النذر القليل التــافه« وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

هذا النعيم لمن ؟

هذه الجنة عند الله بكل ما فيها من نعيم وهناء وخلود ، والتى تفضــل كل متع الدنيا وملذاتها ومظاهر الجاه والسطوة والغنى من نصيب من ؟

« للذين اتقــوا » .

والمتقون هم هؤلاء الذين آمنوا بربهم وعملوا صالحا . وقد رسم لنا القرآن الكريم سبيل العمل الصالح ايجابا وسلبا أى باتباع أوامره والانتهاءعن نواهيه .

واذا كان الله سبحانه وتعالى وهو خالق الانسان يعلم ما ينطوى عليه من ضعف وما قد يعرض له من غفلة ونسيان فقــد علم المؤمنين المتقين ، كيف يستغفرون ويتوبون اذا هم اذنبوا واخطأوا ، فجعل الاستغفار وطلب العفو من اللهوالتماس التوبة هو صفة المتقين الدائمة .

واذا كان الاستغفار وطلب التوبة هو أحــدمظاهر بلأكبر مظاهر التقوى «الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ! » .

فان أخص خصائص المتقين الدائمــة والتى لا تفارقهم لحظة ، هى الصبر والصدق والقنوت .

لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ
ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ
عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

« الصابرين والصادقين والقانتين » .

ولطالما تحدثنا عن الصبر وهو حبس النفس عن رغباتها لاتباع شريعة الله والاتيان بها على الوجه الأكمل .

وفضيلة الصدق هى التزام الحق فى القول والعمل وهى كبرى فضائل البشر فى كل زمان ومكان، ولايقوم اجتماع انسانى فضلا عن مدنية وعمران الا على أساسه ، ولا يعظم انسان الا بمقدار ما يكون صادقا ، وليس هناك ما يشين الانسان ويهدر كرامته واعتباره ، أكثر من أن يكون كاذبا . والمتقى لايمكن أن يكون كاذبا أبدا لأن الكذب يسقط عنه التقوى .

« والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون . لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين » .

القانتون : فسرها البعض بأنهم « المداومون على الطاعة » وعندنا أن هذا معنى عام حيث تتحدث الآية عن صفات خاصة محددة ولذلك فنحن نؤثر أن يكون معناها « الخاشعون » .

« المنفقين » وهكذا يدخل الانفاق فى الصفات الأساسية للمتقين ، وغنى عن البيان أن ليس المقصود هو مجرد الانفاق ، فالكافر والعاصى والمنحرف ينفق كل منهم حسبما يشاء ويختار ، فيبقى أن نفهم أن المقصود هو الانفاق فى سبيل الله والانفاق لا يكون الا من فائض المال فدل ذلك على أن « الغنى » لا يخلع عن المؤمن صفة التقوى فى أعظم درجاتها .

وانما المهم فى الموضوع هو كيف ينفق ماله وهل يؤدى حق الله ، فان هو أداه على الوجه الأكمل، استحق الجنة .

« والمستغفرين بالاسحار »تكرر تعبير الاستغفار بالاسحار كعلامة مميزة للمتقين الورعين فى القرآن الكريم قال تعالى « وبالأسحار هم يستغفرون »ووقت السحر حين يذهب من الليل ثلثه الأول حتى مطلع الفجر ، ومنه أخذ التعبير المشهور «السحور» يطلقونه على وجبة طعام الصائم يتناولها فى هذه الفترة قبل طلوع الفجر فلا خلاف حــول زمن السحر وانما دار الخلاف حول المقصود بالاستغفار فى السحر فذهب قوم الى انه الصـلاة وصـلاة الصبح بالذات ، وعندنا اننا يجب أن نلتمس فى المعنى مزيدا من الفضل، فصلاة الفريضة قد يؤديها المنافق والعاصى والمنحرف ، ونحن بصدد موقف يثنى فيه الله سبحانه وتعالى على المتقين،فوجب أن يكون كل ما يصدر عنهم نابعا من القلب وليس من مجرد صور وأشكال ، فيجب أن نلتمس لتعبير «المستغفرين بالأسحار » صورة تبعد بنـا عن المفروضة فرضا والتى قد تشوبها الشوائب كما قدمنا ، أما بعد ذلك فلسنا ممن يلزمون الاستغفار بكيفية معينة كان يقول البعض انه صلاة التهجد، والمهم أن يتحقق الاستغفار الذى هو طلب المغفرة من الله ، وأن يتم ذلك « بالأسحار » حيث يطيب النوم للأكثرين .

« ورضوان من الله »

وقد أخرنا الحديث عن رضوان الله الوارد فى أولى الآيات حتى تكمل صورة المتقـين على أساس أن أعظم جائزة يستحقونها هى « رضوان الله » والرضوان مصدر من الرضا والحديث فى القرآن الكريم عن « مباهج الجنة » ينقسم دائما الى قسمين : قسم يتحدث عن ملذات مما اعتدناها فى الحيـاة الدنيا من مطعـومات ومشروبات وملبوسات وأزواج على أن تظل الكيفية مجهولة بطبيعة الحال فذلك كله متعلق بالغيب ، ولكن القرآن الكريم كان يتحدث دائما عن درجة أعلى واعظم من كل ذلك وهى « رضوان الله » فيقول سبحانه وتعالى فى سورة التوبة بعد أن يعدد الوانا من نعم الجنة : « ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .

ثم يجىء الحديث الشريف كما هو شأنه مبينا ومفسرا على ماجاء فى صحيـح مسـلم ورواه القرطبى اذ يسأل الله سبحانه وتعالى أهـل الجنة « تريدون شيئا أزيدكم » فيقولون : «ياربنا واى شىء أفضل من هذا » فيقول : « رضاى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .

وتختم هذه الآية الأولى بالوعـد والوعيد والناطقة بأن الايمان والتقوى وسـائر أعمـال البشر لا تخفى عنه « والله بصير بالعباد » .

ذروة التوحيد :

لكل شىء ذروة وقمة وذروة التوحيد تكمن فى هذه الفقرة من الآية «شهد الله أنه لا اله الا هو».

فقد كان الله سبحانه وتعالى ولا شىء قبله ولا شىء معه ، فلم يكن الا هو واحد احد فرد صـمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفـوا احد . وهكذا يقرر السميع العليم انه واحـد لا شريك له أو قرين ، كان منذ الأزل ولا شىء غيره ولا شىء معه ، انما هو الله ثم شـاءت ارادته ان يخلق الخلق ، فكانت الملائكة وكانوا بدورهم أول من شهد وحدانيته وتفرده ، ثم كان خلق الانسان ، وشاءت ارادته سبحانه وتعالى أن يمنح الانسان حرية التفكير والاختيار فكان

اختلاف الانسان عن الملائكة فوجد من البشر — وسيظل يوجد الى ابد الآبدين — من يشرك في عبادته، ومن يكفر بوجوده ، ومن ينحرف عن سبيله ، وليس الا من هدى الله من يقرون بوجوده ووحدانيته ثم يمتاز من هؤلاء أولو العلم حيث يدركون بعقولهم طريق الله المستقيم وانه عدل كله وبهذا الترتيب :

— الله .

— الملائكة .

— أولو العلم .

« قائما بالقسط »

يكون الاقرار بوحدانية الله ، وفى راينا أن كلمة « شهد » هنا بمعنى اقر .

والقسط معناه العدل ، والعدل هنا يعنى أن كل شيء عنده بمقدار ، فكل ما فى الكون ، كل مافى السموات والأرض محكوم بقواعد ونواميس شاءتها الحكمة الالهية ، فتقرر فى كل شأن ما يناسبه فعندما يشرع الله للانسان على سبيل المثال فهو يضع له من المبادىء والقواعد ما يصلح حاله ويعود عليه بالنفع والخير فى الدنيا والآخرة .

« لا اله الا هو العزيز الحكيم »

عود وتكرار للتأكيد وغرسها فى النفس وتعميقها واعنى بها حقيقة وحدانية الله وانفراده بالألوهية والخلق والقوة والارادة والعلم وان كل شيء ينبعث من قدرته « العزيز » الذى لا غالب له ، « الحكيم » الذى له فى كل شيء حكمة وتدبير لغاية .

عن العلماء :

وقد سبق أن رفضنا قول من قال ان العلماء الراسخين فى العلم يشاركون الله عز وجل فى معرفة تفسير المتشابه من آيات القرآن ورجحنا قول من قال ان « الراسخون فى العلم » ليست معطوفة على ما تقدمها من قول ، انما هى استئناف لقول جديد يقررون فيه ان المحكم والمتشابه كل من عند الله وهم يؤمنون به فى غير تردد فضلا عن تشكك .

أما هنا حيث الحديث عن وحدانية الله فمما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى قد جهز العقل البشرى بما يؤدى الى اليقين من وجود الله ووحدانيته ، يؤكد ذلك توصل فلاسفة اليونان وعلى راسهم ارسطو وافلاطون عن طريق العقل الى وجود الله الخالق ووحدانيته فالآية الكريمة تقرر حقيقة قد أثبتتها التجربة وهى أن العلماء فى كل زمان ومكان لا يمكن الا أن يقروا بوجود الله ووحدانيته اما الخوض فيما وراء ذلك فان العقل وبالتالى العلم اعجز عن أن يخوض فيه ، ولذلك فقد قيل بحق : « من فكر فى آلاء الله آمن ، ومن فكر فى ذات الله كفر » .

فليتدبر كل انسان آيات الله ونعمه وآلائه وليتوقف عن التفكير فيما وراء ذلك فهذا هو الغيب الذى يجب أن نؤمن به وقد تلقيناه عن الرسل الذين عرفوه عن طريق الوحى وأمروا بابلاغنا اياه .

« ان الدين عند الله الاسلام »

تتجلى عظمة الاسلام وتفوقه على جميع الأديان وما جعل منه دين الانسانية الخالد الذى سوف تثوب اليه فى نهاية الأمر ، انه وحد الطريق الى الله وجعل الايمان بالله وحدة واحدة كما جعل الكفر بالله وحدة واحدة وان تعـددت طرقه وأساليبه باختلاف العصور .

دين واحـد :

فعندما يحدثنا القرآن عن « الاسلام » فهو يعنى به هذا الدين الذى دعا اليه كافة المرسلين ، وهو الايمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخـر .

فجوهر الايمان واحد لا يتغير وان اختلفت التفاصيل كاختلاف اللغة التى يخاطب كل رسول بها قومه ، وهذا المعنى هو ما حرص القـرآن الكريم على تثبيته فى قلوب المؤمنين ، فما فتىء يكرره فى آيات القرآن الكريم فيصـف مختلف الدعوات التى دعا اليها الرسل بأنهـا كانت اسلاما ، وكان يعتبر الاسـلام أنه هو الحنيفية السمحاء التى جاء بها سيدنا ابراهيم عليه السلام واشاد بكل من يتبع ملة ابراهيم يقول تعـالى « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهـو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا» ولم يشأ القرآن الكريم أن يجعل الأمر محل غموض أو ابهام ، أو أن يتوصل له عن طريق الاجتهاد ، فقال بصريح النص : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينـا اليك وما وصينا به ابـراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه» .

فالدين واحد وهو الاسلام بمعنى الاستسلام له واطاعة كل ما امر به او نهى عنه ، كمـا ستفصل لنا الآيات التى نحن بصددها مصداق ذلك .

« وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » .

وترى آيات القرآن تؤكد هذا المعنى فأهل الكتاب سواء كانوا يهودا أو نصارى ممن كانوا فى عصر سيدنا محمد « بخاصة » كانوا يعلمون أن دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هى دعوة الحق ، بل ان يهود المدينة بالذات كانوا يبشرون بمقدم سيدنا محمد ، ويتوعدون به الكفرة والمشركين ، فلما ان بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالفعل ، كانوا هم أول الـكافرين « الا قلة هداهم الله » . فكان هذا الكفر « بغيا بينهم » أى ظلما ، متأصـلا فى طبيعتهم ، ظلم لأنفسهم ، وظلم للحق ، وقد علل ذلك القرآن الكريم فى آية أخرى ، ان هذا البغى كان بسبب الحسـد ، فهم وحدهم الناس ، انهم شعب الله المختار كما يزعمون ولا يكون الرسول الا منهم ، أما النصارى فقد كان « الهيل والهيلمان » بيـد امبراطور الرومان ، فما كانوا ليتخلوا عن نعم الدنيا ، وهكذا ظلم الكتابيون أنفسهم « سواء كانوا يهودا أو نصارى » عندما لم يتبعوا الحق بعد أن جاءهم وعرفوه بل وتحققوا منه .

«ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب»

ولكن لا يحسبن اليهود ولا النصـــارى انهم يقدرون على فعـــل ما فعلوا « من انـــكارهم لرسالة رسول الله » ثم يكونون بمنجاة من عذاب الله ، فسوف يحاسبهم الله بأسرع مما يتصورون — وهو ما تلبث الأحداث أن تصـــدقه فى الدنيا قبل الآخرة .

«فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين ءأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وان تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » .

مفـــــردات :

حاجوك : اى جادلوك .

الأميين : جمع أمى وهو من لا يعرف القراءة والكتابة .

المعنى :

يطلب الله سبحانه وتعالى من نبيه أن لا يدخل مع النصارى واليهود فى جدل لا طائل تحته يعمد فيه الكتابيون الى تزييف الحقائق والتعلق بألفاظ من هنا وهناك يجابهون الحق الصراح الذى ينطق به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ويسد القـــرآن الكريم عليهم الحجة بأن يدعو نبيه وجماعة المؤمنين من حوله الى غاية الغايات من التدين وهو الاستسلام لله باطاعة أوامـــره والانتهاء عن نواهيه ، فهذا هو المحك وفيصل التفرقة بين من هو مؤمن ومن هو ليس كذلك ، فأما نحن المسلمين ، فسوف نلتزم بهذه القاعدة والأمر الآن اليكم أيها اليهود والنصارى والمشركون . هل أنتم على استعداد ان تنفذوا كل أوامر الله أم لا . « فان أسلموا » بمعنى انقادوا الى أوامر الله « فقـــد اهتدوا وان تولوا » أى أحجمـــوا عن الانقياد الى أوامر الله ، فدع أمرهم الى الله « فانما عليك البلاغ » وهو مبدأ ما فتىء القرآن يذكر به نبيه وبالتالى كل داع الى الحق والخير ، من أن واجبه ينتهى عند تبليغ الرسالة « فذكر انما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر » .

« والله بصير بالعباد »

أى أن الله وحده هو العالم بشـــئون البشر المتكفل بهم . ان شاء هداهم ، وان شاء تركهم الى ضلالهم .

من هم الأميون ؟

والاتفاق على أن « الأميين » هم مشركو قريش وقد وصفوا بذلك لأن أغلبية العرب الســـاحقة كانت لا تعرف القراءة والكتابة ، وقد كانت معجزة رسول الله انه كان أميا لا يعرف القراءة والكتابة وقد هالت بعض المستشرقين سيئى النية ، هذه الحقيقة التى تقطع بأن القـــرآن وحى من رب

العالمين . فما كان لانسان لم يطالع كتب من سبق أن يصوغ كتابا فيه حقائق الأديان . والحقائق الكونية . ومن هنا حاولوا أن يدحضوا هذه الحقيقة بقولهم أن وصف العرب بأنهم « أميون » بمعنى أنهم من غير اليهود الذين يقسمون البشر الى قسمين القسم الأول هم اليهود وبقية البشر يطلق عليهم اسم « الأمم » فالعرب أميون نسبة لهذا المعنى أى انهم أميون وبالتالى يكون وصف سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بأنه « أمى » لا يعنى انه عدم معرفته للكتابة وانما يعنى انه من الأمم « من غير اليهود» وانزلق بعض كتابنا بحسن نية أو بسوء نية وراء هذه الفرية التى تدل فى أخف درجاتها على أن قائلها لم يقرأ القرآن والذى يقول لرسول الله بصريح اللفظ والمعنى « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذن لارتاب المبطلون » .

فعدم معرفة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للقراءة والكتابة مسألة ليست محلا للاجتهاد ، فقد قصدها لله قصدا ليتجلى الاعجاز الالهى . تماما كما صرفه الله ، عما كان يجيده العرب وهو الشعر « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » فليتنبه كتاب المسلمين الى فخاخ المستشرقين ومزالقهم ، وليأخذوا بما أخذ به اجماع المسلمين من أن « الأميين » هم الذين لا يعرفون القراءة والكتابة .

يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا
جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ
مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

« ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب اليم . اولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ».

المعنى :

وانتقل القرآن الكريم يذكر هؤلاء المجادلين وعلى راسهم اليهود بسجل عملهم « الأسود » مما مر بنا بعضه فى تفسير سورة البقرة من كافة الوان الكفر والمعاصى والعناد فى الباطل وشتى صنوف الانحرافات ، وهو يعود هنا لتذكيرهم بأخص ما ارتكبوه من آثام وهو قتلهم النبيين بغير حق وحذار أن يتصور متصور أن هناك أحوالا يكون فيها قتل النبيين بحق ، كلا وحاشا فالأنبياء معصومون من كل دنس فضلا عن ارتكاب جرائم تجعل قتلهم حقا ، وانما المقصود انهم يقتلون لمحض كونهم أنبياء يدعون الى الحق ، أى ان قتلهم لم يتستر بأى علة الا كونهم انبياء «ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس » .

بالقسط : اى بالعدل ، والعدل هنا هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فقد كان يكفى فى كل زمان ومكان أن يقوم من بين اليهود من يذكرهم بالحق لكى يعتبروه خائنا ويقتلوه .

« فبشرهم بعذاب اليم »

فبشر يا محمد هؤلاء الذين يجادلونك وهذا هو سجل اعمالهم الناطق باجرامهم وما موقفهم منك الا آية ذلك ، بشرهم بالعذاب الاليم الذى سيحل بهم ، واستعمل القرآن الكريم كلمة « التبشير » تهكما وسخرية .

« أولئك الذين حبطت اعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين » حبطت بمعنى بطلت وضاع ثوابها ان كان لبعضها ثواب فليس بعد الكفر ذنب .

وما لهم من ناصرين :أى لن يكون لهم « على عكس تصورهم » من يدفع عنهم العذاب ، ويناصرهم يوم القيامة أو يدافع عنهم » ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون. فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

« أوتوا نصيبا من الكتاب »

ليس يعرف عظمة القرآن الا من يعايشه معايشة كاملة بمعنى أن يتوقف طويلا أمام كل آية من آياته من ناحية ، ويكون ملما بالظروف والملابسات التى نزلت فيها الآية ويكون لديه حصيلة من المعارف العامة فهنا وهناك فقط يدرك كيف أن بعض العبارات التى قد لا يقف أمامها طويلا ، تنطوى فى حقيقتها على الدليل القاطع على أن هذا القرآن الكريم هو وحى من رب العالمين الذى يعرف كل شىء وهو بكل شىء عليم، والآن فلننظر كيف أن عبارة « أوتوا نصيبا من الكتاب » تنطق بكل ذلك .

فقد كان اليهود يعيشون فى المدينة ويزعمون أنهم أهل الكتاب ، وغنى عن البيان ان ذلك لم يكن موضع شك عندهم ، وبخاصة عند علمائهم وأحبارهم ، فما بين أيديهم هى التوراة بلا جدال أو شبهة ، فيجىء القرآن الكريم ليقول لهم ان ما فى أيديهم ليس سوى جزء من الكتاب ، وليس الا فى القرون الحديثة عندما استفاضت الدراسات والأبحاث ، ان علم ان ما بين يد اليهود مما يسمونه التوراة ويسميه المسيحيون بعد أن أضافوا اليه الأناجيل «الكتاب المقدس» . لايوجد به الا قسم صغير جدا « خمسة أسفار » هى الخاصة بسيدنا موسى مما يمكن اعتباره أقرب ما يكون الى التوراة أما ما زاد على ذلك فهو تاريخ اليهود صاغوه عن أحداثهم قبل النفى الى بابل وعادوا لكتابته بعد العودة من النفى ،ويهمنا من ذلك كله أن القرآن الكريم عندما كان يصف اليهود بأن ما فى أيديهم هو « نصيبا من الكتاب » انما كان يكشف عن حقيقة مجهولة لم تعرف الا فى العصور المتأخرة .

ما هو الكتاب المقصود ؟

واذ تتعجب الآية بدعوة الناس الى التعجب « ألم تر » من هؤلاء اليهود « الذين يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » أى أنهم يزورون عن تطبيق كتاب الله وينصرفون وهم رافضون هذا التطبيق وقد دار الخلاف حول الكتاب المقصود هنا أهو التوراة أم القرآن ، ونحن ناخذ برأى من قال ان الكتاب فى هذه الآية هو كتاب اليهود «التوراة» ذلك أن آيات القرآن يجب أن تفسر فى الدرجة الأولى على ضوء آيات القرآن الأخرى والتى أشارت الى أن اليهود يفسرون التوراة على هواهم فما وافق مصالحهم أجازوه وما تعارض مع هذه المصالح تجاوزوه واعرضوا عنه وفى القرآن دعوة صريحة ومباشرة الى أهل التوراة

أن يحكموا بما أنزل الله عليهم فى التوراة ، ولكن اليهود كانوا يتجاهلون ذلك ، فعندما يفسر الكتاب الذى يدعى اليه اليهود ، فيتولى فريق منهم معرضا ، بأنه التوراة ، فهذا القول تدعمه الآيات المماثلة ، ومن ناحية أخرى فان ذلك هو ما يقتضيه السياق ، ويثير العجب ويكشف اليهود فهم يدعون انهم أصحاب الكتاب الذى لا كتاب غيره فاذا دعوا لتطبيق كتابهم نكلوا وأعرضوا .

« ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات وغرهم فى دينهم ماكانوا يفترون » .

وهذا هو ما يزعمه اليهود ويؤمنون به كذبا وغرورا ، فهم أبناء الله واحباؤه وهم شعب الله المختار فأيا ما يرتكبونه من جرائم ويقعون فيه من معاص وآثام فان مصيرهم النهائى هو الجنة، وحتى لو عذبوا فى النار فلن يكون ذلك الا لايام معدودات وقد مر بنا هذا الادعاء اليهودى من قبل فى سورة البقرة وكيف أنه محض كذب وادعاء وغرور فلم يقل لهم أنبياؤهم مثل هذا القول ، وليس فى كتابهم ما يشير الى ذلك عن قرب أو بعد .

الأيام المعدودة : وقد حاول بعض المفسرين أن ينقلوا عن اليهود تصوراتهم عن عدد هذه الأيام فقالوا أن عدتها أربعون يوما وهى مدة عبادتهم للعجل ، وقال آخرون بل هى سبعة ، باعتبار عمر الدنيا حتى وقتهم هى سبعة آلاف سنة ، فيعذب اليهود يوما عن كل ألف سنة ، وعندنا أن ذلك كله لا يعدو أن يكون أقوالا مفتراة « أى مكذوبة » بدافع من الغرور والطمع « وغرهم فى دينهم ماكانوا يفترون » .

« فكيف اذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون » .

والحق الذى لا مرية فيه أن اليهود كبعض خلق الله ميتون فمبعوثون يوم القيامة « لا ريب فيه : لاشك فيه » .

محاسبون على ما قدمت أيديهم من عمل فى الدنيا « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

واليهود كأى انسان آخر لن يظلموا « ووفيت كل نفس ماكسبت » أى لا ينقص من عملها أى شىء

«قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير » .

هذه الآية ككل آيات القرآن نزلت بمناسبة واقعة معينة ولكنها « وهنا الاعجاز كل الاعجاز » تنزل عامة تقرر مبدأ عاما وسنة أزلية تعمل عملها فى كل زمان ومكان .

فالقول على أن الآية نزلت ترد على اليهود زعمهم بأن النبوة لا تكون الا فيهم ، وأنكروا على العرب أن يخرج من صفوفهم نبى يعتزون به فنزلت الآية لتقرر أن الأمر كله لله يعز من يشاء ويذل من يشاء ، يعطى السلطان والسيادة المادية أو الروحية لمن يشاء وينزعها ممن يشاء ولا قيد على مشيئته ولا حد لقدرته والأصل اللغوى لكلمة « الملك » بضم الميم وفتحها وكسرها تعنى

« الاحتواء » ، تقول ملك الشيء أى احتــواهواصبح قادرا على التصرف فيه واذ يوجد على الأرض مختلف صنوف الملكية بمعنى القــدرةعلى احتــواء شيء ما والتصرف فيه ، ويبلــغ ذلك ذروته عند بعض الأشخاص الذين يتصفون بالسلطان المادى أو الروحى فقد نزلت الآية لتقرر أن كل ما على الأرض بما فيهــا من ذوى السلطان ايا كان شأنهم هم عبيد عند الله «مالك الملك » وأن اى انسان فى اى موقع كان سواءكان موقع عز أو ذل ، فان ذلك بارادة « مالك الملك » وهو الله ، فهو الذى يرفع الى الحكم،أى السلطان بكافة اشكاله الروحية والمــادية وينزع ممن يشاء ، أما رفع أشخاص الى مرتبة العز « أنواع الرفعة والجاه عن طريق السلطان والنفوذ والمال والشهرة . . . الخ » والنزول بهم الى زوايا المهانة أو الفقر أو النسيان ، فمسألة نراها ونلمسها كل يوم وقد شاهد المســلمونالأوائل مصرع ملوك الأرض فى فارس والروم ، وايلولة الملك والسلطان والعز والرفعة للعرب،والتاريخ كله ليس الا عرضا لهذه الحقيقة الالهية وهى انتقال الملك والسلطان والسؤدد منشخصلآخر ومن جماعة لأخرى .

خاصية قرآنية :

وللقرآن الكريم خاصــية وتلك هى أن آياته مهما حفظها الانسان ووعاها وآمن بحقيقتهــا ومغزاها ، فان بعض المناسبات تحمل الانسان حملا على تصور أنه كما لو كان يسمعها للمرة الأولى أو بالأحرى كما لو كانت صيغت من أجل المناسبة التى تحضر الانسان ، فلســت أنسى مناسبة سمعت فيها هذه الآية فاعترانى الذهول ورحت أردد « سبحان الله ، سبحــان الله » وتصورت كما لو كنت أسمع الملائكة ، أو أسمع السموات والأرض ترتج بهذه . وكان ذلك على وجه التحديد صباح يوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٢ . كنت فى سجن مصر فى انتظار حكم بالاعدام يصدر على وكانت ثورة يوليو قد قامت واعلن فى يوم ٢٦ يوليو تنازل الملك عن العرش ومغادرته للبلاد وراح المقرىء يتلو عند الفجر « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء » .

« بيدك الخير »

واذا كان رفع انسان الى الملك أو نزعه منه لا يتم كل يوم ، فان الآية تتحدث بعد ذلك عن رفع أشخاص الى مرتبة العز وخفض آخرين الى مرتبة الذل ولكنا نقف قليلا أمام عبارة وقف أمامها بعض المفسرين وهى عبارة «بيدك الخير»فراح أقوام يقولون ان ذلك معناه أن الشر ليس بيد الله ، ويعلم قراؤنا اننا لا نخوض فى هــذه الأبحاث وهذا لا يمنع أن نقرر ما ينشرح لــه صدرنا من معان ، فكل ما يشاءه الله هو الخير،وكل ما يصدر من الله لايمكن أن يوصف الا بأنه خير ، وانما هو الانسان من يعتبر بعض الأمور فى مناسبة من المناسبات شرا بالنسبة اليه ، ولكن هذه الأعمال كائنة ما كانت فهى خير مادام ملك الملوك قد شاءها ، فهو عندما يرفــع ويخفض ويعز ويذل فان ذلك يصدر منه على سبيل الخير الذى يعلم من أمره على المدى الأوسع « أى فى المكان » وعلى المدى الأبعد « أى فى الزمان »فلنؤمن بالله وبكل ما يصدر منه « بيدك الخير انك على كل شيء قدير » .

تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ
بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ
فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ
تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ
مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾
قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ

« تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل »

تعاقب الليل والنهار :

لا توجد ظاهرة طبيعية فى الحياة يتنبه لهـا الانسان وتؤثر فى حياته وتصوغها صياغة أكثر من ظاهرتى الليل والنهار وتعاقبهما منذ يولـد الانسان حتى يموت والى أن يرث الله الأرض ومن عليها ولا أحسب أن هناك ظاهرة أخرى استولت على الانسان منذ كان انسانا أكثر من النهار وشمسه والليل وكواكبه ونجومه وقمره ، ولما كان القرآن الكريم قـد جاء لهـداية الانسان عن طريق لفت نظر الانسان لآيات الله ، فمن هنا كان تركيز القرآن الكريم على ظاهرتى الليل والنهار كدليل على بديع صنع الخالق واعداده كل شىء فى هذا الكون ليحيا الانسان وينشط .

ونحن نعلم اليوم أن ظاهرتى الليل والنهار ينشآن نتيجة كروية الأرض ودورانها واذا كان القرآن الكريم قد وقف عند تسجيل الظـاهرتين وأثرهما ودلالتهما فلن تجد فى القـرآن الـكريم ما يتعارض مع هذه الحقيقة ، بل ستجد على مختلف الآيات ايماءات اليها مثل قوله تعالى :

« يكور الليل على النهار ويكور النهـار على الليل » ومعلوم أن ذلك لا يكون الا على أساس كروية الأرض ، فما يلف الكرة لايمكن الا أن يكون كرويا .

استعارات وتشبيهات :

على أن القرآن الكريم ، اذا كان قد تضـمن هذه الاشارات الى الحقائق الكونية ، فقد كان أكثر حديثه عن الليل والنهار على سبيل التشبيه والاستعارة ، جريا على أسلوب اللغة العربية فى البيان والبلاغة ، وذلك مثل قوله تعالى :

« وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون » .

وقوله تعالى :

« يقلب الله الليل والنهار أن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

فعندما تحدثنا الآية التى نحن بصددها عن ايلاج النهار فى الليل ، أى ادخال النهار فى الليل فنحن لا نفهم من هذا الا بمقدار ما نفهمه من «يقلب الله الليل والنهار » أو « والليل نسلخ منه النهار » فهى كلها استعارات تفيد تعاقب الليل والنهار بهذه الصورة المطردة المعجزة الناطقة بقدرة الله فى غير حدود .

« وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى » .

وفى معرض لفت نظر الانسان الى الحقائق الكونية ليصل منها لمعرفة قدرة الخالق الواحد الأحد يسجل حقيقة كونية أخرى تتضمن سر الكون كله وأنه قام على الوحدة لأنه من خلق خالق واحد ، فبعضه من بعض ، واذا كان الظاهر يتحدث عن تضاد فالحقيقة أن كل نقيض مستمد من نقيضه ، فكما أن الليل يولد النهار ويولد النهار الليل ، فكذلك الحياة تولد الموت والموت يولد الحياة وليضق علم الانسان أو فليتسع ماشاء له الاتساع ، فسيظل فى دائرة هذه الحقيقة التى أعلنها القرآن للبشر منذ ألف وأربعمائة سنة من أن ما تتصور أنه نقيضان كالحياة والموت ، ليسا فى الحقيقة الا من نتاج بعضهما .

القديم والحديث :

ففى القديم عندما كانت معارف علم الحياة تقف عند الظاهر كانوا يقولون لك الست ترى البيضة يخرج منها الكتكوت ، والست ترى الجنين وقد يولد ميتا ، فهذا هو الحى من الميت والميت من الحى ، أما فى العصر الحديث بعد أن استطاع الانسان أن يقرر أن النبات فيه كل خصائص الحياة باستثناء الانتقال من مكان الى آخر ، فأصبحنا نرى أن هذا النبات الحى ، يتولد من تراب الأرض ومعادنها تختلط مع الماء وأشعة الشمس وكلها مواد وعناصر « ميتة » ومنها يخرج هذا النبات الحى واذا شئت أن تعتبر النبات شيئا ميتا فذلك لا يغير شيئا فمن هذا النبات « الميت فى تصورك » يتحول الى حى بعد أن يأكله الحيوان أو الانسان ، فأجسامنا وأجسام الحيوانات والطيور تنمو كلها بما تتناوله من أغذية تبدو لك جامدة وبالتالى « ميتة » والعكس بالعكس ، فكل ما هو حى لا يلبث أن يعود الى أصوله الأولى ترابا وبعض معادن الأرض وستبقى مخلفات القبور المتناهية فى القدم حتى لقد تحولت الى تراب ، ستبقى هذه الاتربة أجود أنواع السماد .

البحث فى المريخ :

واليوم أصبح العلم — ذروة العلم — هو هذه الابحاث التى تجرى على سطح المريخ لاكتشاف تربته فاذا ثبت عندهم احتواء تربة المريخ على مواد معينة بالاضافة الى تحققهم من وجود عنصر الماء ليجزموا بوجود نوع من الحياة على ظهر المريخ وهكذا فلتتسع معارف الانسان ماشاء

الله لها أن تتسع فستظل فى دائرة ما سجله القرآن « وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب » .

واحسب أن آخر الآية ظاهرة يؤمن بها كل انسان ، فاذا كانت القاعدة العامة ان « من جد وجد » « ومن زرع حصد » فقد شاءت ارادة الله أن يرزق من يشاء بغير حساب ، والرزق بغير حساب يتحقق فى صورتين ، صورة بعض العاملين الذى يتحول كل شىء فى أيديهم « الى ذهب » كما تقول العامة فتنهال عليهم الأرباح من حيث لم يحتسبوا وبقدر لم يتوقعوه ولم يطف لهم فى خيال أما الصورة الثانية فصورة من يعثر على كنز أو يفوز بجائزة يانصيب بمبالغ طائلة وهذه الصور الموجودة فى الحياة هى آية وجود الله عز وجل وانه فعال لما يريد .

« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير » .

القرآن الحى والحاضر :

ليس هناك ما يظهرنا على كون القرآن هو تنزيل من السميع العليم ، أكثر من أن نرى آياته تنطق بمشكلات العصر وتزودنا بالجواب القاطع، فاحدى المقولات التى بدات تتفشى فى عالمنا المعاصر، أنهم مع ايمانهم بالاسلام فهم يعتنقون مبادىء انسان ملحد ودولة « كافرة » وهاهى ذى الآية الكريمة تقدم لنا الجواب على مثل هذا القول، فكل من اتخذ من الكافرين وليا « أى صديقا ونصيرا » والموالاة فى اللغة تطلق على الحب والصداقة ، كما تطلق على النصرة ، ويخلص من ذلك أن القرآن الكريم نهى بصريح النص عن موالاة الكفار باتخاذهم انصارا وأصدقاء من دون المؤمنين .

« ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء »

أى أن الله سبحانه وتعالى يحكم على من والى الكفار بأن الله برىء منه «ليس من الله فى شىء» وفى آية أخرى يقول تعالى : « ومن يتولهم منكم فانه منهم » أى يصبح من الكفار أعداء الله .

« الا أن تتقوا منهم تقاة »

ويستثنى القرآن الكريم من هذا الحكم العام — كما هو شأنه دائما — حالة الضرورة ، كأن يكون المؤمن واقعا تحت سلطانهم بحيث يخشى منهم على حياته « على تفصيل فى كتب الفقه » فهنا وهنا فقط رخص القرآن الكريم للمؤمنين ان يداروا الكفار على سبيل « التقية » « وهى المحافظة على النفس فى حالة الخشية والخوف » .

والمهم فى كل الأحوال ان يكون الايمان راسخا فى القلب لا يتزعزع قال تعالى : « الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان » .

فالطريق واضح وصريح وقاطع فى عدم جوازموالاة غير المؤمنين من دون المؤمنين ، الا فى حالة الضرورة فأباح الاسلام ما أسماه « التقيـة »وأحكام الضرورة أيا كان شأنها تـزول بزوال الظروف التى قضت بها .

« ويحذركم الله نفسه والى الله المصير »

وكان طبيعيا بعد أن رخص الله للمؤمن أن يساير ويدارى غير المؤمنين فى حالة الخـوف على نفسه من التلف . فهو يذكر المؤمن بأنه عليم بما فى الصدور ، وأنه اليه المصير ، اى المرجع فى خاتمة المطاف فيحاسب كل انسان على ما قدمت يداه « ويحذركم الله نفسه » اى يحـذركم من حسابه وعقابه . على ما هو مشروع ومفصل فى الآيات التالية « قل ان تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير . يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » .

قدمنا أن القرآن الكريم يتصدى فى هذه الآيات لموقف يجد المسلمون فيه أنفسـهم فى كل زمان ومكان ، أن يكون عليهم أن يحددوا موقفهم من غير المؤمنين وقد حددت الآيات السابقة ماذا يكون عليه الموقف وهو حظر اتخاذ غير المسلمين الا فى حالة التقية والتى يمارسها الانسان ، على أن لا يغيب عن ذهنه لحظة أنه يستوى فى علم الله ما نبديه أو نخفيه فى صدورنا من أمور ،فليس يغرب عن واسع علمه أى شىء فى الأرض أو السماء ، وأن ذلك ليس بعزيز على الله فهو « على كل شىء قدير » .

ولا يتصـورن متصـور فعل هذا الشىء أو ذاك حرصا على تحقيق شهوة أو غرض من أغراض الدنيا الزائلة بحجة أنه فعل ذلك من باب التقية ، فهو اذ يقول ذلك انما يخدع نفسه ، وسيجىء يوم القيامة « فتجد كل نفس » وانظر الى هذا التعبير ، فالنفس هى أخص خصائص الانسان الباطنة ، هذه النفس وهذا شأنها من الخفـاء تواجه بكل ما عملت من سوء بحيث تود من فزعها « تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » ولكن هيهات هيهات ويجرى القرآن على بلاغته فيصل القول عن طريق تكرار النص « ويحذركم الله نفسه » .

« والله رءوف بالعباد »

حتى اذا أوشكت القلوب أن تفزع وتنخلع من هول هذا التحذير ، يبادرها الله فيذكرها بأنه الرحمن الرحيم الرءوف بعباده .

« قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين ».

آية عامة خالدة :

قيل أن سبب نزولها أن بعض المؤمنين الذين كانوا يوالون الكفار دافعوا عن أنفسهم بأنهم يحبون الله وقيل بل نزلت فى أهل الكتاب « وفد نجران أو غيرهم » وبارك الله فى أشياخنا علماء الأزهر ممن قاموا بتفسير الوسيط حيث قالوا : وأيا كان سبب النزول فهى عامة ، ونضيف الى ذلك انها الرد المباشر فى كل زمان ومكان لمن يدعى حب الله ثم يتبع غير طريق سيدنا محمد وسنته ومنهاجه فالحب لله يكون عن طريق الحب لسيدنا محمد فهو الذى عرفنا الطريق الى الله ،

ونحن نؤمن بسائر الغيبيات ، نؤمن بالبعث والنشور والحساب والجنة والنار ، نؤمن بأن القرآن كتاب الله انزله عن طريق الوحى ، لأن الصادق الأمين سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم هو الذى قال لنا ذلك ، فمن لم يحب سيدنا محمدا لا يحب الله ، ومن احب الله لايمكن الا ان يحب سيدنا محمدا ، وعلى ذلك فالقرآن الكريم يرشد الى الطريق المؤدى الى حب الله وذلك بأن نحب سيدنا محمدا ، ولما كان الحب معنى غير محدد وقد يختلف الناس فى مدلوله ومداه وهو فى كل الأحوال يتغير بتغير موضوعه فقد حددت الآية الثانية نوعية الحب لرسول الله وبالتالى لله وهى : « طاعة الله والرسول » وهكذا اصبح الأمر محددا وواضحا وفى متناول كل من يرغب فى الوصول اليه ، ولما كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لا يعيش بجسده بين أظهرنا ولما كان الله قد احتجب بذاته عن أبصارنا وعقولنا فلم يبق من سبيل للتعبير عن الحب الا من خلال ما رسمته الآية الكريمة وهى طاعة الله فى كل ما أمر به أو نهى عنه كما جاء فى القرآن الكريم وبينه سيدنا رسول الله بالقول أو بالفعل، هذا هو السبيل الذى لا سبيل غيره لتحقيق المحبة لله ، ويكون من شقشقة اللسان ،والسفسطة بل والزيغ القول بغير ذلك ، وليس

وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) * إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ
عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ
لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ
الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ
وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)

هذا من قولنا بل هو نص الآية الكريمة « فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين » .

تولوا بمعنى اعرضوا عن طاعة رسول الله فان كان هذا الاعراض عن ضعف أو تقصير وتهاون مع الاعتراف بالذنب والتقصير فلهذا أحكامه كما تفصلها كتب الفقه ، أما اذا كان الاعراض عن قصد واقتناع فهذا هو الكفر والعياذ بالله « ان الله لا يحب الكافرين » .

والخلاصة انه لا سبيل لمن يدعى الحب لله الا باتباع سيدنا محمد عن طريق الائتمار بكل ماجاء به من أوامر والانتهاء عما نهى عنه من نواه ، وأول ما يكافىء به الله عبدا اذا أحبه أن يغفر له ذنوبه ليصل به ذلك الى الجنة والله غفور رحيم ، أما من أعرض وتولى عن طاعة رسول الله فان الله لا يحب الكافرين .

الاسلام والنصرانية :

بهذه الآيات الكريمة يعرض القرآن الكريم عقيدة المسيحية التى هى فى تقدير الاسلام نفس العقيدة الاسلامية من حيث وحدانية الله سبحانه وتعالى وافراده بالعبادة ، وتنزيهه عن الشبيه والشريك والولد ، ويسرف المستشرقون ويتجنون على الحقيقة وعلى انفسهم عندما يحاولون ان يقفوا طويلا أمام قصة مقابلة رسول الله صلوات الله عليه وسلامه اثناء سفره الى الشام فى صباه مع عمه ، حيث مرت قافلة قريش على (بحيرا) الراهب ، لبضع ساعات او ايام ثم يصرخون ويملأون افواههم بالشقشقة من ان سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم تعلم المسيحية . من بحيرا الراهب النصرانى حيث تقوم العقيدة الاسلامية على تعاليم ومبادىء اساسية تضاد على خط مستقيم العقيدة المسيحية ، فحيث تقوم المسيحية او النصرانية كما كانت

تسمى على فكرة خاصة محدودة بحدود زمانها ومكانها ، يقوم الاسلام على افكار عامة مطلقة غير مرتبطة بزمان أو مكان أو جنس فهو دين عام انسانى للبشرية كافة الى ابد الآبدين .

فحيث تقوم العقيدة المسيحية على معنى محدود ومرتبط بمفاهيم قررتها الكنيسة على مدى عدة قرون ، ويتلخص جوهر هذه العقيدة فى أن آدم ابو البشر سقط فى الخطيئة وبالتالى سقطت ذريته واستحقوا بذلك غضب الله ، ثم شاءت ارادة الله أن يرحم عباده فأرسل ابنه الحبيب (الذى هو الله بذاته) ليتجسد على الأرض فى صورة انسان ويعيش بين النـاس ويتألم ويتعذب ثم يرفع على الصليب ويقتل فيكون موته كفارة للبشر ويتوب الله عليهم . وتتلخص العقيدة المسيحية فى أنه من آمن بالمسيح فى هذه الحدود ، وانه ابن الله الذى عذب ومات فداء للبشر ، من آمن بهذه الحقيقة فقد نجا ، ومن لم يؤمن بها فقد هلك ، فأعجب لهؤلاء الذين ادعوا أن سيدنا محمدا قد استقى تعاليم الاسلام من « بحيرا » الراهب المسيحى ، حيث يقوم الاسلام من أول حرف فيه حتى آخر حرف على ما يناقض كل ذلك ابتداء من وقوع سيدنا آدم فى الخطيئة ، فحقا أخطأ آدم ، ولكن الله سبحانه وتعالى عفا عنه بعد أن تاب وأناب على ما بينا فى سورة البقرة .

« فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم » .

ولا تزر وازرة وزر أخرى :

بل ان القرآن الكريم قرر مبدأ عاما وهو أن لا يتحمل الخطيئة الا من ارتكبها .

« ولا تزر وازرة وزر أخرى » :

والمسيح فى العقيدة الاسلامية هو واحد من رسل الله الذين بعث بهم الله سبحانه وتعالى الى البشر مبشرين ومنذرين وليس ما يسـمونه « العجائب » وهو بلغة القرآن « المعجزات » التى احاطت بالسيد المسيح منذ ولادته بالشيء المستبعد عن قدرة الله ، الذى يفعل ما يشاء حين يشاء كيف يشاء واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون .

وسنرى الآن كيف تصـدى القرآن الكريم للعقيدة النصرانية . وراح يصوبها ويصححها ويقوم معوجها ، وسنرى كيف صيغت المعانى لتدحض كل التصـورات الخاطئة فى العقيـدة « النصرانية » .

« ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين » .

اصطفى : اختار .

وبدأ القرآن الكريم من البداية لتصحيح المفاهيم المسيحية الخاطئة ، فآدم عليه السلام لا يصح وصفه بأنه وقع فى الخطيئة ولا خلاص له منها فهو والخطيئة شيء واحد . كلا وانما هو مختار الله ومصطفاه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه ليكون خليفة لله فى الأرض ويكون أولا للحياة البشرية ، وكما اصطفى آدم ليكون أبا للبشر فقد اصطفى سيدنا نوحا ليكون رسولا الى قومه يهديهم بهداية الحق وليكون الأب الثانى للبشرية هو ومن نجا معه من الطوفان .

« وآل ابراهيم »

وكما شاءت ارادة الله أن يختار آدم ونوحا لأداء مهمات معينة ، فقد اختار كذلك سيدنا ابراهيم أبا للأنبياء ، فمنه تفرع الفرع الذى جاء باسحاق فيعقوب فبنى اسرائيل فموسى وعيسى فقد تفرع منه كذلك سيدنا اسماعيل الذى سينتهى الى سيدنا محمد خاتم الانبياء عليه الصلاة والسلام .

« وآل عمران »

ليس آل عمران فى الحقيقة والواقع الا فرعا من آل ابراهيم ، ولكنهم خصوا بالذكر لأن الحديث سوف يدور عليهم ولقد سميت السورة كلها بـ « آل عمران » مع أنها كما سوف نرى ستشمل موضوعا خطيرا آخر هو « غزوة أحد » .

ولكن شاءت ارادة الله أن تسمى السورة « آل عمران » لتدل على موضوع العقيدة النصرانية الذى سوف تتصدى له بالتصحيح والتقويم .

« على العالمين »

وهو تعبير عام شامل كامل لكل البشر فى كل زمان ومكان لأنه يمثل حقيقة تمت وانتهت ، وهو اختيار الله سبحانه لمن اختارهم ليحملوا رسالته الى البشر وهم الأنبياء والرسل والصالحون من آل ابراهيم وآل عمران .

« ذرية بعضها من بعض »

الذرية : النسل .

بعضها من بعض . أى فى الايمان والاخلاص والعمل الصالح .

وهذه اشارة صريحة وقاطعة لقانون الوراثة وأنه يحدد مسار الانسان ، وهذه مسألة مشاهدة وملحوظة وما من أم أو والد الا ويرون مصداق ذلك فى أطفالهم منذ لحظة الولادة فلون الجلد ولون العيون ولون الشعر والهيكل العام للطفل يكون فى الأغلب والأعم صورة مكررة من النسخة الأصلية ، أما أو أبا أو جدا وجدة ، ولا يلبث الطفل كلما كبر ونما أن يكشف عما انتقل اليه عن طريق الوراثة ، فالامراض والعاهات الخلقية تنتقل أحيانا عن طريق الوراثة ، وقد حاول بعض الماديين أن ينكروا علم الوراثة وان يدعوا أن العمدة فى هذا يتوقف على التربية والتعليم ، وهى سفسطة وشقشقة يكذبها الواقع ، ويكذبها العلم المادى ذاته ، فالانسان يعمل على استنبات السلالات الجيدة من صنوف النباتات والحيوانات ، وعلم الزراعة الحديث يقوم كله على هذا المبدأ ، مبدأ انتقاء البذور واختيار الصالح منها فعندما يحدثنا القرآن. أن الصالحين ينجبون الصالحين ، فهذا علم يقينى يقطع بذلك ، وغنى عن البيان أن من سنن الله أيضا أن لكل قاعدة استثناء ، بمعنى أنه قد ينجب الصالح غير الصالح .كما هو الشأن فى ابن سيدنا نوح ، حيث وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه « عمل غير صالح » فلكل قاعدة شاء الله أن يكون لها استثناء وقد قيل بحق « الاستثناء يؤكد القاعدة » .

والقاعدة ان قانون الوراثة من حيث الصلاح والفساد ، ينتج آثاره .

« ذرية بعضها من بعض » :

والله سميع عليم : ويؤكد الله قدرته وهيمنته فهو سامع لكل ما يصدر من أقوال ، عليم بكل ما يقع من أعمال .

« اذ قالت امرأة عمران رب انى نذرت لك مافى بطنى محررا فتقبل منى انك أنت السميع العليم » .

محررا : أى خالصا .

وبدأ القرآن الكريم يقص علينا قصة سيدنا عيسى ، ويبدأها من بداية البداية ، وحيث تشرع كتب ما يسمى بـ « العهد الجديد » فى الحديث عن مريم بعد أن أصبحت كبيرة ليفاجئنا بعضها (متى ولوقا) بالحديث عن ملاك الرب الذى خاطب مريم بلا مقدمات ، فان القرآن الكريم يعود بنا الى ما قبل ميلاد مريم نفسها ، ليشعرنا بخطورة ما نحن مقدمون عليه ، وان مريم لم تكن مجرد فتاة عذراء كأى فتاة أخرى . بل ان الله سبحانه وتعالى وهو الذى يعلم أى شأن سيكون شأنها ، جعلها منذ البداية وحتى قبل أن تولد ، وقبل ان تعرف هويتها مخصصة لخدمة الرب .

« اذ قالت امرأة عمران »

والمتحدث هنا هى امرأة عمران ، أى أن عمران هو والد مريم وامرأته هى أم مريم ، والمسيحيون لا يعرفون شيئا عن عمران ، وبالتالى لا يعرفون شيئا عن هذه الواقعة لا عن قرب أو بعد وهذا هو الدليل أولا على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ينقل معارفه عن البشر (كما يزعم البعض) ولم يكن فيما يقوله يتحسس وقعه أو اثره عند ذوى الشأن ، وانما كان الوحى يهبط عليه بما يقول ، فيقوله للناس ، ولا يعنيه سرهم أو ساءهم ، طابق ما عندهم أو خالفه ، ان مهمته أن يبلغ ما أوحى اليه به ، وقد أوحى اليه فى هذا الموضع انه وقد سبق له فى علمه للشأن الذى سيجعله لمريم ، فقد أحاطها بالقدسية والطهارة ، حتى قبل أن تولد .

« رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا »

هذه هى القداسة التى تحف بمريم قبل ان تولد بأن نذرتها أمها لله بمعنى أن تكون خادمة له ووقفا على عبادته . وهنا يقول لنا البعض ممن حاولوا أن يفسروا القرآن على ضوء ما يقول به الكتابيون سواء كانوا يهودا أو نصارى ، ان خدمة الهيكل كانت وقفا على الغلمان الصبيان ، واحسب أن هذا ماكان ليغيب عن امرأة عمران ، فلو ان ذلك كان هو القاعدة المتبعة ، لذكرتها فى نذرها فتقول مثلا « ان كان ولدا فسوف أهبه لخدمتك » ولكنها اطلقت القول « ما فى بطنى » ومافى بطنها قد يكون ذكرا وقد يكون انثى ، ويدل السياق والوقائع بعد ذلك ، ان كون المولود كان انثى ، لم يثر أى صعوبة أو اشكال من أى نوع كان ، وحققت امرأة عمران نذرها فعاشت مريم منقطعة للعبادة مما سيرد علينا .

واقصى ما يمكن ان يفهم من خيبة امل امراة عمران ، عندما رات مولودها أنثى أنه لن يعمل عمل الرجال كأن يكون كاهنا مثلا ، ولكن لابد ان يكون للاناث سبيل للانقطاع لخدمة الله وعبادته ولكن بأسلوب يختلف عن أسلوب الرجال كما سيتضح فى الآيات القادمة ان شاء الله .

فتقبل منى انك أنت السميع العليم :

وهكذا تنطق الالفاظ وتشع اشعاعا بالضراعة التى تضرعت بها امراة عمران ، وصدق ما أنتوت ان تفعله فى قولها « فتقبل منى » أى كن راضيا عن هذا النذر الذى نذرته واعنى على تحقيقه ايذانا بقبولك له ، انك أنت السميع ، تسمع ضراعتى ، العليم بنيتى .

« فلما وضعتها قالت رب انى وضعتها انثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى » .

وعندما تمت عملية الوضع تبينت أمرة عمران أن المولود أنثى وليس ذكرا ، فتتوجه الى الله سبحانه وتعالى بأن ما نذرته لله قد جاء أنثى ، وهى تعرف أن لكل منهما دور فى خدمة الله ، ولكنها اذ تقرر أن ما وضعته « أنثى » فهى تعرف وتؤمن من غير شك ، أن تلك مشيئة الله ، وأنها اذا كانت تطمع فى أن يكون المولود ذكرا ليقوم بخدمة الله فى الأعمال التى يقوم بها الذكور ، ولكن شاءت ارادة الله أن تكون أنثى ، فلن تضطلع الا بالأعمال التى يقوم بها النساء ، ومضت امراة عمران فى الوفاء بنذرها من تخصيصها مولودها لخدمة الرب فأطلقت على ابنتها اسم « مريم » .

وقال بعض المفسرين ان اسم مريم معرب كلمة « مارية » التى تعنى « جارية » وقال بعض آخر بل هى تعنى فى لغة امراة عمران « العابدة » وهذه اللغة اما أن تكون العبرية ، او السريانية ، فعلى من يعرف هاتين اللغتين أن يتحقق من ذلك ، أما نحن فحسبنا ما قال القرآن من أن أم مريم قدسمتها بهذا الاسم .

« والله أعلم بما وضعت »

بقى أن الآية الكريمة قد استدركت بمجرد ان ناجت امراة عمران ربها ، ان وليدها جاء انثى ، فاستدركت الآية بقولها «والله اعلم بما وضعت» وعندنا أن هذا الاستدراك قد أريد به اظهار خطورة هذا المولود والذى سيكون له من عظم الشأن ما سوف يؤثر على البشرية الى ابد الآبدين .

« وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم »

من المحقق أن هذا الكلام هو جزء من مناجاة أم مريم لربها ساعة أن وضعت مريم ، فهى وقد وهبتها خالصة لعبادة الله فمن الطبيعى جدا أن تتوجه الى ربها بالدعاء أن يجنبها هى ونسلها من بعدها من وسوسة الشيطان وهمزاته .

اعيذها بك : بمعنى اجيرها بك ، ووصف الشيطان بأنه رجيم أى المطرود من رحمة الله ، ولما كان هذا القول هو حكاية لما دعت به « أم مريم » ربها فنحن نقف عند هذا الحد .

« فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا »

هذه حكاية القرآن التى جعلتنا نستبعد كل ما قيل من ان الخدمة فى الهيكل أو المعبد ولنقف عند حد القرآن « المحراب » كانت وقفـا على الذكور ، فغنى عن البيان ان الله سبحـانه وتعالى لم يرسل نبيا ليقول للقوم أن يغيروا شريعتهم ونظمهم فيقبلوا هذه الأنثى بالذات رغم مخالفة ذلك لما درجوا عليه ، وانما سـارت الأمور سيرها المعتاد ، وكان قد سبق فى علم الله اى شأن سيكون لمريم هذه فهو الذى اختارها وراح يعدها بواسع فضله وكرمه للدور الذى ستقوم به فحفها ببركاته ونعمائه « وأنبتها نباتا حسنا » أى رباها على طاعته وعبادته بأن جعلها بداءة ذى بدء فى رعاية زكريا .

« وكفلها زكريا »

وكان أول مظهر لرعاية الله سبحانه وتعالى لمريم وانه تقبلها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا أن جعل زكريا يكفلها فيعلمها ويرعاها ويربيها ماديا (بالطعام والشراب) وروحيـا بالتـدين والتقوى ، فمن هو زكريا ؟

زكريا عليه السلام :

ورد اسم سيدنا زكريا ثمان مرات فى القرآن الكريم باعتباره نبيا فى سورة « آل عمران والأنعام ومريم والأنبياء » وزكريا الوارد فى القرآن كمـا سنرى هو والد يحيى ، والمسيحيون واليهود من قبلهم لا يعرفونه ، وهذا لا يعنينا فى قليل او كثير فالقرآن وحى من رب العالمين وكون الكتابيين يجهلونه فان شاءوا تعلموا مالم يكونوا يعلمون وان شاءوا ان يبقوا على جهلهم فهذا شأنهم ، ولنا أن الله يعلمنا أن مظهر نعمته على مريم وأنه أنبتها نباتا حسنا أن عهد بتربيتها الى احد أنبيائه وهو زكريـا .

وفى حديث الاسراء والمعراج وصف سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام « يحيى وعيسى » بأنهما ابنا الخالة ومعنى ذلك أن امراة عمـران كانت أخت مريم ، وأن زكريا هو زوج أختهـا فاختاره الله برعايتها كما سوف نرى لتحقيق مشـيئته .

«كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

وبدأ القرآن الكريم يحـدثنا عن اكرام الله سبحانه وتعالى لمريم منذ هذا الوقت المبـكر واحاطته اياها بـ « الكرامات » من الأمور الخارقة ، فكان سيدنا زكريا كلما دخل عليها « المحراب » وقيل ان المحراب لغة يعنى اكرم موضع فى البيت : (الغرفة العالية) أى انه يصعد اليها بالسلالم واصبح يطلق اصطلاحـا على المسجد ، أو صدر المسجد ونحن نعرفه اليوم على انه « القبلة » التى نصلى اليها .

وأيا كان معنى المحراب فى الآية فهو ينطق بأنه كان مخصصا لمريم تعتكف وتتعبد فيه ويبدو

ان سيدنا زكريا كان هو الوحيد الذى يعولهـاويتردد عليها بدليل اندهاشه لمراى « الرزق » عندها ، ولو كان الكثيرون يترددون عليها ، لمـاكان هناك محل لدهشته فضلا عن تساؤله «انى لك هذا » ويدل ذكر القرآن للسؤال والردعليه« هو من عند الله » على أن الأمر لم يكن يسير طبيعيا ، وأن وصول الرزق للسيدة مريم كان يتم بطريقة خارقة .

وقد تحدث صاحب المنار على غرار أستاذه« الشيخ محمد عبده » من قبله ، فاستبعد ما قال به بعض قدامى المفسرين من ان زكريا كان يجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء الى آخر ما قيل من هذه التفاصيل ،وحجتهما فى ذلك أن هذه تفاصيل لم ترد فى القرآن من ناحية ، ولم يقل بها سيدنا محمد من ناحية أخرى ، ونحن نقرهما على أن هـذه التفاصيل من باب التزيد ومما لم ينزل الله به سلطانا ،ولكن الذى اخالفهما فيه وبكل قوة ، ان الرزق كان يأتيها بطريقة طبيعيـة ، ونص عبـارته :« وانت ترى أن لا دليل فى الآية على ان الرزق كان من خوارق العادات » . ولا حيلة لنا اذاكان الشيخان الجليلان لم يريا فى الآية ما يدل على أن الرزق كان يأتى بطريقة خارقة ، حيث نرى نحن فى الألفاظ والسياق ما يقطـع بذلك فالتعبير بكلما « كلما » ثم السؤال والجواب لا يعنيان الا أن الأمر كان خارقا ، فاذا أضـفنا الى ذلك أن القصة كلها تروى لا ظهار ما أضفى الله على مريم من كرامة ولابد أن تكون الكرامة قد ظهرت بصورة خارقة بحيث حفزت زكريا عليه السلام على أن يدعو الله بأن يحقق له أمرا خارقا وهو أن يرزقه الولد ، على الرغم من بلوغه سن الشيخوخة هو وزوجته ، وقد ربط الله تعالى بين هذا الدعاء بطلب أمر خارق ، بما عاينه زكريا من أحوال مريم حيث يقول القرآن الكريم « هنالك دعا زكريا ربه ... » الآية .

وذلك لا يفهم الا على ضوء القول « والشىء بالشىء يذكر » فأما وقد رأى زكريا آية ربانية ، فقد حفزه ذلك الى أن يغترف من هذه النعمـة فيدعو طالبا أمرا خارقا وسنرى أن كون ماطلبه كان خارقا ، كان باعترافه هو .

وعندنا انه لما كان لا سند للمسـيحيين فى اعتبار المسيح هو الله الا أن الخوارق كانت تجرى على يديه ، فقد شرع القرآن الكريم يصور كيف أن الله سبحانه وتعالى لا يضن بالخوارق على أى عبد اصطفاه من عبيده . وبدأ السرد بما اجراه لمريم قبل المسيح نفسه ، ونحن نتصور أن القصة كلها قد سيقت لتحقيق هذا الغرض .

« ان الله يرزق من يشاء بغير حساب »

ويختلف المفسرون أهذا القول بقية كلام مريم وهى ترد على السؤال ؟ أم أن القول من انشاء رب العالمين ؟ وعندنا أن المعنى واحد فى كلتـا الحالتين ، فهو تقرير واقـع ومؤكد ومشـاهد ومحسوس وهو أن الله يرزق من يشـاء بغير حساب وفقا للسنن المألوفة وغير المألوفة مما يدخل فى دائرة الكرامات والخوارق والقول بغير ذلك معناه أنه لا يرزق الا بحساب وحسب المألوف، وتعالى الله عن ذلك .

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ
قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾
قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل
لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾
وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ
وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ

« هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين . قال رب انى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامراتى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء . قال رب اجعل لى آية قال آيتك الا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والابكار .

هنالك : يشار بها للزمان والمكان وهى هنا تربط بين رؤية زكريا ما راى وبين توجيهه للدعاء لله ويستوى فى ذلك أن تكون الاشارة الى زمان الرؤيا أو مكانها فالنتيجة واحدة .

بكلمة من الله : تكررت الاشارة فى القرآن الكريم الى سيدنا عيسى بأنه « كلمة من الله » والمستفاد من القرآن أن هذه الكلمة هى أمره سبحانه وتعالى لعيسى « كن » فكان بغير أب .

وحصورا : اختلف المفسرون فى معناها فالبعض قال انه الذى لا يباشر النساء ، والبعض قال بل هو الذى يحبس نفسه عن الشهوات .

بلغنى الكبر : اى ادركته الشيخوخة .

وامراتى عاقر : اى عقيم لا تلد .

الا رمزا : اى بالاشارة دون الصوت .

ماجاء فى سورة مريم :

وقبل أن نفصل قصة زكريا ويحيى ، نرى أن نثبت نص الآيات التى وردت فى سورة مريم لتمهد لقصة سيدنا عيسى كما هو الحال هنا .

« ذكر رحمة ربك عبده زكريا . اذ نادى ربه نداء خفيا . قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الراس شيبا ولم اكن بدعائك رب شقيا . وانى خفت الموالى من ورائى وكانت

امراتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا . يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا . يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا . قال رب انى يكون لى غلام وكانت امراتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا . قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا . قال رب اجعل لى آية قال آيتك الا تكلم الناس ثلاث ليال سويا . فخرج على قومه من المحــراب فأوحى اليهم أن ســبحوا بكرة وعشيا . يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا . وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا . وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا . وسلام عليــه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » .

وتفيد هذه القصة أن زكريا كان مشغولا بل ومهموما انه لم يكن له ولد ليرثه ويبدو انه كان قد يئس بعد أن تبين له أن امراته عاقر وأنه قد أصبح شيخا عجوزا ولكن الآيات التى رآها تحف بمريم جددت فى نفسه الآمال فاتجه من جديد الى الله يدعوه ، ولما كان قد سبق فى علم الله ان عيسى عليه السلام سيجىء على غير المألوف، فقد شاءت ارادته ان يمهد له عن طريق غير المألوف كذلك ، فيجىء بيحيى من ابوين لا عهد للبشرية من أن ينجب مثلهما وليس ادل على ذلك من ان زكريا نفسه رغم اشتهائه للانجاب وتضرعه الى الله أن يرزقه بالخلف لم تكد الملائكة تبشره بأن الله استجاب لندائه وانه سوف يرزقه بالخلف الصالح حتى راح يتساءل كيف يتحقق ذلك مع كونه قد اصبح شيخا عجوزا وامرأته عاقر ،ويتساءل بعض المفسرين ، كيف يعترض زكريا وهو النبى الذى يعــرف قدرة الله بمثل هذا الاعتراض ؟ ثم يحاولون أن يردوا على تساؤلهم، والأمر عندنا أن كل ما فى القرآن قد سيق للتربية والتعليم والوعظ والارشاد ، وهو هنا يريد أن يلفت النظر الى أن يحيى سيجىء على خــلاف المألوف ، فيجرى الاعتراض على لسان زكريا، بل ويجعله ملهوفا على تحقق هذا الأمر الخارق الذى وعد به بغير حاجة لانقضاء فترة الحمل ثم الوضــع فيطلب من الله آية فورية فيمنحــه اياها وهى أن يحبس عن كلام الناس ثلاث ليال، فيكون فى هذه « الحبسة عن الكلام » فى هذه المدة المحددة الدليل على أن الله الذى يفعــل ما يشاء سوف يحقق له ما وعده به .

ومرة أخرى لا يتساءلن متسائل : وكيف يطلب زكريا دليلا على قدرة الله ؟ ومرة أخرى نقــول ان الله سبحانه وتعالى قد اختار هذا الســياق لتحقيق الغاية المبتغاة وهو تعميق لفت النظــر لقدرة الله على كل شىء ، وأن مجىء عيسى على غير المــألوف ليس حادثا فريدا لا تفســير له وسيرد علينا الاستشهاد بآدم فاذا كان عيسى قد جاء من غير أب فان آدم قد جاء من غير أب ولا أم.

ونقف عند يحيى فقد جاء على خلاف المألوف ووعد به أبوه من قبل ان ينشأ انشاء بل وحــدد الله سلفا شخصيته وصــفاته ورسالته وانه سيجعله مقدمة لمجىء عيسى ، وسيكون أول من يصــدق به .

التسبيح بالعشى والابكار :

واذ يبشر الله سبحانه وتعالى زكريا بهذه النعمة فهو يطالبه بما يحب ان يعلمنا اياه وهو ان يكون شكر النعمة بالتســبيح والاســتغفار بالعشى والابكار ويحاول البعض أن يحدد فترات محــددة كان يقــول « العشى » من الزوال الى المغرب وعندنا أن المقصود هو أن لا يفتر الانسان عن ذكر الله ليلا أو نهارا .

فضل الاسلام على المسيحية :

قد يدهش الكثيرون عندما نقرر لهم أن الاسلام يدين النصرانية دينا عظيما ، لا أول له ولا آخر واذا كان قد جاء حين من الدهر ازدهر فيه العالم المسيحى ووصل الى ما وصل اليه ، بل اذا كان للمسيحية أن تبقى على صورة من الصور فى عالم الالحاد الأوروبى والأمريكى ، فذلك بفضل الاسلام او على وجه الدقة والتحديد للقرآن الكريم ، ذلك ان ميلاد المسيح غير الطبيعى جعل بيئته اليهودية تنكره انكارا شديدا ، ولا تتردد فى اتهام والدته « مريم » انها حملت به عن غير الطريق الشرعى ، وقد كان هذا القول ، أو هذا الاتهام ، حريا فى زمن يضيع فيه الايمان أن ينتصر فى نهاية الأمر وخاصة عندما دخلت أوروبا فى عصر « التنوير » بل ان الباحثين كانوا سيجدون فيما بين أيديهم من كتب العهد الجديد ما يعزز وجهة نظـــرهم ، ففى انجيل متى (أهم الأناجيل) ينسب المسيح الى يوسف النجار ، بقوله : « يسوع بن يوسف النجار بن يعقوب .. الخ » .

وفى انجيل لوقا : « يسوع بن يوسف النجار بن هالى .. الخ » .

حقا أن هذين الكتابين يتحدثان عن ميلاد المسيح من غير أب وان ملاك الرب قد أخبر يوسف النجار بذلك وأن خطيبته مريم لا غبار عليها فلا يتخلى عنها بل يمضى فى مشروع زواجه بها وبالفعـــل تزوجها وانجب منها بنين وبنات .

هذه القصة بهذا الأسلوب وبهذا السياق كان من شأنها ان عاجلا أو آجلا ستلقى من يضـــم الاثنين الى الاثنين فيصبحون أربعة ويقـــرر أن المسيح قد ولد ولادة عادية وان القول فيه هو ما يقوله اليهود فاذا كان هذا لم يحدث ، واذ كان المسيح قد احتفظ وسوف يحتفظ بقداسته ، فالفضل فى ذلك يرجع الى الاسلام « القـــرآن » أولا وأخيرا فهو الذى شهد ببراءة مريم وان حملها كان حقا وصدقا بارادة الهية ، فجـــاء عن غير الطريق الطبيعى أى من غير أب ، فلولا هـــذه الشهادة القرآنية التى نؤمن بها نحن المســـلمين ايماننا بكل ما جاء به القرآن لانتهت قصة المسيح وتخلى عنها البشر ، كما تخلوا عن معتقـــدات كثيرة سابقة وعندما أقول « المســـلمين » فأنا لا أعنى مسلمى اليوم ، وانمـــا أعنى هـــؤلاء المســـلمين الأوائل الذين أذهلوا الدنيـــا آنذاك وهزوها هزا ، ففى سنوات معـــدودات كانوا يقوضون أضخم امبراطوريتين عرفهما التاريخ ، امبراطورية الفـــرس وامبراطورية الرومان ، هؤلاء الأقوام الذين آلت اليهم سيادة الدنيا تحت ظل كتاب لهم اسمه « القرآن » هذا القـــرآن يشهد للمسيح ويعلن طهارة أمه من كل ســـوء ودنس ، وأن ميلاد المسيح كان حقا وصـــدقا ميلادا معجزا خارقا لمألوف السنن . وهكذا ثبتت قصة المسيح وستبقى الى أبد الآبدين ، لا لأن كتب العهد الجديد تقول ذلك ، ولكن لأن القرآن يقـــوله :

فعلى المسيحى الذى ينكر رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والذى ينكر ان القـــرآن وحى من رب العالمين ، أن يعلم أنه بذلك يهدم السند الوحيد الذى يؤكد الميلاد الاعجازى للمسيح ويجعله حقا من حق .

وعليه أن يكون على ثقة انه يظلم نفسه ويظلم الحقيقة أن يأخذ بقول القرآن فيما يعجبه ، وان لا يأخذ به فيما لا يعجبه ، فهو كل لا يتجزأ وهو اما وحى أو لا وحى ، خاصة وان المعتقـــدات

المسيحية كما هى مطبقة ليست من هذه الكتب المنسوبة الى تلامذة المسيح والتى يسمونها « أناجيل » وانما هى معتقدات صيغت بمعرفة مجمعى فينقية والقسطنطينية اللذين انعقدا بعد قرون من كتابة الأناجيل .

من واقع تجربتى :

وقد اعتدت ان أسوق تجربتى الشخصية كشاهد حى من الواقع اليومى ، فأنا على الرغم من اننى مسلم ، مسلم حتى النخاع والقرآن الكريم امامى ونبراسى فى كل ما اقول او افعل وليس هذا خافيا على أحد ، ومع ذلك فما اكثر ما صاحبت المسيحيين وصاحبونى ومنهم القسس والرهبان ، ومع ذلك فلم يحدث أبدا أن ضاق أحدهم ذرعا بما أقول ذلك أن ما أقول بهدى من القرآن لا يصدم أبدا مشاعر مسيحى مستنير ،فالقرآن وما يصح من الأناجيل يخرج من مشكاة واحدة وليس الا تعقيدات المجامع المتأخرة هى التى خلقت المعتقدات المسيحية التى دار عليها الخلاف وسيظل يدور .

ومن حسن الحظ أن مسيحيى الشرق العربى ومصر بخاصة قد أدركوا هذه الحقيقة كثمرة لتعايشهم مع المسلمين وسماعهم القرآن واذا كان مسيحيو الغرب قد عادوا الاسلام قديما ، فقد بدأوا يدركون اليوم حقيقته مما أشرنا له فيما سبق .

وبعد هذا التمهيد نقول وبالله التوفيق ، قال تعالى : « واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » .

اصطفى : بمعنى اختار وقد سبق أن استعمل القرآن الكريم هذا الفعل وهو يحدثنا عن اصطفاء آدم ونوح وآل عمران ، أى ان اختيار مريم لتكريمها واختصاصها بهذه الآية الكبرى هو من قبيل اصطفاء الله للرسل وتزويدهم بالآيات والمعجزات ، اى أن مريم وميلاد ابنها عن غير الطريق المألوف ليس فريدا ولا سابقة له بل لقد سبقه اصطفاء الله سبحانه وتعالى لنفر من الرسل .

وطهرك : الطهارة معروفة والمقصود باستعمالها هنا هو الرد على فرية اليهود حيث حاولوا أن يدنسوا مريم فطهرها الله وقد حاول بعض قدامى المفسرين ، أن يفرقوا فى المقصود من الاصطفاء ، حيث تكرر اللفظ مرتين ، ونحن لا نرى فى التكرار للفظ » اصطفاك « الا أحد أساليب القرآن البيانية والبلاغية لتأكيد المعنى الذى يريد تثبيته وتعميقه .

ولا ندخل فيما دخل فيه بعض المفسرين من التساؤل عن عدد الملائكة وهل هم واحد عبر عنه القرآن الكريم باسم الجنس ، أم أنهم كانوا بالفعل جماعة ، كما لا ندخل فى محاولة التصور « كيف كان القول » أكان الهاما ، أو بلفظ وجرس ونقف عند نص القرآن : « واذ قالت الملائكة .. » الآية .

يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين .

اقنتى لربك : أى واصلى وداومى على عبادة ربك فى خشوع وتواضع وسكينة . وقد وضعنا هذه المعانى بين قوسين لأن هذا هو ما يشعه لفظ « اقنتى » هنا فى نفسى .

واسجدى واركعى ، والسجود والركوع معروفان ، ولكن ما يجب ان نقف أمامه هو عبارة

أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن

« مع الراكعين » اى ان اختيار الله لك واسباغه عليك كرمه ونعمته وفضله ، لا يعنى ان تتصورى نفسك وقد صرت شيئا يعلو على جماعة المؤمنين ، فلم يخترك الله الا لتكونى واحدة منهم تسجدين كما يسجدون وتركعين كما يركعون اما موضوع « اصطفائك » فمسألة بينك وبين الله لا تفرقك عن البشر فضلا عن أن تجعلك تترفعين عن مصاحبتهم كواحدة منهم فعندما تنفردين بنفسك داومى على عبادة ربك « اقنتى لربك » وعندما يسجد الآخرون ويركعون فـ « اسجدى لربك واركعى مع الراكعين » .

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون » .

تسجل هذه الآية الكريمة أن ما ذكره القرآن الكريم عن مريم هو من أنباء الغيب ، والغيب هنا بمعنى أنه حديث عن وقائع أخص من الخصوصية وقعت منذ عدة قرون ، واذا كان المسيح عندما كبر وجد من سمع منه ونقل عنه رسالته ، فان **هذه الأحداث والوقائع الخاصة بطفولة مريم لم** يعرفها أحد وبالتالى لم يروها أحد فلم يرد حديث هذا النزاع حول من يكفل مريم وكيف اتفق المتنازعون أن يجروا القرعة ليختاروا واحدا منهم، فكانت من نصيب زكريا زوج خالتها ، نقول لم يرد هذا الحديث عن قرب أو بعد فى كتب المسيحيين ولم يقل به احد منهم ، **فمن أين جاء سيدنا محمد** عليه الصلاة والسلام بهذه التفصيلات الدقيقة .

ان القرآن الكريم يقرر أن وسيلة سيدنا محمد لمعرفة ذلك هو الوحى ، ويكون على من ينكر الوحى ، او ينكر انه نقل هذه المعلومات الى سيدنامحمد أن يتهمه بالكذب وهو ما قاله كفار قريش فى بادىء الأمر من بين ما قالوا غير انه اذا جاز أن يتصور العقل جواز ذلك الادعاء بالكذب فى مطلع الدعوة ، فلم يعد ذلك متصورا عقلا بعد انقضاء أربعة عشر قرنا صدقت فيه الوقائع والأحداث ، بل التاريخ كله شرقا وغربا كل حرف من حروف القرآن .

حوار بينى وبين شاب تقدمى :

وقد دار بينى وبين شاب تقدمى حوار فسألته أيمكن أن تقبل أن توصف بأنك كذاب ، ففزع من هذا التصور وقال أعوذ بالله ، فقلت له ها هو انت وانت شاب صغير تأنف من أن تكون كاذبا ، فكيف تتصور أن يبنى انسان عظيم عظمته على الكذب وان يوصله هذا الكذب الى سيادة العالم الروحية ، قال لى صاحبى وهو يحاورنى : انا لم انظر الى الموضوع من هذه الزاوية الخلقية فقلت له : وانا اقول لك ، اننا معاشر المؤمنين لا ننظر له الا من هذه الزاوية الخلقية ، فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذى قال عنه القرآن « وانك لعلى خلق عظيم » والذى اشتهر بين قومه بأنه « الأمين » ويقول له أعدى أعدائه : « ماجربنا عليك كذبا قط » فهل هذا هو الانسان الذى تريد أن تصفه بالكذب ، وتسمى هذا علما وتقوله حيث صدقته السموات والأرض والانس والجن ، الا خسىء هذا الجهل الذى يجعل النور ظلاما . أما نحن فقد آمنا وصدقنا ولا قول لنا فى يقظة أو منام الا صدق الله العظيم ، وصدق رسول الله .

آيات مماثلة :

وقد تعددت الآيات التى تقرر هذه الحقيقة :

ـ ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون (سورة يوسف) .

ـ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا (سورة هود) .

ـ وما كنت بجانب الغربى اذ قضينا الى موسى الأمر (سورة القصص) .

كلمة « اقلام » :

وقد قيل كلام كثير حول كلمة « اقلام » من ذلك مثلا قولهم : انها الأقلام التى يكتبون بها التوراة ، كما قيل كلام أكثر فى كيفية اجراء القرعة ، أما نحن فنقف عند حد ما ذكرناه من أنهم اقترعوا حول « ايهم يكفل مريم » وان القرعة قد استقرت عند زكريا ، وان ذلك كله من انباء الغيب أوحاه الله لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

ـ اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين . قالت رب انى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون .

يبشرك : من البشارة وهى الخبر السار .

بكلمة منه : وهى ما فسرتهـا الآية التالية« اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » أى أن المسيح كسائر ما خلق الله شـاءه فقال له كن فكان .

اسمه المسيح عيسى ابن مريم : هذه الاشارة الى اسم سيدنا عيسى تحقق غرضين فهى تنفى أن يكون لسـيدنا عيسى أب من البشر فكانت نسبته الى أمه ، كما انها تنفى عنه الالوهية فما كان لاله « كامل » أن يولد من انسانة ناقصة« لمحض كونها انسانة » وما كان الله (سبحانه) ليولد فهو جل شأنه « لم يلد ولم يولد » .

وجيها فى الدنيـا والآخرة : أى صاحب جاه وشرف وهذا قاطع فى أن الجاه والشرف لا يكونان بالمال أو المناصب مهمـا علت وكبرت ، وانمـا الوجاهة أعظم الوجاهة هى فى الدعوة الى سبيل الله والوجاهة مأخوذة من (الوجه) أشرف أجزاء الجسد وطليعته .

ويكلم الناس فى المهد وكهلا : لا يمكن أن يفهم الجمع فى الكلام بين المهد والكهولة الا أنه « كلام النبوة » والا فلو كان أى كلام لما أشير الى الكلام فى الكهولة لأنه ما من انسان حى الا ويكلم الناس فى كهولته (ما لم يكن أخرس بطبيعـة الحـال) فوصـف المسيح بأنه يكلم الناس فى المهـد وفى كهولته ، أى بكلام النبوة وسوف نثبت نص ما قاله المسيح فى طفولته من سورة مريم .

ما ورد فى سورة مريم :

والقرآن كما هو معروف يفسر بعضه بعضا ويكمل بعضه بعضا ، واليك ما جاء فى سـورة مريم تفصيلا لهذا الاجمال .

« واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا . قال انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا . قالت انى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا . فحملته فانتبذت به مكانا قصيا . فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا . فناداها من تحتها الا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا . وهزى اليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبـا جنيا . فكلى واشربى وقرى عينا فاما ترين من البشر أحدا فقولى انى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا . فأتت به قومهـا تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا . فأشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مبـاركا أينما كنت وأوصـانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون .

كلام المســيح فى المهـد :

وهكذا فصلت آيات مريم ما اجملته ســورة« آل عمران » ونصت على الفاظ المسيح فى المهد من أنه نبى وأنه مبارك وأن الله أنزل عليه الكتاب وأمره بالصلاة والزكاة وهو عين ما كان يقوله بعد ان أصبح كهلا وشرع يبلغ رسالة رب العالمين ،والمسيحيون ينكرون كلام المسيح فى المهد ويقولون لو أن هذا حدث لذكرته كتبهم ، ونحن المسلمين لا يهمنا ماذا يقولون ، وانمــا هو الدليل الذى لا يعوزه دليل على أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسـلم لم يكن ينقل عن كتب النصــارى ، ولا هو ينطق عن الهوى ، وانما هو وحى يوحى .وما جعل النصارى يزورون عن قبول هذه المعجزة الا خوفهم من التسليم انه ليس الها وانما هو نبى شاءه الله على هذه الصورة .

«قالت رب انى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » قدمنا ان الله سبحانه وتعالى عند عرض القرآن لقصة المســيح اراد اولا ان يستقر فى الأذهان ان الله قادر على كل شىء ،يجىء به وفق العــادات الجــارية والســنن والنواميس أو يجــىء به على خــلاف ذلك ففى الحالتين مظهر قدرته وارادته وانه فعال لما يريد .

١ ــ فقص علينا أولا كيف كان يرسل الرزق لمريم بغير الطريق الطبيعى ، مما جعل ســيدنا زكريا يدعو ربه أن يرزقه بولد .

٢ ــ ثم قص علينا ثانيا ، كيف وعد زكريا ان يرزقه على خلاف العادة والنواميس بيحيى .

٣ ــ فلا ينبغى أن نرى فى مجىء عيسى عليه السلام عن غير الطريق العادى ، شيئا يخرج عن نطاق قدرة الله ومشيئته فى أن يخلق ما يشــاء كيف يشاء فى أى وقت يشاء ، وانه اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون وقد لفتنا النظر سابقا ان ذلك لا يحدث بلفظ وجرس وانما هو التعبير بلغتنا أن ارادة الله نافذة على الفور « وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » .

« ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والأنجيل .ورسولا الى بنى اسرائيل انى قد جئتكم بآية من ربكم انى اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله وأبرىء الأكمه والابرص واحيى المــوتى باذن الله وانبئــكم بما تأكلــون وما تدخرون فى بيوتكم ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين » .

مفــردات :

ويعلمه الكتاب والحكمة : أرجح الآراء وما نميل اليه شخصيا ، أن الكتاب هنا بمعنى الكتابة أى أن عيسى عليه السلام كان يقرأ ويكتب .

والحكمة : ملكة يصعب تعريفها ولكنها تتكون عند بعض الشيوخ كثمرة من ثمار المعرفة والتجربة واقرب تعريف لها هو « اصابة الحق فى القول والعمل » هذه الحكمة النادرة والعزيزة المنال ، هى التى يعد الله سبحانه وتعالى « مريم » أن ينعم بها على عيسى عليه السلام منذ الشباب المبــكر .

والتوراة والانجيل : اى انه سبحانه وتعالى سيعلم المولود القادم « التوراة » وهى الكتاب السماوى الذى انزل على سيدنا موسى عليه السلام و « الانجيل » هو الكتاب السماوى الذى انزل على سيدنا عيسى نفسه ولما كان القرآن الكريم يحدثنا عن « الانجيل » فهو شىء يختلف تماما عن هذه الكتب التى أطلقوا عليها اناجيل والتى كتبها أصحابها المنسوبة اليهم « متى ولوقا ومرقص ويوحنا » وقد كتبت على امتداد القرن الأول بعد صعود المسيح الى السماء ويتحدث بولس الرسول فى « أعمال الرسل » عن « انجيل المسيح » .

ورسولا الى بنى اسرائيل : من الحقائق التاريخية أن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعث خلال القرن السادس الميلادى أو حول ذلك، وفى هذا الوقت كانت المسيحية قد شاعت واستفاضت وكانت أعظم دول الدنيا من الناحية العالمية تتخذ منها دينا رسميا ، فى الوقت الذى كان فيه اليهود فى بيئة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ينكرون نبوة سيدنا عيسى فضلا عن رسالته من الأساس ، وليس سوى فى العصور الحديثة بعد أن طبعت الكتب المقدسة على نطاق واسع واصبحت فى متناول الباحثين والدارسين ، أن عرف أن المسيح كان مرسلا لبنى اسرائيل خاصة الى الحد الذى تروى فيه الأناجيل ان امرأة من غير بنى اسرائيل استغاثت به ليشفى وليدها المريض فقال لها المسيح « على ما جاء فى هذه الكتب » انه انما هو وقف فى كل ما يعمل على بنى اسرائيل ، فحاجته المرأة بأن الكلاب « تأكل من طعام اسيادها » فكافأها المسيح على هذا الايمان بأن شفى لها وليدها ، والكتب الموجودة بين ايدى المسيحيين تتحدث عن تجلى المسيح فيما بعد لتلامذته حيث طلب منهم أن يتحدثوا للامم عما شاهدوا من عجائب .

اى ان دعوة المسيح ورسالته ظلت محصورة بين صفوف بنى اسرائيل ، فعندما يقرر القرآن فى صراحة ونصاعة أن المسيح كان رسولا لبنى اسرائيل فهذا علم لا يعرفه سيدنا محمد ولا قومه ولا حتى معاصروه .

معجزات المسيح :

وتروح الآية الكريمة بعد ذلك تعدد الآيات (أى المعجزات) التى زوده الله بها :

١ — « أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله » واخلق هنا بمعنى أصور أو اقدر ، وبلغة العصر « اشكل » وقد حاول المفسرون القدامى والمحدثون أن يؤولوا كلمة « أخلق » الى معنى آخر كما ترى ، ناسين أن الآية الكريمة ما دامت قد انتهت « باذن الله » فلم يعد هناك إشكال من أى نوع كان ، فما دامت المسألة مسألة منح الحياة لما يصنع من الطين فهى عملية خلق تماما مثل خلق آدم حيث قد صنعه الله من الطين ثم أحياه ، فعندما يقرر القرآن الكريم أن المسيح « يخلق » فلا مناص من أعمال اللفظ لما وضع له ، ولا إشكال هناك ما دام الأمر كله يتم باذن الله وبارادته هو وقدرته هو وتفويضه ذلك .

٢ — وأبرىء الأكمه والأبرص : ابرىء بمعنى أشفى الأكمه : بمعنى من ولد أعمى . والأبرص: من كان مصابا بمرض البرص المشهور الذى اعجز شفاؤه الأطباء .

٣ ــ واحيى الموتى باذن الله : واحياء الموتى شىء من أخص خصائص الله الخالق ، ومن هنا نرى حرص القرآن الكريم على التذكير بأن ذلك يتم باذن الله .

٤ ــ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم، غنى عن البيان ان الاعجاز هنا هو ذكر المسيح لأمور لا يمكن عقلا أن يعرفها ، فيصبح ذكره لها من قبيل العلم بالغيب الذى لا يمكن أن يعرفه الا انسان زوده الله بهذه المعرفة .

ملاحظة تلفت النظر اليها :

هذه المعجزات الأربع منها اثنتان قد يمارس البشر ما يشبههما وهما عملية الشفاء والتنجيم ، ومعجزتان لا يقوم بهما سوى الله سبحانه وتعالى وهما عمليتا الخلق والاحياء ، وعلى الرغم من كل ما كان يفعله سيدنا عيسى هو باذن الله وقوته ، فقد حرص القرآن الكريم على النص «باذن الله» على العمليتين هما من خصوصيات الله ، حيث لم يذكر هذه العبارة فى العمليتين الأخريين .

« ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين » وتختتم الآية الكريمة بأن هذه المعجزات كفيلة بأن تجعلكم تؤمنون بالله القادر على تزويد رسله بصنع المعجزات ، وكان بعض المسيحيين القدامى يجادلون بقولهم « من الذى يحيى الموتى » فيكون الجواب « الله » فيسرعون بالقول « فيكون المسيح هو الله » وهنا يظهر تفوق المسلم وقوة عقيدته وسلامتها الى أبد الآبدين ، عندما يقول : « لا لقد فعل المسيح ما فعل باذن الله القادر على كل شىء ، وبعض هذه القدرة أن يمنحها لأشخاص يقومون بها باذنه ، ومن ينكر ذلك لا يكون مؤمنا .

« ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون » .

وكون سيدنا عيسى لم يأت بشريعة جديدة مسألة لم تكن معروفة فالعداء كان شيئا أساسيا بين اليهود والنصارى وكان كل منهما يضطهد الآخر كلما استطاع الى ذلك سبيلا ، وليس الا فى العصور المتأخرة (بعد اختراع الطباعة) أن سمح بطبع الكتاب المقدس وسمح لغير طائفة الكهنة أن ينظروا فيه ، فعرف أن من بين ما روى عن السيد المسيح قوله : « ما جئت لأنقض الناموس ولكن لأكمله » هذه الخصوصية المعنة فى الدقة ، لا أتصور أنها كانت معروفة بهذا التحديد والنصاعة اللذين يتحدث بهما القرآن الكريم « ومصدقا لما بين يدى من التوراة »، ولا عجب فى ذلك فالقرآن كلام الذى يعلم كل شىء .

« ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » :

وليس من مهمتنا أن نتقصى هذه الاشياء التى كانت محرمة على بنى اسرائيل فجاء سيدنا عيسى ليحلهم منها ذلك أن الشريعة الاسلامية قد حددت ما هو حلال وما هو حرام وهى تجب كل ما سبق.
وحسبنا أن نقف عند نص القرآن وفى بعض الآيات الأخرى يحدثنا انه نتيجة ظلم اليهود فى بعض الحالات ونتيجة الحاحهم بالسؤال على سيدنا موسى فى حالات أخرى .

فقد عاقبهم الله بالتشديد عليهم وحرمانهم من بعض المباحات فأصبحت حراما عليهم ولهذه الحالة يشير المسيح عليه السلام من انه جاء الى اليهود ببعض ما يخفف عنهم بتحليل بعض الأمور التى كانت حراما عليهم .

رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ * فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ
مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا
آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ
يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ
الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

« وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطيعون »

وكما بدأ المسيح كلامه الذى رواه القرآن الكريم « انى قد جئتكم بآية من ربكم » ثم راح يعدد هذه الآيات على ما تقدم ، فقد انهى حديثه عن هذه المعجزات من أنها الآيات الالهية وهو احد أساليب القرآن البيانية والبلاغية « فاتقوا الله واطيعون » دعوة لتقوى الله اى خشيته ، وطاعة الرسول فيما جاء به من اوامر ونواه .

ويجرى القرآن الكريم هذه الجملة بنصها والفاظها على لسان كثير من الرسل الذين ورد ذكرهم فى القرآن اظهارا الى وحدة الدعوة والرسالة .

« ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

ويختم سيدنا عيسى عليه السلام هذا القسم من اقواله بتأكيد وحدانية الألوهية فما من اله سوى الله وحده لا شريك له وباقى البشر بمن فيهم من الأنبياء والرسل عبيد له .

ومما يستوقف النظر ويدل على أن الانسان متى أعتقد عقيدة « ولو خاطئة » يصبح من اصعب الأمور زحزحته عنها فهذا الذى يرويه القرآن الكريم على لسان السيد المسيح من تسويته نفسه بالناس جميعا أمام الله سبحانه وتعالى هو عين ما نقرؤه فى هذه الأناجيل المقول عنها والمنتشرة بين أيدى الناس فهى تروى، على لسان المسيح انه لا يفتأ يكرر عبارة « ابى وابوكم » اى ان المسيح عندما يصف الله بالأبوة فليس ذلك امرا خاصا به وحده بل ان الله أبو الجميع ، وليس اقطع بذلك بأن الصلاة التى يصليها اى مسيحى تبدأ بقوله « ابانا الذى فى السماء » .

« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من انصارى الى الله قال الحواريون نحن انصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .

«فلما أحس عيسى منهم الكفر» : أى عندما أدرك أن قومه « بنو اسرائيل » قد أنكروه وجحدوه وكفروا برسالته ، توجه بالقول الى هذه الصفوة من الناس التى لا يخلو منها زمان أو مكان . «قال من انصارى الى الله » أى من منكم استمع لقولى وآمن برسالتى ، « قال الحواريون نحن انصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .

الحواريون : جمع حوارى وهو الصفى والناصر يقال فلان حوارى فلان اى من أخص خاصته والمقربين جدا اليه وقيدها البعض بأن تكون وقفا على الأنبياء ، جاء فى الصحيحين : « لكل نبى حوارى وحواريى الزبير » والمعنى أنه حيث كفر جمهرة بنى اسرائيل فقد هدى الله الحواريين فردوا على تساؤل المسيح بأنهم أنصاره وأنهم آمنوا برسالته ودعوته الى التوحيد « واشهد بأنا مسلمون » وطلبوا من المسيح ان يشهد باسلامهم وقد تحدثنا أكثر من مرة عن وحدة الأديان السماوية وان جوهرها واحد وهو الاستسلام والانقياد لأوامر الله الواحد الأحد التى يبلغها للبشر على لسان رسله .

« ربنا آمنا بما انزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » .

ويقرر القرآن الكريم على لسان حوارى عيسى عليه السلام ما يقرره خلصاء اى رسول صادق من أنهم يتبعونه ويؤمنون بكل ما يدعو اليه وعلى قمة ذلك كله الايمان بالله وما أنزل من كتب تتضمن اوامره ونواهيه .

« فاكتبنا مع الشاهدين » ويدعو الحواريون ربهم بما يتمناه اى مؤمن فى كل زمان ومكان وهو ان يعتبرهم الله سبحانه وتعالى من الشاهدين من بنى البشر يوم القيامة على أقوامهم بأن الله قد أرسل اليهم الرسل مبشرين ومنذرين واذا كان هؤلاء الشهود فى زمن الرسل السابقة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من خاصة قومهم ، فقد جعل الله سبحانه وتعالى جماهير المسلمين الى أبد الآبدين شهداء على الناس فى كل العصور ذلك أن كتاب المسلمين هو آخر ما أنزل من كتب ، وفيه الاشارة الى كل ما سبق « وما من أمة الا خلا فيها نذير » .

« ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

المكر : لغة هو التدبير الخفى يقصد به الأضرار بمن يمكر به ، ولما كان هذا المعنى مما لا يجوز على الله سبحانه وتعالى فقد قال البعض أن المكر يعنى « التدبير المحكم » وهو ليس بممتنع على الله جاء فى حديث رواه أحمد والترمذى وآخرون ان سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام كان يقول فى بعض دعائه : « رب اعنى ولا تعن على وامكر لى ولا تمكر على » . وطالما نبهنا فيما مضى ان هذا الحديث عن مكر الله وكيد الله انما يتبع فيه القرآن الكريم اسلوب اللغة العربية التى نزل بها ، وهو ما يعرف بالمشكلة واللفظ هنا يكرر لاظهار عظمة الله التى تعلو كل شىء وقدرته اللا نهاية فلا يتصورن متصور كائنا من كان انه يمكن أن يفعل أمرا من الأمور

الا والله اعلى واكبر وقد ذكر المكر منسوبا الى الله سبحانه وتعالى فى آيات أخرى بدون مقارنة مع مكر الناس وهو عندنا تأكيد لقدرة الله على كل شىء ولا حاجة بنا للقول أن هناك مكرا خيرا وأن هناك مكرا شريرا فكل ما يصدر عن الله عزوجل فقد صدر طبق مشيئته وحكمته اما ما هو موضوع هذا المكر فيما يتصل بنهاية المسيح ، فهو ما سوف نشير له فى الآية القادمة ان شاء الله ..

« اذ قال الله يا عيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك » .

نصل الآن الى احدى آيات القرآن التى هى من عين الآيات (المتشابهة) اى المشكلة والتى يجب أن يفوض فيها المؤمن العلم فيها لله فلا يحاول أن يقطع فيها برأى ، ذلك انه حيث تحدثنا هذه الآية الكريمة عن وفاة المسيح ثم رفعه وتطهيره ، وتحدثنا الآية فى سورة مريم « والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » .

فقد قال تعالى « وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » وتنتهى هذه الآية الكريمة الواردة فى سورة النساء بقولها : « وما قتلوه يقينا » أى أن القرآن الكريم يحدثنا عن أمرين :

١ — أن المسيح باعتباره بشرا كبقية البشر لابد أن يموت ويبعث .

٢ — النفى القاطع والجازم للقول بأن المسيح قد صلب وعذب وقتل وهو ما يقول به المسيحيون. هذان الأصلان هما عقيدة كل مسلم وما نؤمن به باعتبارنا مسلمين وبعد ذلك ننقل ما جاء فى تفاسير ثلاثة بعضها حديث والآخر قديم .

ما جاء فى تفسير المنتخب :

« واذكر أيها النبى اذ قال الله يا عيسى انى متوف أجلك ولا أمكن أحدا من قتلك وانى رافعك الى محل كرامتى ومنجيك من أعدائك الذين قصدوا قتلك وجاعل المتبعين لك الذين لم ينحرفوا عن دينك ظاهرين بالقوة والسلطان على الذين لم يهتدوا بهديك الى يوم القيامة ثم الى مصيركم فى الآخرة فأقضى بينكم فى الذى تنازعتم فيه من أمر الدين » .

تفسير الوسيط :

وجاء فى تفسير الوسيط الذى يشرف عليه مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر الشريف : « متوفيك » ، أى مستوفيك وآخذك أى مأخوذ من قولهم توفيت دينى على فلان أى استوفيته واخذته ويعتبر قوله عقبة « ورافعك الى » تفسيرا له « ومطهرك من الذين كفروا » أى مطهرك منهم بابعادك عنهم بالرفع فقد دنسهم الكفر . ثم روى تفسير الوسيط الأقوال المختلفة التى وردت فى التفاسير القديمة ، ولما كان تفسير المنار قد روى بدوره هذه الأقوال فنحن ننقلها عنه ليكون لدى القارىء فكرة عما قيل فيختار لنفسه ما يطمئن له فؤاده .

تفسير المنـــار :

« التوفى فى اللغة : اخذ الشىء وافيا تاما ،ومن ثم استعمل بمعنى الأمانة ، قال تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها » وقال : « قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بـــكم » .

ثم ينتقل الحديث الى بعض الروايات القديمة « انى متوفيك » اى منومك ، وبعضهم انى قابضك من الأرض بروحك وجســـدك « ورافعك الى » بيان لهذا التوفى ، وبعضهم انى انجيك من هؤلاء المعتدين فلا يتمكنون من قتلك ، ويمضى التفسير فى ايراد الروايات التى تتعلق بمصير السيد المسيح مما لا نحاول نحن ان نقطع فيه برأى فليرجع الى تفسير المنار من يريد المزيد أما نحن فنقف عند حد ما قدمنا من العقيدة .

١ ــ بأن المسيح كبشر يموت ويبعث .

٢ ــ انه لم يصلب وبالتالى لم يقتل وانما شبه لهم .

لفت نظر :

وأريد أن أقف لألفت النظر الى فهم دار فى ذهنى عنـــدما كنت شابا ولم أتفهم بعد عقيـــدة المسيحيين ، فقد كنت أتصور ان الخـــلاف بين المسلمين والمسيحيين لا يعدو أن يكون خلافا يمت الى مسألة تاريخية فنحن المسلمين نزولا عند حد قرآننا ، نؤمن ان الذى صلب وقتل لم يكن هو المسيح وانما هو شخص آخر القى الله عليه شبه المسيح ويقول المسيحيون ، بل الذى صلب وتعذب ومات على الصليب هو ذات المسيح ، اقول كنت اتصور فى شبابى أن الخلاف بسيط وهو على كل حال واقعة من وقائع التاريخ وكان يدهشنى أن يثير المسيحيون كل هذه الحروب على المسلمين من أجل هذا الخلاف « الشكلى » ولكنى بعد أن درست العقيدة المسيحية وجدتها تتلخص فى هذه المسألة بل هى لا تخرج عن هذه المسألة فالعقيدة المسيحية تتلخص فى كون الله أرسل ابنه الحبيب الى الأرض ليصلب ويعذب ويقتل على الصليب ليكون موته كفـــارة للبشر ، ومن لا يؤمن بهـــذه الفكرة لا يكون مسيحيا .

ومن هنا كان حرص القرآن الكريم على أزهاق هذه العقيدة الفاسدة من أساسها بذكر حقيقة ما حـــدث ان القدرة الالهية انجت المسيح من الصلب ، وسوف نذكر اذا أحيانا الله حتى نصل الى تفسير سورة النساء ما قيل عن صلب المسيح وما ادى اليه حسب تصـــور المسيحيين أما الآن فنحـــن نقف عند نص عبارات القرآن الكريم من انه سيتوفى عيسى ابن مريم وسيرفعه ويطهره .

« وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة »

ويجهد المفسرون أنفسهم فى التساؤل عن معنى هـــذه « الفوقية » أهى فوقية مادية فى الدنيا (اى سلطان وقهر) أم هى معنوية تعنى ارتفاع مكانة المؤمنين بالمسيح عند الله ، ويروح البعض

يستعرض تاريخ المسيحيين المادى ومدى تفوقهم على اليهود ، حيث الآية عامة ، وهى أحد مبادىء القرآن الأساسية التى يكررهـا بشتى الصور والأشكال ويعبر عنها بمختلف الصيغ والعبارات ، وهى محور كل قصصه وهدف كل مواعظه وهوان الحق يعلو ولا يعلى عليه ، وان الباطل دائما الى ضياع وخسران ، « وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » .

وقد جاء المسيح كغيره من الرسل بالحق فالذين يتبعونه انما يتبعون الحق ، والذين يكفرون به يتبعون الباطل ، وهى معركة كانت دائمـا بين الحق والباطل وستبقى الى يوم القيامة والنصر دائما فى خاتمة المطاف للحق ، وهو أن تأخر عن أصحابه فبمقدار ما يبعدون عن هذا الحق ، فاذا عادوا اليه عاد اليهم النصر ، فالمسلمون عندما كانوا مستمسكين بحبـل الله المتين ، كانوا هم أصدق اتباع لما جاء به المسيح الذى جاء مبشرا بسيدنا محمد « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » ومن هنا عزوا وسادوا تحت راية القرآن والاسلام الذى هو عين ما دعا اليه عيسى عليه السلام ، حيث خذل من تصوروا أنفسـهم ينتسـبون اليه والحقيقـة انهم كانوا يتبعـون اهواءهم .

« فالفوقية » هنا عامة مطلقة لمن يتبع الحق وهى فوقية مادية ومعنوية فى الدنيا والآخرة وعلى من يفقدها أن يسائل نفسه أهو يتبع « الحق » فعلا ، أم انه بعد عنه ، وفى القرآن آية عامة شاملة لا تخرج الآية التى نحن بصـددها عن نطاقها :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما اسـتخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنـا يعبدوننى لا يشركون بى شـيئا ! » .

« ثم الى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » .

ويعود القرآن الكريم مخاطبا كل من على ظهر الأرض كان أو هو كائن او سوف يكون مسيحيا كان أو يهوديا أو مسلما ، ان الجميع سيرجعون الى الله وانه هو الذى سيصدر الحكم فيما يختلف فيه البشر ، وما هو الحق وما هو الباطل .

« فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين » .

وها هو مصداق ما قدمناه من انه لا محـل للتساؤل عن علو المؤمنين أهو علو مادى أو معنوى وهل هو فى الدنيا أو الآخرة فالقرآن الكريم يتوعد الكافرين بعكس ما يعد به المؤمنين ويقرر ان الأمر فى الدنيا والآخرة ، مادى ومعنوى على السواء وهو العذاب الشديد الذى لا يجد الكافر من يدفعه عنه « وما لهم من ناصرين » .

« وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين » .

ومن التخصيص الى التعميم ، وما فهمناه من الخاص وانه مقصود به العام ، شاء تعالى ان لا يجعله استنتاجا ، بل صريحا ومباشرا ، وتوفية أجور المحسنين يكون فى الدنيا والآخرة وكراهية الله سبحانه للظالمين دائمة أبدا فى الدنيا والآخرة.

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ
مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل
لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا

« ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم » !

ولا يفتأ القرآن الكريم يذكر البشر من أين لمحمد بن عبد الله « الأمى » — ابن الصحراء من يعبد قومه الأوثان والأصنام — من أين يجيء بكل هذا الفيض من المعلومات عن الأديان السماوية كلها ، الحق انه لا مناص من التسليم بأنه وحى من رب العالمين على صورة « آيات وذكر حكيم » .

القرآن والمنطق :

نزل القرآن الكريم عربيا يخاطب العرب بلغتهم، والعرب كسائر الشرقيين بعامة وسكان الصحارى منهم بخاصة يتميزون بالحس الدقيق والمشاعر الحارة والفطرة السليمة ، وهذه كلها تنتهى الى مجموعة من البديهيات والمسلمات التى يتقبلها العقل البشرى فى بساطة واقتناع كامل ويرى سخفا ما بعده سخف ، أن يشغل انسان نفسه بما لا طائل تحته كأن يقيم البرهان على أمر لا يحتاج الى برهان وتتقبله الفطر السليمة كما تتقبل كل حقائق الحياة ، ولكن سكان المناطق الشمالية حيث الغيوم وقلما تشرق الشمس أقل ارهافا فى الحس وأضعف فى المشاعر وبالتالى اصبح عندهم ميل الى تعقيد الأمور ، وسموا هذا التعقيد بالعلم النظرى ، حيث العلم الحق ما ثبت بالتجربة أوجاء عن طريق الوحى لخالق الكون ،وخالق كل من فيه ، وواضع فيه بعض اسراره وعلمه .

من باب اولى :

نقول ذلك بمناسبة هذه الآية التى نحن بصددها والتى تثير احدى مسلمات العقل البشرى وهى قضية من « باب أولى » وهى مسألة احسب ان اى صبى مميز ، وربما حتى قبل ان يكون مميزا لا يمكن ان لا يدركها ، وهى انك ما دمت تقدر على الأكثر فأنت على الأقل اقدر ، فمن كان فى حوزته عشرة قروش فهو يعرف انه يحوز ما دون العشرة ومن كان يستطيع ان يرفع مائة كيلو فهو يعرف انه من باب أولى يستطيع ان يرفع الخمسين وهكذا ، هذه المسلمات والبديهيات المستكنة فى كل نفس كقولك : ان محمدا هو محمد وأن الكل أكبر من الجزء ، وأن الشىء لا يمكن

ان يكون حاضرا او غائبا ، بمعنى أن يكون موجودا أو معدوما ويستحيل أن يكون الاثنين معـــا ، هذا هو ما اصطلح على تسميته بالمنطق اى لغةالعقول . ومذ يولد الانسان اى انسان فان هذه المدركات تولد معـــه فهى محـــور انسانيته ، فالانسان ليس انســـانا الا بالعقـــل والبديهيات والمسلمات هى أساس هذا العقل وعلى هذا الأساس نزل القـــرآن الكريم يخاطب العقـــل الانسانى ويفهم اى عقل عادى حجة القـــرآن ودليله ويصدع فى غير مناقشـــة فالعقل مثـــلا لا يستطيع أن يتصور حدوث حادثة بغير محدث ،أى « سبب » كما لا يستطيع أن يتصور أن ينشأ الموجود من المعدوم ومن هنا افحم القرآن مشركى قريش بقوله : « ام خلقوا من غير شىء أم هـــم الخالقون » ولا يجرؤ عقل بشرى أن يقول انه جاء من العدم ، كما لا يجرؤ أن يقول انه هو الذى خلق هذا الكون ، فلم يعد هناك مناص من التسليم بوجود قبـــل وجودنا هو الذى خلقنا ، وهـــو ما صدعت به العقول البشرية فى كل زمان ومكان.

منطق ارســـطو :

وكان رجل اسمه ارسطو ، صاغ من هـــذه الظاهرة الانسانية ما اسماه علم المنطق واحمد الله اننى ما وقعت فى احابيله ابدا حتى لقد تصورت نفسى غبيا بليدا ،فقد كان المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق يعلمنا هذا العلم بعد أن برع فيه بعض علماء المسلمين ، فأشهد اننى لم افهـــم حرفا واحدا مما كان يقال لنا ، ذلك أن نفسى كانت ترفض هذه المصطلحات ولا زالت ترفضـها، وان مثلها فى ذلك مثل هذا الرجل « الجاهل » الذى راحوا يعرفونه بعلم المنطق حتى اذا نجحوا اخيرا فى افهامه حقيقة المنطق ، اذا به يقول :حقا كم انا جاهل لقد عشت طول حيـــاتى اتكلم بالمنطق وانا لا ادرى .

ولذلك فلست اتردد بكل تواضع وانا بكامل المسئولية فى أن اطلب من الشباب ان لا يقعوا فى احبولة المنطق الارسطى الذى نقله العرب فى عهد الترجمة الأول وفتن به بعضهم فكانت مدرسة المتكلمين التى اخرجت العقيدة الاســـلامية من نصاعتهـــا وشفافيتها وبساطتها الى التعقيـــد والعتامة والسفسطة وما قولك فى أن هذا المنطق الأرسطى بالذات كان هو سلاح علماء المسيحيين لاثبـــات أن الثلاثة هى الواحـــد والواحد هو الثلاثة .

عيسى وآدم فى منطق القرآن :

فعندما نتحدث عن منطق القرآن ، فهو يخاطب به الفطرة الانسانية وما استقر فيها من حقـــائق ومن بين هذه الحقائق قاعدة « من باب أولى » وحجة المسيحيين فى أن المسيح اله ، كونه وجد من غير أب فلا بد أن يكون الله هو أبوه اذ أن البشرية لا تعرف انسانا بغير اب ، فيقول لهم القرآن : وماذا تقولون فى آدم وقد ولد من غير اب ولا أم ؟فلا مناص من أن يقولوا ان الله على كل شىء قدير ، فمن يقدر على خلق انسان من غير أم واب ، فهو على خلق انسان من غير اب اقدر ولنشرع بعد هذا التمهيد فى استعراض الآيات :

« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

هذه هى المحاجة القرآنية للمسيحيين ، فهمها ويفهمها كل من يخاطب بها ، فالمسيحيون مسلمون ومعترفون بأن آدم خلق من تراب ، فاذا كان المسيح قد ولد من انسانة فليس هذا بأغرب ممن اوجد من التراب ذلك ان الله سبحانه وتعـــالى اذا اتجهت مشيئته الى احداث امر فشأنه ان يقول له كن فيكون ، فليس بلازم أن يكون المسيح هو الله لكونه ولد من غير اب .

« كن فيكون »

وقد سبق أن نبهنا الى أنه ينبغى أن لا يتصورمتصور أن الأمر يتم من الله سبحانه وتعـالى بلفظ وجرس وانمـا هو ككل تعبيرات القرآن الكريم مقصود بها مخاطبتنا على قـدر ما نفهم والمعنى أنه متى اتجهت مشيئة الله الى احداثأمر فهو يحدث .

ويتساءل بعض الفضلاء لـماذا كان التعبيرعن أمر تم وانتهى « خلق آدم » بكلمة فيكون بدلا من « فكان » وعند هؤلاء الأفاضل « والتعبيربالمضارع بدل الماضى ــ فكان ــ لتصويره بصورة الحاضر المشاهد ايذانا بغرابته » وما داموا قدأدركوا من التعبير هذا المعنى فيحتمل أن يكون هو المقصود ، وفى رأينا أن الأمر قد انتقل من الحكاية عن شىء مضى الى تقرير احدى سنن الله الدائمة فى الماضى والحاضر والمستقبل ،وانها هى التى عملت بالنسبة للمسيح كما عملت بالنسبة لآدم وكما ستعمل دائما .

« الحق من ربك فلا تكن من الممترين » .

ان ما نقوله لك أيها المخاطب بالقرآن لهـوالحق ، وكل ما عداه هـو الباطل فحذار أن تتلجلج أو تتردد فى اعتباره كذلك . « الممترين »المتشككين أو المجادلين والكلمة من المراء ، أى الشك أو الجدل .

« فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله علىالكاذبين » .

لا جـدال :

بعد أن حسم القرآن الكريم قضـية عيسى بن مريم وأنه عبد الله ورسوله ، علم سبحانه وتعالى أن ذلك لن يحسم القضية عند المخالفينالذين تقوم مصالحهم على الخلاف ، فالخلافات تنشأ لتعصب كل صـاحب رأى لـما يرى فيهمصلحته ، فيقول القرآن الكريم لنبيه ويخاطب فى شـخصه كل مؤمن الى يوم الدين : « فمنحاجك » أى من جادلك فى شأن المسيح بعد ما تبين لك الحق من أمره فلا تمض معه فى الجـدل فانذلك سيكون عديم الجدوى ولن يؤدى الى اية نتيجة ، وهنا نعود ثانية الى منطق ارسطو وكيفان المتجادلين كليهما يستطيعان الجدل الى ما لا نهاية فى ظل الصيغ وصور الكلام « الارسطى »وكل يدعى أن الحق الى جانبه ، ومن هنا فان القرآن الكريم يقول لنبيه « لقـد ذكرت الدليل العقلى الذى يقر به كل عاقل ، وهو أن من خلق آدم من تراب أى من غير أم ولا أب معا ، فمن باب أولى يخلق عيسى من أم ولكن بغير أب ، فان راحوا يجادلونك بعد هذه الحجة القاطعة فلا تمضمعهم فى اللجاجة ، بل ادعهم « ان كانوا مؤمنين » أن تفوضوا الأمر لله ، فتدعونه بعد أن تحتشدوالذلك أنتم وأولادكم ونساؤكم ، أن ينزل لعنته على الكاذب منكم ، وفى البخارى ومسلم ان وفدنجران المسيحى قد احجم عن هذا الدعاء خوفا وخشية من الله سـبحانه وتعالى واليك نصالحديث : « جاء العاقب والسيد صاحبا نجران الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدانأن يلاعناه ،فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل فوالله لو كان نبيا فلاعناه ، لا نفلح نحن ولا عقبنا منبعدنا . قالا انا نعطيك ما سألتنا وابعث معنـا رجلا أمينا ، ولا تبعث معنا الا أمينـا فقال :لأبعثن معكم رجـلا أمينا حق أمين ، فاستشرف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فقال : قم يا أبا عبيدة بن الجراح فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا أمين هذه الأمة » . وقد ورد هذا الحديث بروايات مختلفة ولـكنا آثرنا ما جاء فى الصـحيحين وفى بعضالروايات أن سيدنا عمر كان يتمنى أن يكون

هو الذى يختاره لهذه المهمة ، كما ورد فى بعض كتب السيرة وبعض الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا سيدنا عليا والسيدة فاطمة والحسن والحسين باعتبارهم من عناهم القرآن الكريم بأنهم أبناء النبى ونساؤه ، ويعنينا نحن فى مقامنا هذا أن سيدنا محمدا دعا من يخالفنا نحن المسلمين فى شأن المسيح أن « يباهلنا » أى يدعو الله فى اجتماع حاشد أن ينزل لعنته على الكاذبين .

وعندنا أن هذا الذى حدث فى أيام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، سيظل يحدث الى أبد الأبدين ، فلست أتصور أن تقبل أية جماعة مسيحية متدينة هذا التحدى ، فيقبلوا أن يطلبوا من الله أن ينزل لعنته على الكاذبين .

بينى وبين قس أمريكى :

وقد وقعت لى أنا شخصيا واقعة مع قس أمريكى قد أكون رويتها من قبل ، ولا بأس من ايرادها هنا ثانية فقد حدث عندما كنت فى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٤٧ أن دعانى قس أمريكى لألقى فى كنيسته محاضرة عن الاسلام فحرت ماذا أفعل ولما كان معى أحد كتب ترجمة معانى القرآن بالانجليزية فقد رأيت أن تقتصر محاضرتى على ترجمة معانى سورة مريم فلما شرعت أتلوها من الترجمة الانجليزية ، استوقفنى القس بعد قليل وقال لى : أى شىء هذا الذى تقرأ علينا منه ، فقلت له : ترجمة معانى القرآن وسكت ، ومضيت أقرأ فى سورة « مريم » فلم يتمالك القس نفسه عن أن يعاود السؤال :ما هذا الذى تقرأ فيه فقلت انه القرآن الكريم كتاب الاسلام ، وأسرع الرجل فى لهفة يأخذ الكتاب من يدى ليتحقق من صدق ما أقول ، وأعاد الى الكتاب وهو يقول متعجبا : اذا كان هذا هو الاسلام . فما هو الفارق بين الاسلام والمسيحية فأجبته لا فرق الا أن الاسلام لا يرى فى المسيح الا انه رسول الله ، أما أنتم فتقولون ان المسيح هو الله فصرخ الرجل ، ان علماءنا لا يقولون ذلك . هذا كلام قاله لى رئيس احدى كنائس الولايات المتحدة على ملأ من اتباع كنيسته عندما أفحم بكلام القرآن عن سيدنا عيسى ، ولعل ذلك يدعم تصورنا من أن القسس لن يقبلوا الى أبد الأبدين أن يدخلوا فى « مباهلة » مع المسلمين أن ينزل الله لعنته على الكاذبين فى شأن المسيح.

« ان هذا لهو القصص الحق ، وما من اله الا الله وان الله لهو العزيز الحكيم ، فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين » .

ويؤكد القرآن لسامعيه أن ما يقرره عندما يعرض لقص أمر من الأمور انه هو الحق المبين ، ولا عجب فى ذلك فهو كلام الله القديم ، « وما من اله الا الله » ويكرر القرآن جوهر الرسالات كلها ومحورها وهو التوحيد والتوحيد الصارم « لا اله الا الله » « وان الله لهو العزيز الحكيم » وصفة هذا الاله ، انه فوق كل شىء ، وأعلى وأعظم وأقدر من كل شىء وأمره غالب على كل شىء ، « العزيز » وهو لا يخبط خبط عشواء ولا حيثما اتفق وانما كل شىء عنده بمقدار وميزان وهدف فهو « حكيم » أى مدبر .

« فان تولوا فان الله عليم بالمفسدين »

أى فان أعرض كائن من كان عن جادة الحق التى نقولها ونؤكدها ونكررها ، فان الله « عليم بالمفسدين » أى يعلم فساد قلوبهم وسوف يتولى شأنهم .

« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

كلمة سواء بيننا وبينكم : اى واضحة صريحة محددة ، مستوية عادلة ، بحيث نتفق عليهـا جميعا .

عظمـة القرآن :

طالما طالبت قرائى أن يسمحوا لى أن استغفر الله عن مثل هذه التعبيرات من مثل « عظمـة القرآن . فالقرآن باعتباره كلام الله ونحن نؤمن بذلك ، فلم يعد فى حاجة الى أن نصفه بالعظمة ، ومع ذلك فنحن بشر ، ولا سبيل للتعبير عما فى نفوسنا من اعجاب يصل الى درجة « الانبهار » الا أن نعبر عن انبهارنا بمثـل هذه التعبيرات « عظمة القرآن » انظر الى هذا السياق وهـذا التدرج فى مواجهة بين المسلمين والمسيحيين :

أولا ــ الدليل العقلى :

ففى بادىء الأمر ساق الدليل والبرهان العقلى الذى يمسك بتلابيب اى انسان يتصف بالعقل ، فليس بلازم لكون المسيح قد ولد من غير أب أن يكون الها لأن آدم قد خلق من غـير أبوين ، والمسيحيون يؤمنون بكيفية خلق آدم ولا يتشككون فى قدرة الله على فعل ذلك فأصبح لا فكاك لهم من التسليم أن القدرة التى فعلت هذا لن تعجز عن فعل ذلك .

ثانيا ــ ولـما كان القرآن الكريم تنزيل من لدن خالق الانسان فهو يعلم انه فى الأمور الدينية يتجاوز الانسان أحكام العقـل الصـارمة الى الوجدان والعاطفة فدعاهم الى تحكيمها عن هذا الطريق الذى شرحناه : طـريق المباهلة وهـو موضوع وجدانى بحت .

ثالثا ــ حتى اذا أحجم نصـارى نجران عن سلوك هذا السبيل ، على ما تقول الروايات من أنها سبب نزول هذه الآيات ، فقـد جاء القرآن الكريم بالحـل الثالث للخـلاف بين المسلمين والمسيحيين واليهود وكل من يقول أنه يتبع كتابا أنزل عليه من السماء وهو أن نتفق على قدر متيقن نجمع عليه جميعا لنعيش معا فى سـلام ووئام وتعاون ، وهو ما يسمى بلغة عصرنا « التعـايش السلمى » حيث يلتقى المتخالفون على قدر يجمع بينهم وهى الرغبة فى السلام . فانظر الى هذا التدرج فى موقف الاسلام من بقية الأديان تعلم لمـاذا اعتذرنا عن وصفه بالعظمة لأنه شىء فوق العظمة وفوق كل مدح وثناء ، فهو أمل البشرية فى كل زمان ومكان أن تتعايش رغم اختـلاف أديانها ، وسنكشف لك بعد قليل كيف أن هـذا الأمر أصـبح من أوجب الواجبـات فى عصرنا الحاضر ، ولكننا قبل ذلك نريد أن نوضح هـذا القدر المشـترك الذى دعا الاسلام أصـحاب الكتاب «أى الديانات السماوية الأخرى» للالتفاف حوله :

« الا نعبـد الا الله ولا نشـرك به شـيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » .

١ ــ عبادة الله .

٢ ــ عدم الاشراك فى عبادته .

٣ ــ عدم اتخاذ بعض البشر اربابا .

هذه هى الأصول الثلاثة التى دعا الاسـلام أصحاب الديانات الأخرى للالتقاء حولها ، وهى أصول تجمع عليها الكتب السـماوية المعروفة وهى التوراة والانجيل ، ونحن المسلمين لا نعترف بما فى يد اليهود والنصارى ، فالقـرآن وقوله الحق يقرر أن كلا من اليهود والنصارى قد حرفوا كتبهم وبدلوها ، وعندما يقرر القرآن ذلك ، فهذا يكفينا نحن المؤمنين ، ومع ذلك فلا بأس أن نضيف لغير المؤمنين ، أن هذه حقيقة تاريخية وعلمية «فبولس » الرسول الذى عاصر المسيح يحدثنـا

عن «انجيل المسيح» حيث الذى فى يد المسيحيين ، أناجيل كتبت بعد ذلك بكثير ، ولابد أن تكون قد كتبت بلغة غير التى وجدت مكتوبة بها ، أما ما يسميه اليهود تقرر أنها كانت قد فقدت ثم أعاد كتابتها بعض عن سيدنا موسى ، وهو ما لايتجاوز عشرا من الكتاب الذى يسمونه التوراة فهو لا يعدو أن يكون فصولا تاريخية ، وحتى هذه الفصول فالتوراة كما هى فى يد اليهود تقرر أنها كانت قد فقدت ثم أعاد كتابتها بعض الكهان . والخلاصة أن ما فى يد اليهود والنصارى ليس هو الذى يسميه القرآن « التوراة والانجيل » ومع ذلك وبالرغم من كل شىء فسوف ترى أن ما فى هذه الكتب هو التحدث عن التوحيد وعن أفراد الله بالعبادة اى الابتعاد عن الشرك.

فسوف تطالع فى كتاب اليهود : « ان الرب الهك ، لا يكن لك آلهة اخرى ، أمامى لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق ومما فى الأرض من تحت ، وما فى الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهن ولا تعبدهن » . فالتوحيد والنهى عن الوثنية هو أصل من أصول اليهودية ، وهو أصل كذلك من أصول المسيحية فالمسيح يقول « ماجئت لأهدم الناموس ولكن لأكمله » وهذا النص الذى نقلناه سوف تجده فى أى كتاب مقدس فى يد المسيحيين حيث ضموا كتاب اليهود وأسموه « العهد القديم » الى كتابهم وأسموه العهد الجديد ، وأطلقوا على الكتابين معا « الكتاب المقدس » .

ماذا فى كتاب المسيحيين :

وقد كان للمسيحيين عشرات ومئات من الكتب **يطلق عليها اسم الانجيل** ، ثم شاءت الكنيسه أن تضع حدا لهذه الفوضى فأمرت بحرق هذه الأناجيل باستثناء أربعة صيغ منها وهى المنسوبة الى « متى ومرقص ولوقا ويوحنا » وبالرغم مما بين هذه الروايات الأربعة لقصة حياة المسيح من خلاف فى التفاصيل وزيادة هنا ونقص هناك ، فان جوهر ما ينسب للسيد المسيح فى الأناجيل الأربعة واحد ، وهو يدور حول التوحيد وعدم الاشراك بالله وبشرية المسيح حيث لا يشار اليه مرارا وتكرارا الا أنه « ابن الانسان ».

وقد حوى ما يسمونه « انجيل يوحنا » نصا صريحا فى وحدانية الله وأن عيسى رسوله ، واليك هذا النص الصريح : فى يوحنا « ١٧ — ٣ » .

« وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته » فأنت ترى أن هذا التعبير يساوى تماما « لا اله الا الله محمد رسول الله » فالاله واحد والمسيح رسوله ولكن هكذا شاء انحراف الكنيسة أن جعلوا الواحد ثلاثة ولما كان التوحيد أصل من أصول المسيحية شأنها فى ذلك شأن اى دين آخر فقد حرصت الكنيسة وهى تتحدث عن ثالوث أن تنهى الأمر بالقول : « الكل اله واحد » وليس ادل على أن التوحيد وعدم الشرك بالله أصل من أصول المسيحية أن البابوات عندما أرادوا استثارة النصارى ضد المسلمين فى الحروب الصليبية وصفوا المسلمين بأنهم كفار بالله وانهم وثنيون مشركون يعبدون « محمدا » ولذلك أطلقوا على المسلمين اسم « المحمديون » أى من يعبدون محمدا حيث حوى القرآن آية تكفى وحدها لاثبات صدق سيدنا محمد ولا أقول عظمته بل رسالته من رب العالمين وذلك هى قوله تعالى « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » الآية وسوف ترد علينا هذه فى هذه السورة « آل عمران » وسوف نقف أمامها طويلا ، وقد كانت هذه الآية هى التى استند عليها سيدنا أبو بكر يوم وفاة النبى صلى الله عليه وسلم عندما قال للناس « أيها الناس من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فان الله حى لا يموت » .

فليس يوجد فى تاريخ البشر قديما أو حديثامن صرف عن تفكير الناس اى ميل لعبادته بعد موته من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وذلكبفضل القرآن الكريم ، بحيث انفرد المسلمون بأنهم الموحدون توحيدا خالصا من دون العالمين .

انقلاب المسيحيين ضد البابوية :

ومن هنا فلم يكد الصليبيون الأوائل يستقرون فى الشرق ويحتكون بالمسلمين حتى ادركوا ان المسلمين :

١ — اكثر عبادة وتوحيدا وتنزيها لله منهم .

٢ — اكثر حضارة منهم .

ونقل الصليبيون حضارة المسلمين ، ونقلوا افكارهم فى محاربة الوثنية وتأليه البشر وليست الحركة البروتستانتينية سوى مظهر ذلك حيثاعتمدت ثلاثة مبادىء للاصلاح المسيحى كلها اسلامية وهى :

١ — محاربة التماثيل فى الكنائس .

٢ — السماح لأى مسيحى بمطالعة الكتاب المقدس .

٣ — اسقاط القداسة عن البابا التى وصلت بهالى مرتبة الالوهية .

وفى ظل هذا الاصلاح الدينى الذى قام بوحى من الاسلام بدات أوروبا نهضتها العارمة التى اذنت بالزوال مرة أخرى على أصحاب الأديان انيلتقوا على دعوة القرآن .

وهاهو القرآن الكريم يرينا فى كل مناسبة انهدعوة خالدة فى كل زمان ومكان لا يصلح الكون الا بها ، فهذه الدعوة الى اهل الكتاب ان يتفقوامع المسلمين على :

١ — أن لا يعبدوا الا الله .

٢— وأن لا يشركوا به شيئا .

٣ — وأن لا يتخذوا بعض البشر اربابا .

هذه الأصول الثلاثة هى ما يجب أن يتجمع حولها المؤمنون من أى دين ، لأن الأمر لم يعد مسلم أو مسيحى ، وانما مؤمن بالله وبالغيب أوغير مؤمن ، فموجة الكفر بالله والالحاد هى التى اصبحت تهدد البشرية بما جرته وراءها من استهانة بالبشر وتحويلهم الى مجرد ذراتيدوسهم من يدوسهم ، ويعذبهم من يعذبهم ، بحجة أنهيعمل لخير الانسانية لكى تنعم الأجيال المقبلة بحياة أسعد ، وقد جعلوا من قالوا لهم هذه الأوهام أربابا من دون الله فأصبح ماركس ولينين وماوتسى تونج اربابا ولو قلت ذلكلشيوعى لقال لك نحن لا نعبدهم ، ولا رد لنا الا ما رد به سيد الخلق سيدنا رسول الله ،ففى حديث لعدى بن حاتم أورده الترمذى وكأنه اعترض على القول باتخاذ بعض البشر اربابافقال : ما كنا نعبدهم يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم : اما كانوا يحلون لكمويحرمون ، فتأخذون بأقوالهم قال نعم فقال صلى الله عليه وسلم : هو ذاك ، فالرب هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر به وينهى عنه .

واليوم لم يعد المؤمنون بالأديان يتخذون من أى انسان ربا يحلل ويحرم بقدر ما أصبح الملحدون هم الذين يفعلون ، فما أحرى رجال الدين أى دين أن يستجيبوا لداعى القرآن :

مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾
هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾
مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ
بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ
لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ

---

١ — يوحدون الله .

٢ — ولا يشركون به شيئا .

٣ — ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله .

٤ — فان تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون ».

وكما قال الله لنبيه منذ اربعة عشر قرنا فهويقوله للمسلمين اليوم وغدا وبعد غد ، فلتكن هذه دعوتكم لغير المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى فان استجابوا لكم فبها ونعمت أما ان اعرضوا واحجموا فامضوا انتم فى طريقكم ،طرق توحيد الله وعدم الاشراك به وافراده بالألوهية والربوبية معا وهذا هو الاسلام .

« يا اهل الكتاب لم تحاجون فى ابراهيموما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكمبه علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » .

سيدنا ابراهيم ابو الأنبياء :

سيدنا ابراهيم عليه السلام هو ابو الأنبياء ، انبياء بنى اسرائيل الذين ظلوا يتسلسلون حتى انتهوا الى المسيح وقد روى القرآن اهتداءسيدنا ابراهيم الى التوحيد منذ صباه ، ثم حدثنا عن أولاده ، اسحق فيعقوب فيوسف ومجيء بنى اسرائيل الى مصر وقد كانوا لا يزيدون عن أسرة اسرائيل » الذى هو يعقوب وتكاثر بنو اسرائيل فى مصر وكان من شأنهم ما كان ، الى أن بعث الله من بين صفوفهم سيدنا موسى وهاجر باليهودمن مصر قاصدا فلسطين ، وفى فلسطين لم يوجد لهم ملك الاخلال بضع عشرات من السنين ،انقسموا بعدها الى دولتين يناصبان بعضهما

العداء حتى افنيا بعضيهما ، وقد بقى منهم قسم وقع فى حكم الرومان ومن هذا القسم ظهر المسيح عليه السلام ، وبظهوره انتهى هذا النوع من الانبياء والرسل من فرع سيدنا اسحق وابنه يعقوب من بعده .

اسماعيل بن ابراهيم :

وحيث كان هذا الفرع من ابناء سيدنا ابراهيم يأخذ طريقه ، كان سيدنا ابراهيم « على ما تحدثنا به كتب اليهود بالذات » قد تزوج هاجر المصرية ورزق منها باسماعيل ، وجاء ابراهيم بزوجته هاجر المصرية وابنه منها « اسماعيل » الى بلاد الحجاز ، وتركهما فى هذه البلاد لتتحقق بذلك مشيئة الله فى ان تقوم الكعبة فى هذه البلاد ، وان ينشأ من نسل اسماعيل فى خاتمة المطاف نبى يكون هو خاتم الأنبياء ولا يكون كأولاد اسحق انبياء لبنى اسرائيل ولكن ليكون للبشر كافة الى أبد الآبدين وذلكم هو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

دين ابراهيم :

ولقد عرضنا لك هذا التاريخ لتتضح لك ابعاد هذا الحوار ، نقد كان هناك اجماع على أيام سيدنا محمد على ابوة سيدنا ابراهيم وعلى اجلاله واحترامه ، فالمشركون من عبدة الأوثان كانوا يزعمون انهم على دين ابراهيم ، وكان اليهود يزعمون أن ابراهيم كان يدين بالتوراة كما يفهمونها ويطبقونها ، فى ذات الوقت كان النصارى يقولون : بل كان ابراهيم نصرانيا ويطبقونها فانظر يا رعاك الله كيف يواجه القرآن كل هذه الأقاويل أو بالأحرى التخرصات .

يا اهل الكتاب : وهم هنا اليهود والنصارى .

لم تحاجون فى ابراهيم : أى لم تجادلون وتتقولون على ابراهيم ويزعم اليهود أنه كان يهوديا ، والنصارى أنه كان نصرانيا .

« وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده »

مع ان التوراة التى جعلت اليهود يهودا والانجيل الذى جعل النصارى نصارى قد انزلا من بعد ابراهيم ، فكيف يكون المتقدم تابعا لشىء لم يوجد بعد .

الصهيونية واليهودية : وتظهرنا هذه الآية على التضليل الذى حاولت به الصهيونية أن تغرق به العالم فى غفلة من الزمان فزعمت أن اليهودية قومية وليست دينا ، وها هو القرآن الكريم يكذبهم ولذلك فسيكون مآلهم الخزى والعار ، شأن أى كاذب اثيم . وقد هبت اليوم بعض عناصر يهودية تدحض زعم الصهيونية فتعلن أن اليهودية دين ، وليست قومية .

أفلا تعقلون :

وتنتهى الآية الكريمة بما يعد سمة القرآن من حيث هو معجزة عقلية فهو دعوة مستمرة من أوله الى آخره لاستعمال العقل البشرى فيما خلق من اجله ، وهو التفكير المنظم لفهم الحياة

والكون وكل ما يتصل بهما ، ذلك أنه من خلال الفكر والتدبر يصل الانسان حتما الى الخالق الواحد المدبر المهيمن القادر على كل شيء وهو بكل شيء عليم .

« ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وانتم لا تعلمون ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان المشركين » .

ويمضي القرآن الكريم بعد ان افحم اهل الكتاب يقرعهم ويسجل عليهم الزيغ فيقول لهم اذا كنتم جهلاء بما بين أيديكم من العلم فأنتم عماليس فى ايديكم اجهل ، فاذا كنتم قد زعمتم على رغم الحقائق التاريخية المتوفرة بين ايديكم مازعمتم ، فلا يحق لكم ولا يليق ان تنكروا علما لا تعلمونه وهو هذا الوحى الذى أنزل على سيدنا محمد متمثلا فى هذا القرآن الكريم « والله يعلم وانتم لا تعلمون » ونفى الله سبحانه وتعالى نفيا قاطعا ونافيا عن سيدنا ابراهيم أنه كان يهوديا او نصرانيا أو كان من المشركين « كما زعمت قريش » .

« ولكن كان حنيفا مسلما » .

حنيفا : من الحنف وهو الميل لغة ويصبح معنى حنيفا من حيث اللغة اى المائل عن الباطل وكل ما هو زائف وباطل ولكن الكلمة أصبحت لها معنى ومدلول اسلامى ، عبرت عنه كل آيات القرآن ابتداء من هذه الآية ، حيث وصفت سيدنا ابراهيم بأنه « حنيفا مسلما » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « بعثت بالحنيفية السمحاء » فأصبح دين سيدنا ابراهيم هو هذه الحنيفية السمحاء ، وهى جوهر الاديان والرسالات المستكنة فى الفطرة السليمة . قبل ان تشوبها الشوائب وتفسدها الانحرافات .

« ان اولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » .

وكما قطع القرآن الكريم من قبل : ان ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولم يكن من المشركين فها هو ذا يقطع بأن أحق الناس بالانتساب الى شريعته هم هؤلاء الذين اتبعوه فى حياته وبعد مماته لا يحيدون عن تعاليمه فى التوحيد الخالص .

وهذا النبى : اى سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام والذى أعاد للتوحيد صفاءه وحارب الأوثان والشرك فى كل صوره .

والذين آمنوا : اى كل من آمن بسيدنا محمد ورسالته فى التوحيد .

ما يدور اليوم فى مدينة الخليل :

ولقد عكست تفسيرات القرآن الكريم على مر العصور ملامح عصرها ونرجو ان لا يشذ تفسيرنا عن هذه القاعدة ، ففى ايامنا الحاضرة ،يزعم الصهاينة الذين استولوا على بيت المقدس وكل ما يحيط به بما فى ذلك مدينة الخليل حيث دفن سيدنا ابراهيم ، يزعمون أنهم أصحاب الحق باعتبارهم يهودا فى التمسك بالحرم الابراهيمى وهاهو القرآن الكريم يكذب دعواهم ، ويقول

وقوله الحق الذى يعلو ولا يعلى عليه ان المسلمين الذين آمنوا بسيدنا محمد هم أولى الناس بابراهيم .

« والله ولى المؤمنين »

وسوف ينصر الله سبحانه وتعالى المسلمين المؤمنين ، وان غدا لناظره قريب .

عودة للتحدث عن اليهود :

التعبير بأهل الكتاب ينطبق على اليهود والنصارى وغيرهم ممن يعلم بهم الله من أصحاب الكتب التى لا نعلمها « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك » والسياق هو الذى يدل على أن أهل الكتاب هم المقصودون بالحديث ، ولقد كان من الواضح أن الحديث فى الآيات السابقة كان موجها للنصارى ودحض آرائهم ومعتقداتهم بالنسبة لشخص المسيح عيسى بن مريم ، وقد قدمنا أن الأخبار تكاد تجمع على أن الحوار مع النصارى كان بمناسبة مقدم وفد نجران المسيحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانصرف الوفد عائدا الى بلاده ، وعاد النزاع بين اليهود الذين كانوا يقيمون بصفة دائمة فى المدينة وحولها وكانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين ، ومن هنا فان السياق بدأ يشير الى أن الحديث وان ظل على عموم معناه «بطبيعة الحال» ولكنه موجه نحو اليهود وطبيعتهم وخصائصهم ودسائسهم .

محاولة تضليل البشرية دائما :

« ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ».

ودت بمعنى : رغبت وأحبت وتمنت لو يضلونكم أيها المؤمنون فهذا ديدنهم وهذا طبعهم، ولقد تحدثنا طويلا عن اليهود وطبائعهم فى تفسير سورة البقرة ، وهاهو الحديث يتكرر فى سورة آل عمران ، ونحن نعلم أن القرآن الكريم كان ينزل منجما بحسب المناسبات وعلى مر السنين، وهكذا نستدل على أن اليهود واصلوا موقفهم من رسول الله ومن الاسلام ، وهو موقف العدو المخرب ، والذى لا يعادى مواجهة ومباشرة ولكنه يلف ويدور ويناور كما ستحدثنا الآيات وسنعرض له فى حينه .

الرغبة الدائمة فى الافساد والتخريب :

ولاشك أن ما جعل اليهود ينفردون فى رغبتهم الدائمة فى الافساد والتخريب وما عبر عنه القرآن الكريم بـ « الاضلال » لأن اخراج المؤمنين من هدى التوحيد ونوره الى ظلام الشرك وجحيم الوثنية ، أقول انما يرجع ذلك الى تصورهم أنهم هم الناس ومن عداهم فليسوا بأناس وهم لا يستطيعون الحياة الناجحة والازدهار الا وسط الانحلال والفوضى الخلقية ، وانعدام القيم الانسانية والروحية الثابتة ، فلا الفرصة تتاح لواحد منهم حتى تراه يخرج بالنظريات المخربة الهدامة لكل ما تعارف عليه البشر من قيم خلقية وانسانية وروحية وحسبنا أن نشير فى تاريخنا

المعاصر الى « فرويد وماركس » مما تحدثنا عنه سابقا ، وقد نعود اليه ، والمهم ان الرغبة فى الاضلال ، جزء من طبيعة اليهود .

الضلال : لغة الخفاء والغيبوبة والنسيان والضياع ، واصطلاحا هو الخروج عن الهدى والاستقامة .

« وما يضلون الا انفسهم وما يشعرون »

اى أن اليهود وهم يحاولون تضليل الناس لا يزيدون عن كونهم يمعنون هم فى الضلالة حيث لا يتأثر بهم الا اقل من القليل والفترة زمنية محدودة حيث يظلون فى عمايتهم وضلالهم سادرين .

وما يشعرون : اى غير مدركين لما يتخبطون فيه .

وقد قيل فى اسباب النزول أن يهود المدينة حاولوا بالفعل دعوة « حذيفة وعمارا ومعاذا » من صحابة رسول الله الى اعتناق اليهودية .

« يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون »

وها هو القرآن الكريم يدمغ يهود المدينة على أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يجحدون بالتوراة بين أيديهم وهى تحدثهم عن نبى من بنى اسماعيل ، وقد كانوا على ما قدمنا فى تفسير سورة البقرة يستظهرون على عرب المدينة « الأوس والخزرج » ويقولون لهم « لقد أظلنا خروج نبى نتبعه ونقاتلكم تحت لوائه وننتصر عليكم » هذا ما كان اليهود يقولونه ويكررونه فلما أن بعث سيدنا محمد بالفعل وقامت « الآيات البينات » على نبوته ، وقد كان مجرد نجاح سيدنا محمد فى الهجرة من مكة الى المدينة وقريش كلها قد وقفت بالمرصاد لتحول دون ذلك ، حتى لقد حاصرت بيته لتقتله ، نقول ان معجزة الهجرة وحدها كانت تكفى لاقناع اليهود ان سيدنا محمد هو النبى المنتظر ، فكيف وقد تلى ذلك معجزة اكبر وهى انتصاره فى غزوة بدر ، ولكن لعل تيقن اليهود من نبوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هو الذى دعاهم للكفر بها من باب الحسد والحقد ولذلك فقد سجل عليهم القرآن الكريم سوء القصد بقوله « وانتم تشهدون » وسيعبر عنها فى الآية القادمة بقوله : « وانتم تعلمون » .

ويرى أشياخنا مفسرو « الوسيط » من علماء الأزهر ، أن الحديث لايزال موجها للنصارى ، وقد قدمنا فى مستهل حديثنا ان « اهل الكتاب » يشمل النصارى واليهود ، والله تعالى اعلم .

تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟
إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ
ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾
* وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ
عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

« يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » .

تلبسون : اى تخلطون .

غنى عن البيان ان اليهود كانوا يتمسكون ببعض الحق ليردوا دعوة رسول الله للاسلام كأن يتساءلوا مثلا « هل التوراة من عند الله ام لا » فيكون الرد « هى من عند الله طبعا » فيسارعون بأن يشيدوا على هذه الحقيقة باطلا وهو قولهم : « ان الله لم ينزل بعدها شيئا . وهذا باطل اليهود فقد انزل الله بعد ذلك « الانجيل والقرآن » ، وقد حوت التوراة كما احتوى الانجيل البشارة بسيدنا محمد وكان اليهود يصرحون بذلك كما قدمنا ، ولكنهم بداوا يكتمون هذا الحق .

وانتم تعلمون : هو تكرار لمعنى « وانتم تشهدون » اى انكم سيئوا النية والقصد فى هذا الذى تفعلونه من كتمان الحقيقة وخلط ما هو حق بما هو باطل وزائف .

« وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى انزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » .

وجه النهار : اى ذات النهار تقول « وجه الله اى ذات الله ، ولكنها هنا تفيد معنى » أول النهار ، وذلك مستفاد من المعنى المقابل فى الآية « واكفروا آخره » فاصبح « وجه النهار » يعنى اوله .

والآية الكريمة تشير الى احد اساليب اليهود التى الفوها وبرعوا فيها للافساد والتخريب ، وعلى رأس ذلك استخدام الأساليب النفسية ، فاذا اشتهر شخص او جماعة بانهم منكرون على طول الخط ومعارضون وساخطون فسرعان ما تقل فاعليتهم ويسقط اعتبارهم وتخرجهم الجماعة من حسابها ، كما يحدث اليوم لما نسميه « جبهة الرفض » فلا يكلف احد نفسه مؤونة النظر فى كلامهم باعتبارهم رافضين فى كل الأحوال ، هذه العقبة النفسية هى التى أراد اليهود على

أيام نزول القرآن أن يتخطوها ، ليظلوا محتفظين ولو ببعض سلطانهم فى المدينـــة ، فقال بعضهم « على ما يحكى القرآن » .

«آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره » أى تظاهروا بأنكم آمنتم بما آمن به بقية المؤمنين ، وبهذا يحتفظون بمكانتهم وحسن تقديرهم واخلاصهم وانهم حقا وصدقا اهل العلم واصحاب الكتاب .

« واكفروا آخـــره لعلهم يرجعون » وتمضى المؤامرة المخططة وكأنها تقول : حتى اذا استتب الرأى فيـــكم ، وانكم أنتـــم أهـــل المعـــرفة والاخلاص ، فأعلنوا كفركم بما انزل على الذين آمنوا ، لأن هذا سيكون معناه أنكم لم تترددوا فى أن تؤمنوا بما آمن به الناس . ولكنكم بعد أن عدتم لكتبكم ولعلمائكم ثبت لكم زيف وبطلان ما آمنتم به فلم تترددوا لحظة فى اعلان كفركم بما سبق أن آمنتم به .

لعلهم يرجعون ، وما من شـــك فى أن هذا الأسلوب ادعى لاثارة البلبلة والقلق فى نفوس بعض ضعاف المؤمنين ، وهم الذين أمل اليهود فيهم ، ان يعدلوا عن الايمان « لعلهم يرجعون » وصدق الله العظيم ، فنحن نرى حتى اليـــوم اليهود يتظاهرون بأنهم قبلوا هذا الشىء أو ذاك، ثم يعلنون رفضه بحجة أو بأخرى ، والحقيقـــة انهم رافضون منذ البداية ولكنهم يرون فى مناورة الرفض بعد القبول ما يحقق أغراضهم .

« ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

كلام كثير ، كثير ..

وبالرغم من أن القول واضح كل الوضوح تكرر من قبل فى سورة البقرة .

« واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم . بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون » فأنت ترى أن اليهود يحذر بعضهم بعضـــا ان لا يقولوا للمؤمنين ما يمكن أن يحتج به عليهم أمام الله كأن يقولوا للمؤمنين بعض ماجـــاء فى كتابهم مبشرا بسيدنا محمد لئلا يحتج به عليهم أمام الله ، ذلك أن اليهود كانوا يدعون أن النبوة محصورة فيهم لا تخرج عن نطاقهم ، وكان القرآن يرد عليهم بأن النبوة فضل من الله يؤتيه لمن يشاء ، وهذا هو المعنى الذى يفهمه كل من يقرأ الآية ، ومع ذلك فلشدة ولع بعض المفسرين بالنحو وتفريعات النحو ، راحوا يقولون كلاما وكلاما كثيرا حول هذه الآية ، واين ينتهى الكلام عن اليهود واين يبدأ القول لسيدنا محمد ويركب بعضهم فى ذلك متن الشطط ، وينقله عنهم تفسير المنار اذ يقول :

« قال النيسابورى فان قيل كيف وقع قوله « قل ان الهدى هدى الله » بين جزئى كلام واحد وهذا لا يليق بكلام الفصحاء قلت : قال القفال يحتمل ان يكون هـــذا .. الى آخـــره اى ان النيسابورى حكم على سياق تعبير قرآنى أنه قد يبدو غير لائق بكلام الفصحاء ثم يشرح لنـــا أن الأمر ليس كذلك على ما قال القفال .

ونحن ما كنا لنحفل بهذه القضية لولا أنهاوردت فى تفسير حديث متداول ، ولرغبتنا من ناحية أخرى أن نشجب تحكيم كائن من كان فى تقرير فصاحة القرآن وبلاغته ، فمنذ نزل القرآن وقد أصبح هو الأصل الذى يقاس عليه ، لا أن يقاس القرآن بكلام ما يقال عنهم فصحاء ، فالدنيا كلها لا تعرف العربية الا من خلال القرآن، ومن المتفق عليه ان الأدب العربى والشعر العربى بعد نزول القرآن قد أصبح لهما طابعهما الاسلامى، فلسنا نعرف ما هى هذه القاعدة التى تحدد أركان الفصاحة التى يشير اليها « النيسابورى » والذى نعرفه أن المتكلم أى متكلم ينتقل من موضوع حاضر الى آخر غائب ، ومن توجيه القول من المخاطب الى المتكلم ، والعبرة فى كل ذلك بنية المتكلم ، ولا يجب أن يغيب عن البال لحظة أن القرآن الكريم كان يذاع وينقل عن طريق النطق الذى يكفى فيه « تلوين الصوت » ليفهم على الفور حقيقة المقصود ، فليس بمقبول أن تتلمس التأويلات والتفاسير للتوصل الى أن بعض آيات القرآن لم تخرج على ما تقضى به (الفصاحة) وبعد هذه الملاحظة التى ضاق بها صدرنا ونحن نتابع مختلف التفسيرات التى اغرقت فى الابهام والتعقيد ، نقول وبالله التوفيق .

« ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم » : كلام اليهود لبعضهم ان لا يؤمنوا ، اى لا يصدقوا ولا يثقوا ولا يتابعوا الا من كان يهوديا مثلهم .

قل ان الهدى هدى الله : واضح أن الجملة اعتراضية ، تعلق على قول اليهود ، أن موضوع الهداية كله من أوله الى آخره بيد الله عز وجل، ولن ينفع فيه تحذير المحذرين .

« ان يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عندربكم » : ما فهمناه نحن من هذا القول وما فهمه الكثير من المفسرين قبلنا ، ان الكلام قد عاد بعد الجملة الاعتراضية « قل ان الهدى هدى الله » الى متابعة أقوال اليهود محذرين بعضهم ، ان لا يصدقوا من لم يكن يهوديا ، فى قوله أنه انزل عليه كما انزل على موسى « أن يؤتى احد مثل ما أوتيتم » « أو يحاجوكم عند ربكم » وقد سبق وقدمنا أن اليهود قالوا نفس العبارة فى سورة البقرة يحذرون به بعضهم أن لا يقولوا للمؤمنين اقوالا تؤخذ عليهم حجة .

« قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » :

تتجلى الآية لنا بكل وضوح بفصل بين مايقوله اليهود وبين ما يقوله الله سبحانه وتعالى لنبيه اذ يسبقه دائما بالفعل « قل » .

— قل ان الهدى هدى الله .
— قل ان الفضل بيد الله .

اى أن كلام الله لنبيه قد سبق فى كلتا المرتين بلفظ « قل » .

ويبقى بعد ذلك كلمات « ان يؤتى أحد مثل ما واتيتم » فعندما يقول الله سبحانه لنبيه « قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » فاننا نفهم من هذا أنه يرد على ادعاء اليهود « أن يؤتى احد مثل ما أوتيتم » .

« والله واسع عليم » : اى أن فضله لا تحده حدود ولا يضيق ليقتصر على اليهود ولكنه واسع يسبغه على من يشاء من عباده وهو « عليم » يعلم لماذا يصطفى ويختار من عباده هذا الشخص أو ذاك ليضفى عليه فضله .

« يختص برحمته من يشاء » : ويكرر القرآن المعنى ويؤكده ويعمقه،فقد كانت قضية القضايا عند اليهود انهم هم وحدهم شعب الله المختار وأن النبوة لا تكون فيهم ، فيرد القرآن انكم متى آمنتم بأن الله قادر على كل شيء وأنه مريد فعـــال لا قيد يعلو على مشيئته فقد وجب التسليم بأنه « يختص برحمته » أى بنفحاته وكرمه وفضـــله « من يشاء » .

« والله ذو الفضل العظيم » : ولما كانت النبوة فضلا من الله فيكون من التدخل فى مشيئة الله حصر هذا الفضل على انسان أو جماعة او شعب من الشعوب ويكون هذا التدخل فى مشيئة الله نوعا من الكفر والعياذ بالله .

والمؤمن بالله لا يكون مؤمنا الا اذا آمن بأن فضل الله بلا حدود او سدود او قيود .

« ومن اهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينـــار لا يؤده اليك الا مادمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين ســبيل ويقولون على الله الـــكذب وهم يعلمون » .

احد أسرار انتشار الاسلام :

نصل مع هذه الآية الى أحد أسرار انتشـــار الاسلام هذا الانتشـــار العجيب وحقا أن ذلك قد تم بقدرة الله التى لا يحدها حد ، ولكن شاء الله أن يجعل لكل شيء فى هذه سببا ومن هنا كان باستطاعتنا أن نتلمس سبب نجاح الاسلام ، هذا النجاح الذى يذهل اعداءه قبل أصدقائه ، ولطالما أشرنا الى أن ما انطوى عليه الاسلام من توحيد صارم وناصع للألوهية وتسويته بين البشر على اختلاف أجناســهم وقومياتهم وألوانهم ، وأنه بحسب أى انسان أن يعتنق الاسلام كى يصبح على الفور أخا لأى مسلم آخر ، أيا كان لونه أو مركزه « انما المؤمنون اخوة » ولكى تتحـــدد مكانته عند الله بالتقوى « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » هذه من غير شـــك بعض الأســـباب « الظاهرة » لانتشار الاسلام ، وهو انتشـــار لا يتوقف ابدا .

التعايش مع أهل الكتاب :

وفى هذه الآية التى نحن بصددها نضع أيدينا كما قدمنا على أحد هذه الأسباب ، وهو تعايشه مع الأديان الأخرى ، وحث معتنقيهـــا على أن يتحلوا بالخير الذى تدعوهم اليه أديانهم ، فما من دين الا وهو يدعو للأمانة ويحذر وينذر من خيانة الأمانة . والقرآن الكريم لا يجرد غير المسلمين من الأمانة بل يقرر أن فيهم الأمين وغير الأمين ، وأن الله سبحانه وتعالى يحب الأمين ، ولا يضيع أجر من أحسن عملا ، أى عمل ، واقرأوا ان شئتم «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

« ومن أهل الكتاب من أن تأمنه بقنطار يؤده اليـــك » .

ها هو التقرير بأنه فى صـــفوف الكتابيين من يصـــل الى الأمانة الى الذروة حتى ليرد الأمانة ولو كانت قنطارا والقنطار هنا يعنى الشيء الكثير جدا بلا حدود ، وقد قدمنا عند تفسير القناطير المقنطرة أن قدر القنطار يختلف بحسب الزمان والمكان ، وقد أشار البعض الى واقعة لعبد الله بن سلام وما وصل اليه من الأمانة ، ومن لطيف ما لاحظناه فى التفاسير القديمة، انه كلما ذكر أهل الكتاب

بخير فى القرآن اشار المفسرون الى عبد الله بن سلام باعتباره هو المقصود بالآية ناسين ان عبد الله بن سلام بمجرد أن دخل فى الاسلام فلم يعدمن أهل الكتاب،وانما أصبح من المسلمين، وعندما يتحدث القرآن عن اهل الكتاب ويطلق الحديث،سيوجد من بينهم الأمناء ، ذروة الأمانة وهو — يعنى أهل الكتاب فى كل زمان ومكان — وأنه ما شاهدناه وجربناه ،وفى تاريخ مصر القريب اى منذ سبعين أو ثمانين سنة فقط كان أغنياء المصريين يختارون كتبة حساباتهم من الاقباط « وهم من أهل الكتاب » وذلك لأمانتهم فعندمايصف القرآن الكريم بعض أهل الكتاب بالأمانة كما يصف بعضهم بالتعبد والتبتل : « من أهل الكتاب أمة قائمة » . فيجب أن نقول دائما صدق الله العظيم ، ويكون محاولة بعض القدامى للاشارة ذاتها لعبد الله بن سلام باعتباره هو المقصود بالآية هو تخصيص بغير مخصص ، وفيه محاولة لتجاوز مقاصد القرآن الكريم وهو الثناء المطلق على بعض أهل الكتاب فى كل زمان ومكان« ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا مادمت عليه قائما » .

وكما يوجد فى أهل الكتاب الثقة الأمين فهم كبقية البشر فيهم غير الأمين والمراوغ ومن يأكل حقوق الناس اذا استطاع الى ذلك سبيلا ،ويصور القرآن ذلك كله فى انه لو كان لك دينار عند كتابى فلن تستطيع ان تستخلصه منه الا بعدمعاناة ودأب ومتابعة والحاح ، وقل ما شئت من أوصاف ونعوت فذلك كله يدخل تحت تعبير « الا مادمت عليه قائما » . وكما قلنا فى كلمة « قنطار » انها تعنى الكثير بلا حدود ، فان كلمة دينار هنا ، تعنى القليل بلا حدود كذلك ، وكما ترمز للقليل فهى ترمز اليه من اى نوع كان ،اى ليس شرطا أن تكون الوديعة مالا ، والمهم أن الآية تقرر أنه يوجد بين الكتابيين ، الأمين بلا حدود ، ومن ليس كذلك .

فائدة لغوية

ونريد هنا ان نلفت النظر بمناسبة ورود كلمة « دينار » فى الآية الى موضوع شغل الأذهان يوما ما ، يتصل بتعريب الكلمات ، فقد تصور أقوام أنه يجب لكى تنقل اى كلمة الى اللغة العربية ، ان يبحث لها عن تعبير « عربى »كأن يقال عن التليفزيون مثلا « المرآة » أو الاذاعة المرئية ، تصورا منهم أن الكلمة لا تكون عربية الا بذلك ، وهذا وهم ، فمتى نطق العربى بأى كلمة وادخلها فى حديثه وأعربها ، فقد أصبحت عربية ، فهاهى كلمة « دينار » ليست عربية على وجه القطع واليقين فلم يكن العرب صناع هذه النقود الذهبية والفضية التى يجرى التعامل بها ، وانما وجدها العرب باسم الدرهم والدينار فاستعملاهما ولازالت كلمة « دراخما » اليونانية تذكر بأصل كلمة « درهم » .

والمهم أن القرآن الكريم قد استعمل كلمة دينار كما استعمل كلمة سندس واستبرق وغيرها وغيرها .

وقد صاغ « ابن جنى » من أعظم علماء اللغة فى عصور الاسلام الأولى الأمر كله فى قاعدة عامة فقال :

اذا قلت :

« طاب الخشكنان » « نوع طعام فارس » فهذا من العربية لأنك باعرابك اياه فقد أصبح من العربية .فليهون على أنفسهم هؤلاء الذين يتصورون أنهم يعتدون على اللغة العربية اذا

هم استعملوا لفظا أجنبيا ، وكل المطلوب منهم أن يكتبوه بحروف عربية وان ينطقوا به طبقـا لقواعد الاعراب .

« ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

ويزعم اليهود فى كل زمان ومكان انهم وحدهم الناس وأنهم الصفوة وشـعب الله المختار . ابناء الله وأحباؤه فعندما يأمر الدين ويحرم كان يقول لا تسرق ، لا تغدر ، كن أمينا ، فهو يعنى بذلك اليهود فيما بينهم ، أما فيما بين اليهودى وغير اليهودى فكل شىء مباح ولليهودى أن يسرق أو ينهب الآخرين اذا استطاع الى ذلك سبيلا ،ومن طبيعـة الحال أنهم صـاغوا هذا الافك فى هذا الكتاب الذى صـنعوه واعتبروه مقدسـا « العهد القديم » فزعموا أن الرب طلب من بنى اسرائيل عشـية خروجهم من مصر أن يستعيروا اقصى ما يستطيعون استعارته من المصريين من حلى وأوانى ذهبية أو فضـية أو ملابس ثمينة ليخرجوا بها من مصر ، وهكذا نسبوا الى الله سبحانه وتعالى انه أمرهم أمرا بسرقة المصريين وخداعهم وخيانتهم ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، فما كان الله ليأمر بالسوء والفحشاء ، وجعل اليهود من هذه الفرية التى افتروها على الله مذهبهم وهو أن الوصايا العشر « لا تسرق ، لاتزنى .. الى آخره هذه خاصة بهم وليست للتعامل مع غير اليهود ، ولا يظن ظان أننا نتجنى على اليهود ونلقى الكلام على عواهنه ، فقد نهى اليهود عن التعامل بالربا حيث هم ملوك التعامل بالربا فى كل زمان ومكان ، تطبيقا لهذه القاعدة فالنهى الوارد على الربا انما يقصد به تعامل اليهود فيما بينهم ، وليس فيما بينهم وبين بقية شعوب العالم وهذا ما كانوا يقولونه بالنسـبة للعرب الذين يعيشون بين ظهرانيهم « ليس علينا فى الأميين سبيل » .

ويدمغهم الله سبحانه بكفرهم وانهم يكذبون على الله « ويقولون على الله الـكذب وهـم يعلمون» أى يعلمون أنهم يكذبون على الله فليحذر أى مسـلم من أن يقع فى هذه الخطيئة المهلكة ، خطيئة التصور أن الأمانة واجبة فقط مع من هم من دين الانسان ، فعندما يقول الله سبحانه وتعالى « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات » فهو جامع شامل يشمل الناس جميعا وما أعظم حضارة شعبنا عندما يقول فى أمثلته السائرة « من امنك لا تخنه ولو كنت خائن » أى حتى ولو كانت الخيانة صفة ملازمة لك فيجب أن تستثنى من أمن لك .

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ
لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾
وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ
ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ
وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ
تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾
وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ

« بلى من أوفى بعهده واتقى فان الله يحب المتقين » « بلى » جاءت لاثبات ما نفوه « ليس علينا فى الأميين سبيل » فيقول القرآن الكريم لهم « لا ليس القول كما زعمتم » فالأمانة لا تتجزأ والتقوى لا تتجزأ فالامين أمين دائمـا وفى كل أحواله ، والتقى الذى يخشى الله ويخافه لايمكن الا أن يكون تقيا فى كل الأحوال .

ويقرر الله سبحانه وتعالى سنته الحقـة العادلة بأنه يحب الوفاء بالعهد ، ويحب كل من يخشاه ويتقيه ، فالوفاء بالعهد فيه انصياع لأمره « وأوفوا بالعهود » « وأوفوا بالعهد أن العهد كان مسئولا » فكل وفاء بالعهد وأداء للامانة من كائن من كان أمر يحبه الله سبحانه وتعالى كما يحب كل من اتقى .

وكم أعجبنا ما جاء فى تفسير الوسيط لأشياخنا من قرار قاطع :

فلا يحل لمسلم ان يخون احدا ولو خالف فى الدين ، كما لا يصح للمسلم ان يتصف بالخيانة مع من خانه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أد الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك » . رواه البخارى . قال تعالى « فى سورة المائدة » « ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى » .

ومرة أخرى نشكر أشياخنا من علماء الأزهر فما أحوج الناس فى هذه الأيام التى اختلط فيها الحابل بالنابل بهذه التوجيهات القاطعة السديدة.

« ان الذين يشترون بعهد الله وايمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم » .

فى هذه الآية الكريمة ينذر الله سبحانه وتعالى من يشترون ، أى يبيعون عهد الله ويستبدلونه

بأى ثمن من الاثمان مهما كبر هذا الثمن وعظم وغلا ، ومن اهدار عهد الله « الحنث بالايمان » والحلف والقسم كذبا على أمر من الأمور ، ينذر الله سبحانه وتعالى من يرتكب هذه الكبيرة :

١ — ان اى ثمن يتقاضاه فالله يصفه بأنه قليل اى نتيجة الخسارة لهم والبوار فى الدنيا .

٢ — لاخلاق لهم فى الآخرة ، اى لا نصيب من خيرها .

٣ — لايكلمهم الله .

٤ — ولا ينظر اليهم .

٥ — ولا يزكيهم : اى لا يطهرهم .

٦ — ولهم عذاب اليم .

وذلك كله يعنى انهم مطرودون من رحمة الله، محرومون من الجنة ، فكلام الله ونظرته تعبير مجازى عن عدم رضاء الله واعراضه الشـــديد عن الناكثين بالعهد والذين يحنثون بأيمانهم ، او يكذبون فيها .

سبب النزول :

وقد اتفقت كتب الحديث الستة ، ان سبب نزول هذه الآية مارواه ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« من حلف على يمين هو فيهـــا فاجر ليقطع بها حق أمرىء مسلم ، لقى الله وهو عليه غضبان» .

فقال الأشعث بن قيس : فى والله كان ذلك، كان بينى وبين رجل من اليهود ارض فجحدنى، فقدمته الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم الك بينة ، قلت لا فقال لليهودى « احلف » فانزل الله تعالى « ان الذين يشترون » ... الآية . وذكر ابن جرير نقلا عن عكرمة ، ان الآية نزلت فى اقوام من اليهود ، حرفوا وبدلوا فى احكام التوراة فى مقابل رشوة ، وقيل فى اسباب النزول وقائع لا تخرج عن هذا المعنى ولا تعارض بينها، ويكمل بعضها بعضا ، وليس شرطـــا ان تنزل الآية بسبب حادث واحد معين ، وقد تنزل لتعالج ظاهرة تكررت ، والمهم كما نقول دائما ان الآية تقرر حكما عاما فى كل زمان ومكان تحذر وتنذر باشد العقاب الناكث بالعهد ، وبالحالف كذبـــا وبمن ينسب الى الله ما الله برىء منه قال الله تعالى : « فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وســـلم :« آية المنافق ثلاث . اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا أؤتمن خان » وفى رواية لمسلم وان صام وصلى وزعم انه مسلم وفى رواية للشيخين « البخارى ومسلم » واذا عاهد غدر » .

وروى آخرون وعلى راسهم احمد عن انس رضى الله عنه قال : ما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الا وقال : « لا ايمان لمن لا امانة له ولا دين لمن لا عهد له » .

فليتدبر ابناؤنا من الشباب الذين يريدون الخير لأنفسهم فى الدنيا والآخرة ، ولشـــعوبهم طريق النجاح والفلاح ، وليكونوا على ثقة ان اوربا والغرب اذا كانوا قد نجحوا فى يوم من الأيام

وعزوا وسادوا فلأنهم تخلقوا بهذه الاخــلاق حيث انصرف عنها كثير من المسلمين متصورين أن الدين كل الدين هو فى أن يصلوا « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له ، وأى منكر أفحش من الكذب والخيانة والنكث بالعهد .

« وأن منهم لفريقا يلوون الســـنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

« يلوون السنتهم » اللوى لغة الميل ، تقول لوى عنقه أى أماله الى هذا الجانب أو ذاك ، ولكن اللفظ هنا يصف واقعة كان يفعلها اليهود ليخرجوا بالتوراة عن المعنى المقصود ومن هنا فقد يكون سبيلهم الى ذلك بالحذف أو الادغام ، أو الهمهمة والغمغمة وكلها أســـاليب يراد بها التمويه لما ذكرت الآية انه هو المقصود .

« لتحسبوه من الكتاب وما هو من الـــكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله » .

وقد تكرر وصف ما يفعله اليهود فى سورة النساء : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم » .

وهذا نص فى القرآن على أنهم كانوا يقولون على سبيل المثال كلمة « راعنا » بدلا من انظر الينا ، ان كلمة راعنا عندما ينطقون بها بأسلوب ما ، فانها تعنى أمرا كريها ، وفى حديث نقل عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن بعض اليهـــود كانوا اذا دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : « السام عليكم » بدعوى أنهم يقولون السلام عليكم وان لهجتهم هى التى جعلتها تبدو كما لو كانت « السام » والســـام بلغتهم تعنى الموت وهكذا ، فيجب أن نفهم من كلمة « يلوون السنتهم » كل ما يوصل لغرضهم من تحريف بكل وسائل التحريف من حذف واضافة وتغيير وتبديل مادى وليس كما تصور البعض أن ذلك عن طريق التأويل على اللسان « لتحسبوه من الكتاب » هو عمل مادى بحت .

ولقد تصور بعض القدامى ان ما فى يد اليهود والنصارى هو عين ما انزل على موسى وعيسى فقالوا أن تحريفه جاء عن طريق التأويل وليس الحذف والاضافة وقائلوا هذا الكلام معذورون ، فلم يعرف الا أخيرا وبعد طبع الكتب وانتشارها واطلاع غير رجال الكهنوت عليها ، ان ما فى يد اليهود والنصارى ليس هو عين ما نزل على سيدنا موسى وسيدنا عيسى ، وانما هى مؤلفات صاغها أقوام فيما بعد تتضمن بعض ما نزل على موسى وعيسى ووعته بعض الصدور .

« ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »

والخلاصة أن القرآن الكريم يصف ما يفعله اليهود فى كل زمان من كذب بنسبة كل مايفعلونه من شرور وآثام الى الله عز وجل وانهم لا يفعلون أكثر من انهم ينفذون أوامر الله فهم شعبه المختار وأبناؤه وأحباؤه والمهم فى ذلك كله انهم كاذبون ويعلمون أنهم كاذبون وقيام اسرائيل بالاساليب التى قامت عليها « من خلال الحرب والقتال » شاهد على ذلك فكتابهم يقول لهم أن اسرائيل اذا قامت ستقوم عن طريق السلام ، وهـــم يقيمونها على الجماجم وأشلاء القتلى واغتصاب الحقوق زاعمين انهم ينفـــذون أمر الله والله يشهد وهم انفسهم يشهدون انهم لكاذبون « وهم يعلمون » .

« ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله » .

الحكم : المفسرون على أن « الحكم » هنـا تعنى « الحكمة » والحكمة تعنى : اصابة الحق ونحن نرى انهـا يمكن أن تـكون كذلك بمعنى « السلطان » والسلطان كما يكون ماديا فهـو يكون روحيا ، وليس شك أن النبى لـه كل السلطان على اتباعه الصادقين .

والمعنى : انه ماكان لبشر ، وهذا تقرير من الله عز وجل انه لا يصح ولا يجـوز على اى انسان يصطفيه الله ويختصه بكرامة النبـوة والرسالة الى عباده ليرشـدهم الى الطـريق المستقيم المؤدى الى الله ، فيكون قوله للناس هو أن يدعوهم الى عبادته هو من دون الله .

والكلام واضح كفلق الصبح فى أنه رد على من يقول من المسيحيين ان عيسى عليه السلام دعاهم الى عبادته أو ما تقوله بعض طـوائف اليهود من عبادة « عزير » وغير ذلك من أصحاب

العقائد الذين تركوا الدعوة الى الله وعبدوا أصحاب الرسالات ، فالقرآن الكريم يسفه هذا القول ويقضى باستحالته .

« ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله » .

وفى آية أخرى يخص القرآن السيد المسيح بتبرئته من الزعم بأنه دعا الى نفسه باعتباره الهـا يعبد قال تعالى فى سورة المائدة يخاطب السيد المسيح الذى يرد عليه بالجواب الذى يعلمه الله سبحانه قبل أن ينطق به المسـيح، ولكنه سيق على شكل السـؤال والجـواب للتعليم .

« أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله » .

فيرد المسيح بقوله : « سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى » « ما قلت لهم الا ما أمرتنى به ان اعبدوا الله ربى وربكم » .

اسباب النزول :

وقد ذكرت أكثر من رواية عن سبب نزول الآية منها أن بعض النصارى سألوا سيدنا محمدا أيريد ان يعبدوه فأجابهم محمد صلى الله عليه وسلم : « معاذ الله أن نعبد غير الله ، او نأمر بعبادة غيره ، ما بذلك بعثنى وما بذلك أمرنى » وقيل ان بعض المسلمين سألوا سيدنا محمـدا صلى الله عليه وسلم اذا كانوا يسجدون له ، فنزلت الآية ، والمعانى كلها واحدة وان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ولا تكون العبادة الا له ولا يكون السجود الا له .

النجـاح الذى انفرد به الاسـلام وسيدنا محمد :

وينفرد الاسلام وينفرد سيدنا محمـد عليه الصلاة والسلام بهذا النجاح الذى لم يسبقه اليه سابق ولم يلحقه لاحق وهو نجاحه فى حظر عبادته من بعد ذهابه فهو القرآن يقرر أنه لا

يمكن أن يطالب نبى اتباعه بأن يعبدوه ومع ذلك فقد عبد الاتباع النبى فى أغلب الحالات كما هو الشـأن بالنسبة لسيدنا عيسى ، ولعله من المفارقات التى تدل على اضطراد القاعدة ان رجلا مثل «بوذا » جاء يقول للناس « على ما يروونه عنه » لست أعرف شيئا عن الله ولكنى أعرف الكثير عن آلام الانسان » هذا الرجل الذى يقول هذا يعبده الكثيرون من اتباعه باعتباره الله .

وفى روسيا حيث أهدروا كل الغيبيات يعاملون لينين معاملة الارباب فتقف الناس الساعـات الطوال تحت الجليد المتساقط لينعموا بالقاء نظرة على رجل مات منذ خمسين سنة فليعتز كل مسلم بدينه ورسوله الذى كان هو الوحيد « مع تفوقه فى العظمة على أى عظيم » الذى نجح فى صرف الناس عن عبادته بفضـل القرآن الكريم ومايتضمنه من الآيات القاطعة التى هى من نوع الآية التى نحن بصددها .

« ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

ربانييون : منسـوبة الى الرب ، أى كونوا كربكم والرب لغة تقول رب الأسرة ، واصطلاح ربانى يعنى العالم الفقيه الراسخ فى العلم الدينى وقد تكون بمعنى الحكيم التقى ، ولكنها هنا معرفة فى نفس الآية « بما كنتم تعلمون الكتاب وبمـا كنتم تدرسون » .

«ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا »

ويمضى القرآن الكريم ليؤكد استحـالة أن يصطفى الله نبيا من الأنبياء ليبلغ رسالته للناس ان يعبدوا الله وحده فاذا هو يدعوهم لان يعبدوه هو ، ان ذلك مستحيل فلا يمكن لرسول بعثه الله « أن يأمركم أن تتخذوا المـلائكة والنبيـين أربابا » .

ولم نجد فى كل ماطالعناه من أقوال المفسرين لهذه الآية أن المسيحيين يعبدون فيما يعبـدون « روح القدس » وقد أشار القرآن الى جبريل باعتباره روح القدس ، فهو يقررهنا أنه يستحيل أن يأمر رسول بعبادة « الملائكة » وليس جبريل الا بعض الملائـكة ، ولم يكن عيسى بن مريم الا نبيا فيستحيل عليه أن يأمر باتخاذ «النبيين» اربابا .

« أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون » .

ويكشف القرآن الكريم عن وجه الاستحالة فليس معقولا أن يتحول الرسول الى داع الى الكفر .

بعد اذ أنتم مسلمون : أى منقادون للدين الحق وقد بينا فيما سبق وسنعود اليه فى الآيات القادمة أن القرآن الكريم يقرر أن جوهر الايمان فى كل الأديان السماوية واحد وهو « توحيد الالوهية وأفراد الله بالعبادة » وهذا هو الاسلام ، فعندما يقول المسيحيون ان السيد المسيح هـو الذى أمرهم بعبادة « الثالوث » فالقرآن الكريم يرد عليهم بقوله : « أيأمركم بالـكفر بعد اذ أنتم مسلمون » أى مؤمنون موحدون .

« واذ أخذ الله ميثاق النبيين لمـــا آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لمـــا معكم لتؤمنن به ولتنصرنه » .

الفارق بين عهد الرسول والعهود التالية :

انا حريص كل الحرص أن يعود المسلمون الى نضارة الاسلام الأولى كما كانت فى عهد الرسول صلوات اللهعليه وسلامه وان يدعوا «العنعنات» والخـــلافات والتفريعات التى تراكمت على مر السنين ، واختلط فيها الحابل والنابل ، علينا أن نعود الى الكتاب والسنة وفى الفقه الى أقوال الفقهاء الأوائل حيث كانت الفرصـــة أمـــامهم للاغتراف المباشر من القرآن الكريم وكيف فهمه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدكانوا هم أول من خوطب بالقرآن الكريم وكانت لديهم فرصة سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عما قد يكون اشكل عليهم .

اقول ذلك بمناسبة معايشتى الآن معايشـــةكاملة للقرآن الكريم قد جعلتنى أرى النصـــاعة فى معانى الآيات وكيف تترابط وتنسق لتؤكدمعنىثابتا من معانى القرآن ، حيث ارى فى بعض التفاسير جهودا مضنية لتفسير ما هو واضـــحوبين ، فيتحدثون عما حذف وعما اضمر وعن الاحتمالات المتعددة التى يمكن أن يؤدى اليهـــا الكلام ، وعندنا أن ذلك كله لا عناء فيه .

ولذلك فنحن نطالع الآية على ضوء ما سبقهاوما يلحقها ، ولا نقول كمايقول البعض أنالظاهر يفسر على وجه وأن الباطن له وجه آخر .

وحدة الدين :

والمعنى الذى تشير له الآية الكريمة هوماسبق أن أكدته من قبل وما سوف تؤكده من « وحدة الدين » وعلى ضوء ذلك .

« واذ أخذ الله ميثاق النبيين لمـــا آتيتكم من كتاب وحكمة » .

الميثـــاق : العهـــد

لمـــا : للذى .

وحكمة : نبوة .

رأينا أن الآيات الماضية تحدثنا عن استحـــالةانحراف الرسل عن اداء المهمة التى كلفوا بأدائها، ثم تجىء هذه الآية الكريمة لتعلمنا أن اللهسبحانهوتعالى قد أخذ على جميع الأنبياء موثقا « اى عهدا » ويكون السؤال : ما هو مضمون هـــذا الميثاق وتجيب الآية بأنه « لما آتيتكم من كتـــاب وحكمة » اى بالاسلام .

ثم تأتى « فى فهمنا » جملة اعتراضية انتقلفيها القرآن الكريم من الحكاية عن النبيين وما أخذ عليهم من عهد ، الى مخاطبة اتباع بعضهؤلاء الانبيـــاء المعاصرين لنزول القرآن وهى

وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾
فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ
وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾
وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟
بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ

قوله تعـــالى :

« ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه » .

اى ان الدليل على وحدة الدين موضوع الميثاق، هو ان ماجاء به الرسول «وهو هنا سيدنا محمد» مصدق ومطابق لمـــا بين ايديكم « من التـــوراة والانجيل » وهو ما يفرض عليكم الايمـــان به فرضا بل ويفرض عليكم فوق ذلك نصرته ، وبعد هذا الخطاب للمعاصرين تعود الآية الـــكريمة لاكمال ما بدأت الآية بحكايته « وهو اخذ الميثاق على النبيين » .

« قال أأقررتم واخذتم على ذلكم أصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين »

الاقرار : لغة من قر الشيء اذا ثبت وهى هنا بمعنى « قبلتم » .

اصرى : اى عهدى .

اى ان الله سبحانه وتعالى بعد ان اخذ ميثاق الأنبياء تلطف معهم ليعلمنا كيف يكون التعاهد واخذ المواثيق وانه يجب أن يكون عن طواعية ورضا ولذلك سألهم الله تعالى « أقررتم واخذتم على ذلكم أصرى قالوا اقررنا قال فاشهدوا وانا معكم من الشاهدين .

اى فليشهد بعضكم على بعض وانه تعالى على كل شيء شهيد ، وغنى عن البيان ان كل نبى جاء ليعلم قومه واتباعه ما زوده الله به من علم وهو هنا قد وصل الى مرتبة العهد ، فليس الأمر فى حاجة الى جهد خاص ومعاناة لتوجيه الكلام للمعاصرين من اهل الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالتوجه اليهم بالخطاب المباشر من خلال قصة الميثاق واضح كل الوضـــوح فى جملتين واضحتين كفلق الصبح .

الجملة الأولى : قوله تعالى « لمــا آتيتكم من كتاب وحكمة » .

الجملة الثانية : قوله تعالى «ثم جاءكم رسول مصدق لمــا معكم » .

ولذلك فقد ادهشنا ذهاب بعض المفسرين الى أن كلمة «رسول» هنا يجب أن تبقى على عموميتها بمعنى أن لا تخصص بسيدنا محمد صــلى الله عليه وسلم ، حيث القول لايفهم الا على انه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يحاج اليهود والنصارى فى وجوب الايمان به واتباعه .

« فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »

أى فمن اعرض عن هذا الميثاق « الذى هو ماجاء به سيدنا محمد » .

« فأولئك هم الفاسقون » أى الخارجون عن الدين والتقوى .

« أفغير دين الله يبغــون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون» .

دين الله :

قلنا ان هذه الآيات تقرر ان ليس لله سوى دين واحد ، جاء به جميع الأنبياء والرسل ولمــا كان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هو خاتم الأنبياء والرسل فان ماجاء هو « دين الله » حيث يزعم كل من اليهود والنصارى أن مابأيديهم هو الدين الحق وقد وصف القرآن الكريم أن ما بأيديهم قد بدل وحرف وزيد عليه ونقص منه، فما أعجب أن يدعوا كل من هداه الله الى الدين الحق دين الله ان يترك الحق الى الباطل .

« وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون » .

أسلم : أى انقاد ورضخ واستسلم وخضع كل بحسب طبيعته وجبلته .

والآية الكريمة تسبح الله فى ملكوته فتذكر بأنه خالق السموات والأرض وربهما والآمر النــاهى المسيطر المهيمن المدبر العزيز الجبار وان كل « من » فى السموات والأرض رهن مشــيئته ويلاحظ هنا أن الآية الكريمة استعملت الحرف « من وهو يشير الى العاقل بداءة ولكن يدخل فى معناه كل شىء أى عاقل وغير عاقل ، واذن فليصل الانسان الى الكواكب الأخرى ولتــكن مسكونة ببشر أو غير بشر .

فكل ما ومن فى السموات والأرض الا وهو منقاد لله رهن مشيئته « وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » .

« طوعا أو كرها » أى الانقياد لمشــيئة الله نافذ فى كل الأحوال شاء الانسان أو لم يشــأ ، رضى أم سخط ، وفارق ما بين الايمان والكفــر ان المؤمن يتقبل مشيئة الله بالاستسلام والرضا والكافر يتلقاها بالسخط والكره ، ولكن مشيئة الله سبحانه نافذة فى الحالتين .

واليه يرجعون : هذه هى خاتمة المطاف فى جميع الأحوال « وان الى ربك الرجعى » وطالما

حذر القرآن وسيظل يحذر الكافرين والجاحدين والمنحرفين والمجادلين والمشتشقين ، اننا كلنا ميتون فراجعون الى الله فمحاسبون .

« قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

وقد تحدثنا باستفاضة لما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة عندما عرضنا لصنوها وهى الآية رقم « ١٢٦ » من سورة البقرة ، وقبل أن نعيد بايجاز ما قلناه هنـاك نرى أن نثبت أولا آية البقرة :

« قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » .

آيتان متطابقتان :

ونحن نرى تطابقا كاملا فى الآيتين فى المعنى والشكل ، أى فى الألفاظ المستعملة وترتيبها باستثناء استبدال حرف الجر « على » بدلا من « الى » وكلمة « قل » حلت محل « قولوا » والمتفق عليه ان كل قول يوجه للمؤمنين فالرسول واحد منهم « آمن الرسول » وكل خطاب موجه للرسول فهو موجه لسائر المؤمنين الى يوم القيامة الا أن يكون فى الكلام تخصيص فعندما يقول القرآن « قل هو الله أحد » أى قل يا محمد وكل من اعتنق الاسلام الى أبد الآبدين.

« وما أوتى » ثمة فارق بين الآيتين ففى سورة البقرة تكرر فعل الايتاء قبل موسى وعيسى وقبل كلمة النبيين ، أما هنا « آية آل عمران » فقد عطف النبيون على ما قبلها .

وقد حاول البعض أن يستخرج من هذه الفروق البسيطة ، خلافا فى المعنى ، فحرف الى يعنى الغاية وحرف على يعنى الاستعلاء . وعندنا أن الأمر كله هو درس لمن يريد أن يتعلم البلاغة والفصاحة من اسلوب القرآن فهو عندما يريد أن يقرر ويؤكد مبدأ سبق له أن يقرره ، وحتى فى حالة التكرار الذى يراد به التطابق ، فلا مناص من استبدال بعض الألفاظ .

ولكى نبدأ فى استيعاب معنى الآية نرى أن نفصلها بترتيب الألفاظ تحت بعضها .

— قولوا آمنا بالله .

— وما أنزل علينا .

— وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط .

— وما أوتى موسى وعيسى .

— والنبيون .

— من ربهم .

— لا نفرق بين أحد منهم .

— ونحن له مسلمون .

وهكذا نرى أن مجرد سرد الآية بعد تقسيمها الى العبارات التى يؤلفها ، تظهر لنا منطقها فى « وحدة الدين » فما دام المؤمنون جميعا يبدأون من بداية واحدة وهى « الايمان بالله » وأنه يتصل بالبشر عن طريق وحى ينزله على رسله لابلاغه للناس ، فيكون ما أنزل على أى نبى أو رسول « من ربهم » لا يمكن الا أن يكون واحدا ، ومن هنا فنحن الذين نؤمن بآخرهم لا نفرق بين أحد منهم باعتبارهم قد أبلغوا للناس ما أنزل اليهم من ربهم وهو عين ما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى جوهره وهو ما أطلق عليه القرآن الكريم اسم « الاسلام » بمعنى الانقياد لله وطاعته .

وما أصبح اصطلاحا يطلق على ما ابلغه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للناس .

« ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه »

واذا كان جوهر الدين الالهى واحد ، وكان سيدنا محمد هو آخر الرسل وخاتم النبيين فهو وحده الذى يجب أن يتبع ، وتعاليمه هى الأجدر بالتأييد والاعتناق ، لأن كل ما سبقه مما أنزل على الرسل السابقين قد بدل وحرف تبعا للاهواء والشهوات فجاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يصحح ويصوب دين الله الحق ويرفع عن التوحيد ما الم به من غواش ، فعلى كل مؤمن بالله والوحى أن يؤمن بدين الحق كما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو الاسلام ، وكل محاولة بعد مجىء سيدنا محمد ، للانحراف عنه ، فلن يقبله الله ، فليس مؤمنا بالله من يؤمن بأنه أرسل رسولا « ما » ثم ينكر آخر رسول يحمل رسالة من سبقوه من الرسل مطهرة ومصفاة من كل ما يعيبها .

« وهو فى الآخرة من الخاسرين »

ولا يلومن هذا الذى رفض بعد مجىء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن وقف على تعاليم الاسلام ، لا يلومن هذا الشخص الا نفسه ، عندما يرى نفسه خاسرا يوم القيامة .

« كيف يهدى الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات » .

خلود القرآن :

ذكرنا من قبل أكثر من مرة أن احد الأدلة القاطعة على أن القرآن الكريم يستحيل ان يكون من صنع البشر ، وان ما يكتبه اى كاتب من يوم أن وجد فى الدنيا اى كتاب ، لا يمكن الا أن يكون مرتبطا بزمان ومكان وما يعالجه من موضوعات، بل ويرتبط فى الدرجة الأولى بنفسية قائلة ، ولكن آيات القرآن الكريم وقد نزلت بالذات لتناقش القرآن الكريم وقد نزلت بالذات لتناقش وتحاجج وتعالج واقعة محددة يعرف من يستمع اليها على الفور معناها ومغزاها ومن هم المقصودون

بها ، ومع ذلك فان الآية الكريمة تظل قائمــة بمعناها الى أبد الآبدين ، لا صلة لها بالزمان والمكان فضلا عن ان تكون متصلة بأشـخاص بعينهم ، وتظل الآية الكريمة تنبض بما تقرره من احكام ، والآية التى نحن بصددها مصداق ذلك فهى تقرع يهود المدينة الذين كفروا بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعد أن كانوا هم أول من آمن به على الغيب وحتى قبل أن يبعث فكانوا يبشرون بقرب بعثته وأنهم سيكونون أول من يتبعه حتى أن كتب السيرة النبوية تحدثنا كيف أن عرب المدينة « الأوس والخزرج » عندما التقى نفر منهم أول ما التقى بسيدنا محمــد فى موسم الحج وعرض عليهم رسالته ، قال قائلهم: « يا قوم والله انه النبى الذى تحدثنا عنه يهود ، فلا يســبقونكم اليــه » أى أنه لم يكن بمحض الصدفة أن آمن الأوس والخزرج بسيدنا محمد، ولكنه كان من أثر ما سمعوه من يهود المدينة من أن نبيا سيبعث من أبناء اسماعيل ، ومن هنا كان عرب المدينة « الأوس والخزرج » أول من نصر ســيدنا محمدا بطريقة جماعية . وطلبوا منــه أن يهاجر اليهم وبايعــوه على أن يكونوا أنصاره ، يقاتلون عنه كما يقاتلون عن أنفسهم واولادهم .

« وجاءهم البينات » .

أى أن اليهود الذين آمنوا بســيدنا محمــد « وشهدوا ان الرسول حق » اذا بهم يكفرون بعد أن تحولت توقعاتهم الى حقيقة قام الدليل عليها « وجاءهم البينات » .

وعندى أن مجرد وصول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الى المدينة سالما معافى كان هو أعظم الأدلة والبراهين على صدقه وحماية الله له وفى كتابى « نبى الانسانية » فى جزئه الثانى ناقشت بتوسع وتفصيل ، ان نجاح سيدنا محمد صــلى الله عليه وسلم فى مغادرة مكة حيث وقفت قريش كلها لتحول دون ذلك ولكى تقتله ، اقــول أن وصول سيدنا محمــد بالرغم من ذلك كله الى المدينة هى معجزة لا يحققها الا نبى .

« والله لا يهدى القوم الظالمين » .

أى أن اليهود الذين شهدوا أن الرسول حق قبل مقدمه اليهم ، وتأيد ذلك بوصوله الى المدينة بهذه الطريقة المعجزة ، اذا هم يكفرون ، فأى ظلم ظلموه لأنفســهم « والله لا يهدى القــوم الظالمين » .

أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا
كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم
مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا
مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ * كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ
إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَىٰةِ فَاتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى

« أولئك جزاؤهم ان عليهم لعنة الله » .

« والملائكة والناس أجمعين » .

لعنة الله : أى الطرد من رحمة الله .

ومن أجل هذا التصرف الممقوت فان الله سبحانه وتعالى يطرد اليهود المعاندين من رحمته ومن يطرده الله من رحمته فان لعنة الملائكة تلاحقه ، ولعنة الملائكة كناية عن دعائهم الى الله أن يطردهم من رحمته .

أما لعنة الناس ، فتكون فى الدنيا بالوسائل المعروفة ، فيؤذيهم الناس بالقول والاشارة وأحيانا بالفعل ، ولقد ألف اليهود واعتادوا أن يلعنهم الناس فاعتادوا أن يعيشوا فى عزلة منطوين على أنفسهم ، وتمر فى حياتهم فترات يبدون فيها كما لو كانت لعنة الله قد رفعت عنهم ، ولكن هذه الفترات قصيرة لا يلبثون بعدها أن يروا آثار اللعنة .

وحسب الانسان أن يذكر كيف كانت اسرائيل منذ بضعة أعوام فى سمع أوروبا وأفريقيا وبصرهما ، وكيف أصبحت اليوم منبوذة من أغلبية المجتمع الدولى والذين يساندونها ، انما يفعلون ذلك لا رغبة فى اسرائيل واليهود ولكن نكاية فى العروبة والمسلمين .

والمهم أن وعد الله حق فى أن البشرية تلاحق اليهود باللعنة ، تشتد حينا وتخف حينا ، بل وقد تتوقف أحيانا ، ولكن اللعنة دائما هناك معلقة على رؤوسهم أجمعين » ومن أبحاث بعض قدامى المفسرين تساؤل عما تعنيه كلمة « أجمعين » ويقولون أنه سيوجد دائما نفر من الناس لا يلعن اليهود ، وهؤلاء غفر الله لهم ينسون أن القرآن نزل باللغة العربية ، وبالأساليب العربية فى الحديث ، وقد جرينا وجرى البشر كلهم ، على اعتبار الأغلبية الكاسحة من الناس هم كل الناس عندما نعبر عنهم .

« خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون » .

ولا هم ينظرون ، اى ولا هم يمهلون .

خالدين فيها : اى خالدين فى هذه اللعنة وهى فى الآخرة تعنى الخلود فى جهنم وتعنى فى الدنيا ملاحقة الناس لهم بالايذاء والاضطهاد ، وغنى عن البيان أن لعنة الله والملائكة والناس لاحقت وستظل تلاحق اليهود الكافرين والجاحدين ، ويتجلى كفرهم ومروقهم وانحرافهم فى تصورهم انهم وحدهم الناس « أبناء الله وأحباؤه » ومن عداهم فليسوا ناسا وما عليهم من حساب اذا هم نهبوهم وسرقوهم وقتلوهم وأخرجوهم من ديارهم ، فما بقى اليهود يفعلون ذلك فسيظلون ملعونين من الله والملائكة والناس ، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب « يوم القيامة » ولا يتأخر عنهم .

« الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم » .

ولما كان الله سبحانه وتعالى ، حق كله وعدل كله وهو غفور رحيم وعندما يحذر وينذر فلشديد رغبته فى خير الناس وصلاحهم فلا يكاد يتوعد اليهود هذا الوعيد الذى تنخلع منه القلوب ، حتى يفتح باب رحمته بدون قيد أو شرط الا التوبة ، أى الرجوع عن الكفر والفساد والشر ، وانتهاج سبل الخير والرشاد « وأصلحوا » .

« فان الله غفور رحيم » لليهود وغير اليهود » .

« ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون » .

يرى بعض المفسرين ان هذه الآية تنطوى على مشكلة وذلك فى قوله تعالى « لن تقبل توبتهم » حيث قال تعالى فى الآية السابقة انه غفور رحيم عمن تاب وأصلح . وفى آيات أخرى قال تعالى : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » .

وعندنا أنه لا اشكال من أى نوع كان فالقرآن يفسر بعضه بعضا ، ويستحيل أن ينطوى على أى تعارض من أى نوع كان ، وانما يخلق الأشكال ويوجده ، من يفصل الآية عما قبلها وما بعدها ويجردها من المعنى الذى يمليه ويحتمه السياق ، وحقا يمكن استخلاص بعض المعانى من آية واحدة على سبيل الاستقلال ولكن ذلك مشروط بأن لا تكون الآيات تكاد تلتحم التحاما عضويا مع ما سبقها ولحقها . ويبدو هذا الالتحام فى استخدامها نفس الألفاظ للتعبير عن معنى واحد هو المقصود .

والحديث هنا موجه الى هؤلاء الذين أشرنا اليهم فيما سبق حيث آمنوا بسيدنا محمد قبل بعثته وبشروا بقرب مقدمه ، فلما أن بعث بالفعل وقامت الأدلة على صدقه ونبوته فاذا بهم يكفرون به ، وحذر الله وانذر من مغبة ذلك فان هذا التصرف جزاؤه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، باستثناء من يتوبون ، والتوبة هنا ليس لها الا معنى واحد لا ثانى له وهو الايمان بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، لان ما دون هذا الايمان لا يكون توبة ، وعلى ضوء هذا التفسير المتفق عليه والذى هو أوضح من الوضوح يجب أن تفهم الآية .

« ان الذين كفروا بعد ايمانهم » أى بعد ايمانهم بمحمد كفروا به ، ثم « ازدادوا كفرا » اى باصرارهم على الكفر والعناد وكل صنوف الامعان فى الكفر « لن تقبل توبتهم » ويكون السؤال

توبتهم عن أى شىء ؟ طبعا ليس عن الكفر فقد وصفتهم الآية بأنهم لم يكفروا بعد ايمانهم فحسب بل ويمعنون فى الكفر وهم لو اسـلموا لسقطت عنهم صفة الكفر أى أن ما لا يقبل منهم على وجه القطع واليقين هو أن يظلوا على كفرهم بسيدنا محمد ثم يحاولون مع اصرارهم على هذا الكفر أن يتوبوا عما يمارسونه من آثام ومعاص فمثل هذه التوبة لن تقبل منهم ما بقـوا على الكفر بمحمد « وليس بعد الكفر ذنب » .

ابن جرير يسبقنا بهـذا الراى :

وطالما عبرت عن سعادتى عندما افهم رأيا واراه واضحا فى نفسى كل الوضوح ، ثم ارانى قد سبقت اليه بواسطة أحد كبار المفسرين ، ذلك انه يكاد يكون من المستحيل ان نفهم بعـد هذه القرون فهما لم يسبقنا اليه بعض السابقين ومن هنا فقد آليت على نفسى مذ شرعت فى هذا التفسير أن لا أثبت رأيا مهما كانت درجة وضوحه فى نفسى ، الا بعد أن اطمئن الى انه قد وجد من كبار المفسرين من قال بهذا الراى ، ولذلك فقد أسعدنى كل السعادة أن يكون ما فهمته من النص هو عين ما قال به « ابن جرير » شـيخ المفسرين واليك ما قاله نقلا عن تفسير المنار :

« واختار ابن جرير ان الكلام فى اهل الكتاب الذى تقدم ذكرهم وان المراد بالتوبة التوبة عن الذنوب فهى لا تنفعهم مع بقائهم على الكفر بالنبى صلى الله عليه وسلم ... ومضى فى بحثه على طريقته الى أن قال : « وانما قلنـا ذلك أولى الأقوال فى هذه الآية بالصواب لان الآيات قبلها وبعدها نزلت فيهم فأولى أن تكون هى فى معنى ما قبلها وبعدها اذ كانت فى سياق واحد ... الخ » انتهى .

واولئك هم الضالون : وختـم الآية بتأكيد ما ذهبنا اليه من الفهم من حيث وصف هـذه الفئة بأنها ضالة ، أى أنها لا تزال متمسـكة بكفرها بسيدنا محمد .

« ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب اليم وما لهم من ناصرين » .

وتجىء الآية التالية لتؤكد المعنى الذى ذهبنا اليه من ان قضية الكفر بسيدنا محمد عليه الصلاة والسـلام لا تنفع معها « توبة عن الذنـوب والمعاصى » وتزيد الآية تأكيد أن انفاقه ملء الأرض ذهبا فى الخيرات والمبرات بقصد فداء نفسه ، فان ذلك لا ينفعه لان الله سبحانه وتعالى لا يقبله منه ما دام قد كفر بسيدنا محمد ومات على كفره .

ملء الأرض ذهبا : ونريد أن نلفت النظر بمناسبة هذا التعبير ، ان القرآن الكريم يستخدم أسلوب البلاغة العربية كما اعتـاد العرب أن يستعملوها ، فليس من الصـواب فى شىء ان يتجـاهل البعض هذه الحقيقـة فيأبون الا ان يأخذوا بظاهر اللفظ ، ويرفضون أن يكون التعبير قد جاء على سبيل الكناية والتعبير بملء الأرض ذهبا يعنى أنه مهما أنفق كثيرا ليفتـدى نفسـه فلن يقبل منه وعلى الضد من ذلك « اولئك لهم عذاب شديد وما لهم من ناصرين » أى فى يوم القيامة على وجه التحقيق ، ويجوز أن يحدث أحيانا فى الدنيـا .

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فان الله به عليم » .

واذا كنا نقول فى كلامنا العادى « ان الشىء بالشىء يذكر » فقد ورد هذا الخاطر فى فكرى عندما وصلت الى هذه الآية ، فمن الواضح فى نظرى ان القرآن الكريم قد تحول فى حديثه الى مخاطبة المؤمنين ، فراح يبين لهم نوع الانفاق الذى يعود عليهم بالخير الوفير والكلمة التى تحتاج هنا لتحديد معناها هى كلمة « البر » وهى كلمة جامعة لكل صنوف الخير والاحسان ، وقد روى عن بعض الصحابة انها هنا بمعنى « الجنة » ويكون المعنى انكم لن تنالوا الجنة الا اذا انفقتم مما تحبون ، وعندنا أن المعنى اللغوى للكلمة من أنها تعنى الاحسان والخير يؤدى الى نفس النتيجة ، فلن تحسنوا الاحسان الذى يؤدى الى الجنة الا اذا انفقتم مما تحبون ، وقد ذكر القرآن الكريم فى أكثر من آية حب الانسان للمال « وتحبون المال حبا جما » وفى آية أخرى أشار القرآن الكريم الى حب الانسان للطعام « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » وعلى ضوء ذلك يجب أن نفهم المقصود من الآية الكريمة ، وهو أن الانسان يجب أن ينفق ، ولا يؤخره عن الانفاق خوفه من ضياعه وفقدانه ، فليس يبقى للانسان فعلا الا ما انفقه فى سبيل الخير والصلاح .

كيف فهم بعض الصحابة الآية ؟

وكان القرآن الكريم يخاطب سامعيه من الصحابة رضوان الله عليهم أول من يخاطب فأحدثت عندهم رد فعل قوى اذ تصوروا أن الآية الكريمة تحثهم على انفاق قمة ما يحبون فجاءوا لرسول الله بخير ما عندهم فأقرهم الرسول على فهمهم وبارك عملهم ولكنه تصرف بطريقة توحى بأن ليس المطلوب الذهاب الى هذا المدى ، الذى ان قدر عليه أفراد فان أواسط الناس لا تقدر عليه واليك الحديث الشريف .

روى الشيخان البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس رضى الله عنه انه قال : « وكان أبو طلحة أكثر الأنصار نخلا فى المدينة وكان أحب أمواله لديه « بيرحاء » وكانت مستقبلة المسجد وكان النبى صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب فلما نزلت « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » قال أبو طلحة : يا رسول الله ، ان أحب أموالى الى « بيرحاء « وانها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى فقال رسول الله : بخ بخ ذلك مال رابح ، وقد سمعت ما قلت ، وانى أرى ان تجعلها فى الأقربين ، فقال افعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة بين أقاربه وبنى عمه » .

وجاء فى حديث آخر عن غير طريق الشيخين : « لما نزلت هذه الآية جاء زيد بن حارثة بفرس يقال لها « سبل » لم يكن له مال أحب اليه منها ، فقال هى صدقة فقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل عليها ابنه « أى ابن زيد » أسامة فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فى وجه زيد فقال ان الله قبلها .

ما الذى يعنيه تصرف الرسول :

فأنت ترى أن البعض قد فهم انه اذا أراد الجنة فيجب ان يتصدق بأعز ما عنده وأحبه اليه ، ولما كان هذا ليس هو المقصود ، وانما المقصود أن ينفق الانسان بعض ما يحب ، ومع

ذلك فلم يشأ الرسول صلوات الله عليه أن يقول ما يغير هذا المعنى الذى فهم من الآية ولكنه فى ذات الوقت تصرف التصرف الذى يوحى بذلك فجعل بيرحاء فى أقرباء ابى طلحة ، وفرس زيد لابنه أسامة وقد كان بدوره فارسا . والخلاصة ان الانفاق يجب أن يكون مما يحبه الانسان ، وقد تحدثنا فى ذلك طويلا فى تفسير سورة البقرة بمناسبة آية مماثلة تحذر من التصدق بما لا يرضى عنه الانسان كل الرضا .

وعندما نطالع تاريخ الفاطميين ومن بعدهم تاريخ المماليك نرى أن الصدقة كانت توزع مما يحبه المتصدق ويؤثره .

وقد كنا فى صبانا نذهب الى المقابر وكانت العادة قد جرت بتوزيع صنوف من المأكولات على السائلين فكان القادرون يوزعون كل صنوف الفاكهة واشهى انواع الحلوى وهذا يدلك على مدى استقرار هذا المبدأ فى أعماق النفوس وهو أن يكون الاعطاء والانفاق من خير ما يحبون لكى يكون ذلك سبيلهم الى الجنة .

« وما تنفقوا من شيء فان الله به عليم »

ويحذر القرآن بالتذكير بأن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ومن هنا فسوف يعلم ما انفقنا وكم أنفقنا وهل هو مما نحب أو نكره ، وما هو الدافع وراء انفاقنا ، فان الله بكل شيء عليم .

القرآن يتحدى واليهود ينكصون :

يستمر الحوار والجدل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين اليهود من معاصريه ، فأما هو فمسلح بالقرآن تنزل عليه آياته بالحق من لدن السميع العليم وأما هم فسلاحهم المكابرة والادعاء والغرور وتصورهم فى أنفسهم أن القول هو ما يقوله هم والذى يعلو على كلام الله ذاته فهم وحدهم الذين يفهمون كلامه بل ويوجهونه اذا لزم الأمر ، وأعوذ بالله من الكفر ، ولا يتصور متصور أننى أتجنى على اليهود ، فأنا ملتزم بكتاب الله الكريم ولا أسمح لنفسى بتجاوزه قيد شعرة عن مبناه ومعناه ، وكل دورى فى موضوع اليهود أن قلبى يزداد اطمئنانا لتصوير القرآن الكريم لليهود على ضوء تصرفاتهم بعد أن صارت لهم دولة ، فاذا بهم لا يلتزمون بأى مبدأ أو قاعدة من أى نوع كان الا أن يجعلوا من انفسهم جنسا فوق البشر يقتلون ويعذبون ويستبعدون ، ويكفرون بالله كما يشتهون ، يطبقون ما يزعمون أنه التوراة عندما يرون ذلك يطابق أهواءهم ، ويضربون بها عرض الحائط اذا وقفت فى طريق شهواتهم وهم قبل ذلك كله وبعد ذلك هم الناس ومن عداهم فليسوا ناسا وانما هم نوع من الحيوانات التى يجب أن تسبح بحمد الله وتشكرهم على سب اليهود لهم واحتقارهم والا فليرونى بشرا لا يهمه أن تجمع الدنيا كلها على خطأ تصرفه ، ثم لا يكفيه هذا فيعلن تحديه لهيئة الأمم واحتقاره لها الا أن تنزل عند مشيئته .

يحدث هذا فى عامى ١٩٧٥ و ١٩٧٦ بعد الميلاد فعندما يقدم لنا القرآن الكريم هذه الصورة عن اليهود منذ اربعة عشر قرنا فليس امامنا الا أن نسبح بحمد ربنا ونقول مع القائلين صدق الله العظيم وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل ما بلغه لنا عن ربه والآن فلنمض مع الآيات لنرى الى أى حد تعكس الصورة التى أصبحنا نراها رأى العين .

« كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ماحرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين » .

يتضح من الآية الكريمة أنها ترد على ما يتصل بالحلال والحرام من المأكولات ، ولابد أنهم اخذوا على سيدنا محمد أنه يحلل فى الطعام بعض ما يحرمونه هم ، من ذلك لحم الابل وألبانها ، واجزاء أخرى من لحوم الأنعام بعامة مما يحرمه اليهود على أنفسهم ويعتبرون أن ما يفعلونه هو أمر من الله فكيف يخالفه سيدنا محمد اذا كان هو نبى حقا .

ذلك بعض ما قاله اليهود يواجهون به دعوة رسول الله ، فلننظر الآن كيف حاورهم القرآن وساق الدليل على وجه التحدى من كتاب اليهود أنفسهم ، ولكن كلامهم أعلى من التوراة التى هى كتاب الله .

يقول لهم القرآن الكريم أن « كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل » أى أن الأصل الذى بدا عنده « بنو اسرائيل بنزول التوراة . كان هو الاباحة المطلقة لكل صنوف المأكولات « الا ما حرم اسرائيل على نفسه » واسرائيل هو اسم سيدنا يعقوب الذى تفرعت منه بنو اسرائيل ، وقد سبق وجوده نزول التوراة بعدة قرون ، وليس يعنينا فى قليل أو كثير ما هذا الذى حرمه اسرائيل « سيدنا يعقوب » على نفسه ، وانما الذى يعنينا انه كان حيث لم تكن التوراة قد نزلت ، وأن القرآن قد تحدى اليهود أن يجيئوا من التوراة بالنص الذى يحرم ما أحله سيدنا محمد ، وطبعا كانت التوراة خلوا من هذا النص ، ولكن ذلك لا يهم اليهود لأن أقوال أخبارهم تعلو التوراة نفسها ، وطبعا ما كان القرآن الكريم يحفل بهذا الصغار والكفر والهذيان ، فاليهود يقولون ان كل شىء أو ذاك حرام فيطالبهم القرآن بأن يجيئوا بهذا التحريم من التوراة ان كانوا صادقين فى دعواهم فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون :

فاذا أبى اليهود بعد ذلك الا أن يواصلوا افتراءهم وكذبهم على الله فأولئك هم الظالمون ، أى ظالمون للحق وبالتالى ظالمون لأنفسهم اذ ينزلون على أنفسهم فى الدنيا غضب الناس ولعنتهم ولهم فى الآخرة عذاب الجحيم .

اسرائيل هو يعقوب :

وقد طالعنا فى أحد التفاسير التى كتبت فى مطلع هذا القرن ما يستفاد منه ان المقصود باسرائيل فى هذه الآية هم بنو اسرائيل وهو قول يجافى صريح اللفظ والمعنى ، ولم تفهم الحكمة فى ايراده فضلا عن انه لم يقل به أحد ممن سبق على الاطلاق والاجماع منعقد على أن اسرائيل فى هذه الآية هو سيدنا يعقوب ، وأساس المحاجة أن يعقوب سابق على نزول التوراة ، أما التوراة نفسها فخالية من هذا التحريم الذى يزعمه من اليهود .

ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ
مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ
غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ
ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

« قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفـــاوما كان من المشركين » .

أى وربى وعزته وجلاله أنه من الصـــادقين فالسياق ينطق بما دار بين اليهود وبين سيدنا محمد ، فيبدو والله تعالى أعلم أن سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام بعد أن تحـداهم بقـول القرآن من أن التوراة خالية من هـــذا التحريم الذى تحدثوا عنه ، فلابد أن يكون اليهود قـد ردوا بما اعتادوا أن يقولوه حتى اليوم من أنهم تلقوا هذا التحريم عن يعقوب وهو نبى فجاء القرآن يفحمهم من جديد بأن ابراهيم وهو أبو الأنبياء وجد يعقوب لم يحرم هذا الذى حرمه يعقوب على نفسه فاذا كان اليهود يزعمون أنهم يسيرون على سنن انبيائهم ، فهذا هو ابراهيم أول هذه السلسلة من الأنبياء كان حنيفا أى سائرا على الحق « مائلا عن الباطل » « وما كان من المشركين » أى أن اليهود لا يستطيعون الا أن يقروا ويعترفوا بأنه كان موحـدا داعيـا الى الله ، ولم يكن واحدا من المشركين .

« ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » .

بكة : أحد أسماء مكة وهذا يكفينا ، وقـد حاول البعض أن يفـرق بين الاسمين فيجعـل المقصود بأحدهما هو مكان الحرم فقط ، حيث يقصـد بالآخر « مكة » المدينة كلها ، كما حاول بعض آخر أن يفسر لماذا سميت « بكة » وعندنا أن ذلك كله لا غناء فيه ، فالأسـماء لا تعلل ، ولذلك فنحن نأخذ بقول من قال : بكة هى مكة .

قدمنا أن السياق ناطق بادعاءات اليهود فلابد أن يكونوا قد اعترضوا « وما أكثر اعتراضاتهم » على جعل مكة هى الأساس وهى القبلة « راجع تفسير سورة البقرة : ماولاهم عن قبلتهم ... الآية مع أن بيت المقدس هو مهبط وحى الأنبيـاء وقبلتهم وهو تمسك كما ترى بوجهة نظرهم ، لا يعنيهم التاريخ أو المنطق وما يشتملان عليه من حقائق ، الحقائق عندهم هى تصوراتهم واوهامهم ، ويدحض القرآن مزاعمهم ولا يقيم لها وزنا ، ويقرر الله الحقائق الدامغة ، اعجبت اليهود أو لم تعجبهم ، أخذوا بها أو لم يأخذوا ، والحقيقة التى يقررها القرآن وقوله الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه :

« ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاوهدى للعالمين » :

وغنى عن البيان ان المقصود بأول بيت وضع للناس اى أقيم للناس ، ليعبدوا الله الحق فيه هو « الكعبة » وذلك مستفاد من قوله : مباركاوهدى للعالمين . فقد تضمن القرآن الكريم ما يفيد ، أن الأرض عمرت بالمبانى قبل سيدنا ابراهيم ، بل وفى قصة ابراهيم ذاتها ما يفيد ان كانت هناك دور للعبادة تقام بها الأوثان فعندما يقول لنا القرآن « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة » .

فلا يجب ان يفهم منه الا انه أول بيت للعبادة الحقة ، وقد تقدم فى تفسير سورة البقرة لماذا ذهب ابراهيم الى الحجاز « لابعاد جاريته هاجروابنها اسماعيل » وتحدثنا فيها عن بناء الكعبة وسيرد علينا بعض منذلك فىالآيات القادمة والمهم الذى يعنينا بصدد هذه الآية ان الله سبحانه وتعالى يقرر ان اول بيت اقيم للناس للعبادةالحقة هو الكعبة « مباركا » اى وجعله مباركا كثير البركة بمعنى الخير فى الدنيا والآخرة وهوامر يشهده ويقر به ملايين المسلمين فى كل عام ، وانا اتحدى أن يجيئونا بأى انسان ملحد أو مؤمنأو ان اى ملة كانت على ظهر البسيطة ، بمكان آخر كالكعبة يحج اليه الناس من ارجاء المعمورةمنذ عشرات وعشرات من القرون ، والمكان تحفه البركات ويشع نورا للعالمين .

« فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كانآمنا » .

ومن السياق يمكن أن نستشف اعتراضاتاليهود فيبدو « والله أعلم » انهم قالوا فيما قالوا وزعموا ، : وما يدرينا ان الكعبة هى بناء ابراهيم ، وهو قول يردده اليهود حتى يومنا هذا وكتبه بعض من يصفون أنفسهم بالمستشرقين ووقعفى حبائلهم بعض صغار علماء المسلمين فى شبابهم ممن تلقوا العلم على ايدى هؤلاء المستشرقينوتصوروا « سواء بحسن نية أو بسوئها ، فالله أعلم بالنيات ان يكرروا هذه المزاعم فقال بقولهم : ومن يدرينا أن الكعبة من بناء ابراهيم وها هو القرآن الكريم يرد على هذه الفرية منذاربعة عشر قرنا ، وسيظل يرد عليها الى أبد الآبدين يؤمن به من آمن ، ومن كفر فان الله غنى عن العالمين يقول تعالى :

« فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كانآمنا » .

ويقيم القرآن الكريم دليلين على قدسية المكانونسبته الى سيدنا ابراهيم وانه بانيه وصانعه ومشرع الحج اليه واحد الدليلين مادى والثانىمعنوى ، فأما المادى فمقام ابراهيم وهو قطعة من الحجر استعان ابراهيم بالوقوف عليها عندماارتفع بناء الكعبة ، ويقول من شهدوا بالعين المجردة هذه القطعة من الحجر « وهى معروضةالآن » ان عليها أثر قدم مطبوعة على الحجر ، وقد ظلت هذه القطعة من الحجر لاصقة بجدار الكعبة الى ان ابعدها سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه « على ما يقول ابن كثير فىتفسيره » بضعة امتار لييسر على الناس عملية الطواف ولابد أن يكون قد أبعد مرة أخرى فىعملية التوسعة الأخيرة والمهم اننا نرى العرب يتحدثون عن مقام ابراهيم ويصفونه فيقولابو طالب فى لاميته المشهورة :

وموطىء ابراهيم فى الصخر رطبة

على قدميه حافيا غير ناعل

اى أن العرب كانوا يتحدثون بالتواتر المطلق الوفا بعد الوف أجيالا بعد أجيال يختلط فيهـــا الجدود مع الابناء والاحفاد والكل على رأى واحدلا ثانى له ، وهو أن هذا الحجر هو مقام ابراهيم الذى وقف عليه وهو يبنى الكعبـــة هو وابنهاسماعيل وليس فى الوجود كله حقيقة يمكن ان تفوق مارآه الناس رأى العين ، ثم توارثوه جيلابعد جيل .

الدليل المعنوى :

على أن هذا الدليل المادى الذى لايدحض ــ على أن سيدنا ابراهيم هو صاحب هذا البناء ــ اذا فما هو الدليل على أنه خصصه للعبادة وأنه مكان مبارك وهدى للعالمين ؟ ، وهنا يأتى الدليل الثانى المعنوى « ومن دخله كان آمنا » .

يقول الحسن البصرى وغيره :

« كان الرجل يقتل فيضع فى عنقه صـــوفه فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج » ولكى نفهم معنى هذا القول يجب أن ندرك أن الأخذ بالثار كان هو كل شىء عند العرب كانت حياتهم لا تقوم الا به وعليه ، وحسبك أن تدرك أن قتل أى انسان من أى قبيلة كان الأخذ بثأره يصبح ، مسئولية كل فرد فى القبيلة ، لا تستطيع أن ترفع راسها بين بقية القبائل الا بعد أن تأخذ بثأرها ، ومع ذلك فقـــد كان يلجأ أى قاتل الى الكعبة حتى لا يستطيع ابن القتيل نفسه أن يتعرض له بسوء لحرمة الكعبة ، وان من دخلها كان آمنا ،واجماع العرب كل العرب على هذا المبدأ ــ هذا هو الدليل الذى لا يعوزه دليل آخر على اننا بصدد اعظم شىء مقدس عند العرب ، فعندما تتوارث الأجيال أن هذه القداسة مستمدة من ان بانيها هو ابراهيم وساعـــده فى ذلك ابنه اسماعيل أبو العرب المستعربة فليس فى الكون أى حقيقة انسانية اجتماعية ، اذا تشكك انسان فيما اجمعت عليه الأجيـــال .

« الآيات البينات » وما هو المقصود بها :

هذا هو ما نتصور أنه تفسير الآيات البينات ومانراه متمشيا مع السياق وافحام اليهود ولكن بعض المفسرين ، خرجوا عن السياق وبالتالى راحوا يفيضون القول فى أن الآيات البينات هى كل شعائر الحج كالصفا والمروة .

وأن مقام ابراهيم هو كل الحرم ، ونحن لا نأخذ نأخذ بهذه الأقوال ولولا التزامنا بمنهج نضعه تحت أنظار القارىء لكل ما يقال لأسقطناها « ولله على النـــاس حج البيت من استطاع اليه ســـبيلا » .

واذ تذكر الكعبة ، وأن سيدنا ابراهيم بناها فى مكة لتكون أول بيت لله يعبد فيه العبادة الحقة ، فان منسك الحج الذى كان يزاوله العرب منذ الوف السنين باعتبار دعوة أبيهم ابراهيم ، يرد على الفور ، ويكون التساؤل : وما هو موقف الاسلام منه ، مادام الاسلام هو الحنيفية السمحاء التى دعا اليها سيدنا ابراهيم ، والجواب على هذا السؤال قاطع وصريح فى أن الحج ركن من أركان الاسلام وقد حج رسول الله قبـــل الهجـــرة ،واعتمر وحج بعد الهجرة

والآية التى نحن بصددها ، هى التى تعلن عن فرضية الحج ، التى تكررت بأكثر من صـــيغة ، فقال تعالى ، « واتموا الحج والعمرة لله » ولكن التعبير هنا تحقق بأقوى صور التأكيد فى اللسان

العربى ، فاستخـدمت اللام « ولله » بمعنى الايجاب ، ثم استخدم الحرف « على » وبهـذا أصبحت فرضية الحج على المسلمين محل الاجماع والاتفاق من حيث هو فرض على كل مسلم .

لمن استطاع اليه سبيلا : والشرط الوحيد الذى اشترطه القرآن لتنفيـذ هذا الفرض هو « الاسـتطاعة » والاستطاعة شرط عام لتأدية سائر الفروض وكل صنوف العبادات « فاتقوا الله ما استطعتم » وقوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » وقوله تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » .

فأداء أى تكليف مشروط بالاسـتطاعة ولكن ما اختص به الحج هو التصريح بالاستطاعة كجزء لا يتجزأ من وجوب الفرض ولذلك فقد اهتم الفقهاء بوضع حدود وشروط لهذه الاستطاعة فليلتمسها من شاء فى كتب الفقه ، والشىء الوحيد الذى نهتم بتسجيله هنا أن الاستطاعة مسألة شخصية يقدرها العبـد طبقا لظروفه واحواله شريطة أن يكون مؤمنا بأن الله مطلع على دخيلة نفسه ، وانه سـوف يحاسبه اذا ادعى العجـز حالة كونه قادرا .

عالمان جليلان :

ولعل أعظم تطبيق لهذا الذى نقوله أن عالمين جليلين ، لا يشك فى ايمانهما وتقواهما وتكريس حياتهما لخدمة الدين ونعنى بهما الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا يقولان فى تفسيرهما لهذه الآية الكريمة حسبما جاء فى تفسير المنار :

« ان كثيرا من أمراء المسلمين ونابغيهم يعلمون أن دون أدائهم لفريضة الحج عقبات سياسية لا يسهل اقتحامها وقد جاء فى صحف الأخبار أن امير مصر استأذن السلطات فى حج والدته وبعض أمراء اسرته فلم يأذن وقد كان الأستاذ الامام يعتقد اعتقادا جازما فيه أنه اذا حج يلقى بيديه الى التهلكة وانه لا أمان له فى الحرم الذى كان الجاهلى يرى فيـه قاتل أبيه فلا يتعـرض له بسوء وان كاتب هذه السطور « أى الشيخ رشيد رضا » يعتقد مثل هذا الاعتقاد ، وقد نقلنا هذه الفقرة لنثبت لك كيف ان الاستطاعة مسألة شخصية يقدرها كل انسان وفق ظروفه تحت رقابة الله سبحانه وتعالى ، ولابد أن يكون الشيخ رشيد رضا قد كتب ما كتب فى أخريات القرن التاسع عشر ، فقد حجت والدة الخديوى بعد ذلك وحج الخديوى عبـاس نفسه ، وعاش الشيخ رشـيد رضـا حتى اسـتولى الملك عبد العزيز آل سـعود وأعاد تطبيق الحـدود الشرعية والأمن الى الحرم ولابد أن يكون الشيخ رشيد رضا قد حج فى هذه الفترة .

« ومن كفر فان الله غنى عن العالمين » .

ان ذكر الكفر هنا ينصب على كل من ينكر ان سيدنا ابراهيم هو بانى الكعبة لتكون أول بيت لعبـادة الله العبـادة الحقة « مباركا وهدى للعالمين » .

— وأنه شرع بوحى من الله فريضة الحج فاليهود المعاصرون لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ممن انكروا هذين الأصلين هم كفرة بدون جـدال أو شـبهة وكذلك فهـو كافر كل من جحد هذين الأصلين .

« فان الله غنى عن العالمين » .

هذا ركن أساسى من اركان العقيدة لا تقوم الا بهــا ، فقد بلغ من غرور اليهود أن يتصوروا أن الله فى حاجة الى عبادتهم وأساس عقيدتهم من حيث كونهم شعب الله المختار وانهم هم وحدهم الناس ومن عداهم فليسوا ناسا ، يرجع الى هذه الفكرة الوثنية ، من أن الله «سبحانه» فى حاجة لعبادتهم ، فنزل القرآن الكريم يدحض هذه الفكرة ، بتقريره استغناء الله عن العالمين فلو انهم كفروا أو آمنوا لمــا اثر هذا على ملكه فى قليــل أو كثير وهو عنــدما يدعوهم للهداية والصــلاح فذلك من فيض رحمته بهم ، لأن فى الصلاح والهداية خيرهم ونفعهم اما هو فغنى عن العالمين .

« قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون » .

يطلب القرآن الكريم من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يسأل اليهود وأن يســجل عليهم كفرهم بآيات الله أى بينات الله وحججــه وادلته وقد قدمنا ما ساقه القرآن الكريم على نسبة الكعبة الى سيدنا ابراهيم ، وبالتــالى لشريعــة الحج ، وقد بقى أن تعلم ان العلم منتهى العلم يقول كما أن الاثبات لابد عليه من دليل ، فكذلك نفى أى شىء لابد أن يقوم الدليل عليه كذلك فليس باستطاعة اليهود أن يكذبوا أمرا اجمــع عليه العرب الا بدليل ، وما جاء فى كتابهم يكاد يتفق مع ما يقوله العرب ، وليس عندهم ما يمكن أن يقال مما أجمع عليه العرب ، وكان اليهود يتقربون الى العرب باعتبارهم ينتمون الى جد واحد وهو سيدنا ابراهيم بل وراحوا يبشرون قبل مقدم سيدنا محمد به ، فلما أن جاء سيدنا محمد وقامت البينــات والآيات على حقيقة نبوته اذا هــم يكفرون .

وهو ما يندد به القرآن : « قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله » ويحذرهم الله وينذرهم « والله شهيد على ما تعملون » أى لن تفروا من حسابه وعقابه ، ولكن هيهات ، فاليهــود هم اليهود فى كل زمان ومكان .

« قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن ســبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون » .

ويأبى اليهــود الا ان يجاوزوا كل معقــول ومنقول حتى من وجهة نظرهم «كيهود» فقد يكون مفهوما من وجهة نظرهم ان يتمسكوا بعقيدتهم ، ولكن أن يحولوا بين المشركين الوثنيين الذين يعبدون الأصنام وان يؤمنوا بالله الواحد الأحد ، فهذا الذى وصفناه بأنه يجاوز كل معقول ومنقول ويلخص عمل اليهود فى هذه الدنيا فى الافســاد وهو ما سوف تشير له الآيات القادمة ولنقف هنا عند حد ما تسجله الآية على اليهود من أنهم : « يصــدون عن سبيل الله من آمن » أى انهم يحاولون أن يصرفوا من آمن عن الايمان بالله ، وهم يهدفون من هذا الموقف العجيب أن تظل الأمور كما كانت على فسادها وضلالها لأن ذلك سبيلهم الى الحياة « تبغونها عوجا » .

« والعوج » هو الميل والزيغ فى الدين والقول والعمل وخروج عن طريق الاســتواء والرجــل الأعوج « السيء الخلق » وعندما يطلق القرآن الكريم « تبغونها عوجا » فذلك معناه انهم يريدون ويطلبون الفساد المطلق فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، « وأنتم شهداء » أى وأنتم تعلمون ما تفعلون عن تعقل وبصيرة .

« وما الله بغافل عما تعملون » ويحذرهم الله سبحانه انه مطلع على مايعملون لا يعزب عن علمه مثقــال ذرة .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ
تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ
وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ
مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ
وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ
بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ

« ياايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين اوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين ● وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم .

لم يكف اليهود أن لا يؤمنوا بسيدنا محمد .

لم يكفهم ان يصدوا عن سبيل الله من آمن .

لم يكفهم أنهم يريدون ويطلبون استمرار الفساد

« تبغونها عوجا » .

وذهبوا الى أبعد من ذلك وقد اتفقت الروايات أن سبب نزول هاتين الآيتين ، وهو ما تؤكده الآيات القادمة ، الحادثة الآتية ننقل نصها عن ابن جرير كما نقله عنه تفسير المنار قال :

مر شاس ابن قيس ، وكان شيخا عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم ، على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من جماعتهم والفتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام بعد الذى كان منهم من العداوة في الجاهلية ، فقال قد اجتمع بنو قيلة بهذه البلاد والله ما لنا معهم اذا اجتمع ملؤهم بها من قرار فأمر فتى شابا من اليهود وكان معه فقال « له » اعمد اليهم فاجلس معهم واذكر لهم يوم « بعاث » وما قبله وانشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج .

وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ففعل فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قيظى أحد بنى حارثة بن حارث من الأوس وجبار

ابن صخر احد بنى مسلمة من الخزرج فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه ان شئتم والله رددناها الآن جذعة وغضب الفريقان وقالوا : قـد فعلناالسلاح .. السلاح موعدكم الظاهرة « الظاهرة يعنى الحرة » فخرجوا اليهـا وتحاور الناس فانضـمت الأوس بعضها الى بعض والخزرج بعضها الى بعض على دعواهم التى كانوا عليهافى الجاهلية فبلغ ذلك رسـول الله صلى الله عليه وسلم فخرج اليهم فيمن معه من المهاجرينمن أصحابه حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين الله .. الله ، أبدعوة الجاهلية تدعون وانا بينأظهركم بعد اذ هداكم الله الى الاسلام واكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم بهمن الكفر والف به بينكم ، ترجعون الى ما انتم عليه كفارا ؟ فعلم القوم انها نزعة من الشيطانوكيد من عدوهم فألقوا السلاح من ايديهم وبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضـهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهمكيد عدو الله ، شاس بن قيس وما صـنع قال ابن جرير فأنزل الله : « قل يا أهل الكتاب لمتكفرون بآيات الله » الى آخر الآيتين السابقتين .

عندما تطابق السيرة آيات القرآن :

وقد ذكرنا من قبل واكدنا مرارا وتكرارا انأصح وادق ما ترويه كتب السيرة ، هو ما جاءت الاشارة اليه فى القرآن وسوف نرى فى الآيةالمقبلة ما يكاد ينطبق على القصة السابقة وبعد ان حذرت آيات القرآن الكريم . وأنذرتهم بسوءالعاقبة اذا استمروا على ما هم فيه من محاولة الافساد ، انتقل القرآن الكريم الى تحذير المؤمنين انفسهم من مغبة استماعهم لليهود فقال للمؤمنين :

« يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين » .

وقد رأينا فى القصة التى رويناها لك كيفكاد الاوس والخزرج يعودون للاقتتال الذى هو آية كفرهم بالاسلام الذى حولهم بعد العداء الىأخوان كما سيرد علينا بالتفصيل والذى يعنينا الآن هو أن ننبه الى خلود القرآن وانطباقه فىنصاعة عجيبة ومباشرة للاحداث الجارية ، فمذ وجدت اسرائيل الى جوارنا وهى لا تفتأ تثيرالحروب فان عجزت وتوقفت راحت تثير الفتن وسيظل هذا شأنها ، على ان الآية أعم من كلذلك واشمل من حيث ان اتباع فريق من الذين « أوتوا الكتاب » قد يؤدى الى كفر المؤمنين بعدايمانهم ، فلا يتصورن متصور أن الآية تنطبـق على أمثال ، « كارل ماركس » حيث دعا الىالكفر جهارا نهارا ، فالتحذير القرآنى اعم واشمل فقد رأينا من ضل وكفر لا لأنه ماركسى ولكن لأنهاستمع لبعض من وصفوا فى أوروبا بأنهم مفكرون وهم يدخلون فى عموم الآية .

« وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات اللهوفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم » .

وينكر القرآن على جماعة المؤمنين فى صيغةالاستفهام والتساؤل ، كيف يكفر المسلم وآيات الله تتلى عليه ورسول الله موجود معه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم موجود مع كل مسلم بالقرآن والسنةوهو حاضر أبدا مع كل تال للقرآنواع للسنة ، ومعنى الآية انه مع وجود القرآن وتلاوته واستحضار السنة المحمدية لا يكون هناكزيغا أو كفرا وقد رأينا مصداق ذلك رأىالعينفواحد من أعتى من حمل لواء التمرد والكفر بالاسلام لاطاعته فريقا من أهل الكتاب فى النصف الأول من هذا القرن وكانت دعواه أنه يدعو للتقـدموالتحضر انتهى به الأمر الى ان يعلن انه لم يعد يسمع الا القرآن ، والقرآن المرتل .

وقد كان هذا هوما انتهى اليه كل هذه الطائفة من الكتاب والمفكرين ، ممن حلا لهم أن يكفروا بالاسلام بدعوة التقدم والتحضر ، وانتهوا جميعاوبدون استثناء الى أن يعلنوا ايمانهم بالاسـلام ويوقفوا كل كتبهم وأفكارهم على عظمة التعاليم الاسلامية كما يقررها القرآن . وعلى عظمـة سيدنا محمد التى تعلو على أية عظمة عرفتها الانسانية .

ونحن نشهد اليوم تكرر الظاهرة فئمة من تأثروا بتعاليم ماركس قد اهتموا بأن يؤكدوا ايمانهم بالاسلام وبالله وادائهم للفرائض ومعنى هذا أن الظاهرة عامة ومستمرة وهى أنه ما بقى القرآن قائما ، وسنة الرسول حاضرة فلا يتصور قيام الكفر ، وانما يوجد الكفر حيث يغيب نور القرآن والسنة ولذلك فليس يعنينا فى قليل أو كثير ان نتساءل أيفعل الكتاب المفكرون ما يفعلون من العودة الى الاشادة بالقرآن والاسلام عن اقتناع وايمان أو عن نفاق ومسايرة للمجتمع ، نقول أن لا محل لهذا التساؤل فى معرض تفسير للآية التى نحن بصددها وحسبنا ان نقول صدق الله العظيم فما دامت آيات القرآن تتلى وفى المسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس فقط بشخصه يوم ان نزلت الآيـات وانما بتعـاليمه الى ابد الآبدين » فلن يكون كفرا بأذن الله ، وها نحن أولاء نشهد ثبوت الظاهرة بعد أربعة عشر قرنا من نزول هذه الآيات بمناسبة حادث وقع فى هذا التاريخ السحيق ، واستمرار القرآن الكريم بحكم الأحداث بهذه الصورة المذهلة لهو معجزة المعجزات .

« ومن يعتصم بالله فقد هـدى الى صراط مستقيم » .

يعتصم : سوف يفسرها القرآن نفسه بعد قليل ومعناها يمسك وبنص القرآن « استمسك » وفى اللغة اعتصم بكذا أى امتنع به وكل مانع شىء فهو عاصم .

تقول العرب : عصمه الطعام ، أى منعه من الجوع ولنا المعنى الأول « استمسك » لأنه هو الذى سيذكره القرآن بعد قليل .

حبل الله : تفسيره ما سبق فى الآية : « وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله» أى ، القرآن والسنة ، ولذلك فنحن لا نوافق على قول من قصر معنى « حبل الله » على القرآن الكريم فحبل الله يتكون من الاثنين معا ، كتاب الله وسنة نبيه .

ويكون المعنى أوضح من فلق الصبح فلن يضل أو لن ينحرف ابدا من استمسـك بحبل الله « الكتاب والسـنة » وانما هو على الجـادة الصحيحة الطيبة الخيرة « فقد هدى الى صراط مستقيم » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : « تركت فيكم ما ان تمسكتم به فلن تضلوا بعدى ابدا ، كتاب الله وسنتى » .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون » .

ذكر بعض المفسرين « غفر الله لهم » أنه لمـا نزلت هذه الآية شقت على بعض المسلمين وشكوا الى رسول الله فأنزل الله عز وجل : « فاتقوا الله ما استطعتم » ويضيفون « غفر الله لهم مرة اخرى » ونسخت هذه الآية — فهل يكون معنى ما تقدم أن لا نتقى الله حق تقاته ؟ ولعلك تدرك لماذا طلبنا أن يغفر الله لهم . ونكتفى بأن ننقل لك عبارة القرطبى حتى لا يشط القلم ، يقول القرطبى :

وقيل ان قوله : « فاتقوا الله ما استطعتم »بيان لهذه الآية ، والمعنى : فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم ، وهذا أصوب ، لأن النسخ يكون عند عدم امكان الجمع والجمع ممكن فهو أولى . وانتهى كلام القرطبى .

ونضيف ان اى تكليف يأمر به القرآن فهو فى حدود الاستطاعة نص على ذلك أو لم ينص « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » . فاذا كانت رحمة الله بعباده قد شاءت ان يذكر بهذا المبدا من حين لآخر ، فهذا لا يعنى بحال ان التكليف الذى لم يقترن بذكر الاستطاعة يعنى الخروج على هذا المبـدأ .

« اتقوا الله حق تقاته » .

والتقوى معروفة وهى خشية الله ، ولكنها اصبحت فى الاصطلاح تعنى الائتمار بكل ما أمر به الله ، والانتهاء عن كل ما نهى عنه ، حق تقاته . وندرك من معناها أن يكون الائتمار بأوامر الله والانتهاء بنواهيه هو عين يقين واعتقاد وصدق فى الأداء وذلك كله فى حدود الاستطاعة بطبيعة الحال . « ولا تموتن الا وانتم مسلمون » .

والمعنى واضح وهو أن من أنعم الله عليه بنعمة الاســلام فليعض عليه بالنواجذ وليبتعد ما استطاع عن كل ما يجرده من صفة الاسلام ، وهى ان كان يكفى فيها فى الدنيا شكلها الظاهر وهو مجرد القول باللسان ، فليس ينفع فى الآخرة الا ان تكون عن صدق واقتناع .

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » .

وقـد تقدمت دعوة الله سـبحانه وتعالى للمؤمنين . الى الاعتصام بحبل الله ، وقدمنا انه على الرغم مما جاء فى كتب التفسير من أن حبل الله هو « القرآن » فقد رأينا أن نضيف اليه السنة ، فقد تحدثت الآية الكريمة عن آيات الله البينات ووجود شخص سيدنا محمد ، والحبل لغـة : هو السبب ، ولكنه ليس المراد هنـا .

والأمر يتكرر فى الآية على سـبيل البيـان والبلاغة فاذا كان الأمر قد ذكر فيما قبل عاما ، فهو يذكر ثانيـة للتذكير بنعمة الاســلام لأقوام عاشوا متحاربين متباغضين ما يزيد على مائة عام حتى اذا جاء الاسلام ، حول البغض والعداء الى تآلف ومحبة .

« واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا » .

والاشـارة المباشرة حين نزول القرآن هى للأوس والخزرج على ما قدمنا ، وقـد اشعل اليهود نار الحرب بينهم باستمرار فلما ان جاء الاسلام التقى الحيان على الايمان برسول الله وما أنزل اليه وانقلبت العـداوة القـديمة الى منافسة فى نصرة الدين الاسلامى ونبى الاسلام ، فنقم اليهود على الاسلام ونبى المسلمين ، وقدرأينا كيف حاولوا ان يوقعوا الفتنة من جديد بين الفريقين لولا تدارك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لهم فأنقذهم مرة ثانية من العـودة الى ما كانوا فيه .

« وكنتم على شفا حفرة من النـار فأنقذكم منهـا » .

وسواء كان المقصود بحفرة النار هو الرمز لحالة الخراب والدمار والويل فى هذه الدنيا ، أو كان المقصود بها الانقاذ من نار الآخرة التى أعدت للكافرين ، فقد أنقذ سيدنا محمد « الأوس والخزرج » من كلتا النارين ، نار الدنيا ونار الآخرة .

الدعوة عامة الى ابد الابدين الى الاخوة والترابط :

وكشأن القرآن الكريم ، ينزل لحادث وقعولكن حديثه يجىء عاما ، فيصبح أمره خـالدا الى ابد الآبدين وهو هنا يقرر ان كل من اعتصمبحبل الله فقد هدى الى صراط مستقيم ، وما الصراط المستقيم الا الصلاح والهداية والقـوةوالمنعة والقرآن يدعو المسلمين للتآخى « انما المؤمنون اخوة » والى التضـامن والتعـاون« وتعاونوا على البر والتقوى » وهو يحذر من التفرق والتشتت ، ويدعو الى الجماعة .

ومن شاء أن يتتبع تاريخ العـالم الاسلامىصعودا وهبوطا ومدا وجزرا فسوف يراه مرتبطا اشـد الارتباط بحالة المسـلمين ومدى ترابطهموتعاونهم .

وأنا اليوم اذا كنت أتفاءل بمستقبل المسلين فماذلك الا لأنالظروف تضغط عليهم ليتحدوا منجديد فقد ادرك الجميع انهم بازاء خطر واحد يتهددهموهو دين أو لادين ، ايمانأو لا ايمان ، وبدأ عقلاء المسلمين يقولون « على الأقل » ان كل من كتابهالقـرآن ولا كتـاب له غيره ، وكل من يلوذ بسيدنا محمد باعتباره رسول الله فهذا هو حبل الله المتين الذى من تمسك به فقد فاز ونجا فى الدنيا والآخرة ، والله سبحانه وتعالى يقول :« انما المؤمنون اخوة » وما اخوة الايمان ، الا الايمان بالله الواحد الأحد والايمان برسولهسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وما زاد على ذلك فهو أمر طبيعى شاءه الله لعمار الكون فجعلالناس تتفاوت فى الفهم والقدرة ، وتتفاوت فى كل شىء ، فالاخوة الاشقاء تختلف صورهم ، أمزجتهموسلوكهم ولكنهم فى نهاية الأمر اخوة ينطوون على جوهر واحد ، وما عداه فخلاف فى التفاصيلوالأعراض ، وهو الأمر الضرورى لسير الحياة .

ابو بكر وعمـر :

ولا احسب انه وجد فى صحابة رسول اللهصلى الله عليه وسلم من هم أقرب اليه منهما ، حتى لقد اشبها ان يكونا وزيرين لسيدنا محمـدلولا أنه لم يكن حاكما ولا سلطانا وانما كان رسولا نبيا فلا وزراء له ، وذهب بعض المفسرين« وهو ما لا نذهب اليه » انهما كانا المقصودين بأمره تعالى : « وشاورهم فى الأمر » والأمرالمحقق أن رسول الله كان يستشيرهما ، ومع ذلك فقد كان الرجلان يختلفان تجاه القضـيةالواحدة ، فيشير أحدهما بعكس ما يشير به الآخر ، ومع ذلك فلا جدال فضلا عن شك فىأن الرجلين كانا اخـوة فليعتبر المسـلمون وليتعظوا وليرجعوا للتمسك بحبل الله المتين ،والذى يقول فيما يقول .

« ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون »

« كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

وتختم الآية الكريمة بالتعبير الخالد يخاطب بهمن نزل القرآن فى شأنهم ومن سوف يتلونه الى ابد الآبدين ، فالأوس والخزرج الذين رأوا رأىالعين كيف أوشكوا ان يقعوا فى نار الدنيا والآخرة لولا ان انقذهم سيدنا محمد ، ونحن الذين نطالعهذا القول بعد اربعة عشر قرنا ، يقول القرآن لكلينا : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »ولا تعقيب لنـا على هذا القول الا أن نقول : « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا معالشاهدين » .

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرونبالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون»

ونصل الآن الى آية سنقف امامها طويلا ،وسوف نقسم كلامنـا فيهـا الى قسمين نرجىء أحدهما الى ان تتكرر الآية بعد قليل .

ونكتفى هنا بالقول انه بعـد أن دعا الله سبحانه وتعالى الأمة الاسلامية الى التجمع وعدم التفرق والتمزق وأن ذلك لا يكون الا حول الكتاب والسنة ، دعا القرآن الكريم أن مثل هذه الوحدة والمحافظة الدائمة عليها هى أمانة فى عنق الصفوة من علماء الأمة ومفكريها وقادتها فأمر بأن يكون دائما فى الجماعة طائفة تنبه الى ذلك وتدعو له وتحـذر من مغبة التفـرق ، والفتن والخلافات العنيفة ، وذلك بأن تدعـو للخير وقد فسر البعض الخير بأنه الاسـلام ، وعندنا ان الأمر يجب أن يكون اكثر تحديدا ، فكل ما وقع او يمكن أن يقع من الفتن ، فهـو يقع باسم « الاسلام » بمعناه الذى لم تعـد له حدود متفق عليها فيجب أن يكون الاسلام هو ما جاء به القرآن وبينته السنة المحمدية طبقـا لما فهمه منها الصحابة وطبقوه بالفعل ، ولذلك فنحن نبارك كل دعوة تدعو للاغتراف من أصول الاسلام الأولى « القرآن والسنة » ولم ينهض المسلمون فى كل تاريخهم كمـا لن ينهضـوا فى المستقبل الا بالاستضاءة بنور القرآن والسـنة نصا وروحا ، فعندما يصف الله نبيه بأنه « لعلى خلق عظيم » وعندما يقول له « ولو كنت فظـا غليظ القلب لانفضوا من حولك » وعندما يصفه الله سبحانه وتعالى أنه «بالمؤمنين رءوف رحيم» فان أى داع للخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر ، يجب أن يتحلى بهـذه الصـفات ، وذلك نص الآية الكريمة « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » والمؤمنون « أشداء على الكفار رحماء بينهم » والنهى عن المنكر أعلى الصفات وأحسنها ولذلك فقد ادهشنا أن يخالف تفسير المنار ما قال به جمهرة المفسرين من أن حرف « من » هنا للتبعيض ، أى فلتكن منكم أمة « جماعة » وقال ان حرف « من » هنا هو للبيان أى أن المسلمين جميعا مطالبون بأداء هذا الواجب وهو أمر متعذر وان جاز أن يعرف كل انسـان الخير والشر وهو ما يدخل تحت الدعوة الى الخير فان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، مسألة تحتاج الى علم بما هو المعروف وما هو المنكر ، وهو مالا يعرفه الا من كان على قدر من العلم ، والقول بأن كل مسلم يجب أن يكون عنده هـذا القدر من العلم ، فيرد عليه بأن هذا القدر يكفى لجعله مسلما ، ولكنه لا يكفى ولا يمكن أن يكفى لكى يأمر وينهى الآخرين ، بما فهمه هو ، وهى مسألة لا مناص ولا فكاك منها فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو التزام نفر يتخصص لذلك ، وهو ما انتهى اليه تفسير المنار نفسه فتحدث عن « الصفوة » ولكن كلامه الأول بقى قائما ، حيث خالف الشيخ رشيد رضا واستاذه الشيخ محمد عبده ، جلال الدين السيوطى فى قوله : ان حرف « من » للتبعيض وليس هذا القول قول السيوطى فتجوز مخالفته وانما هو قول جمهرة المفسرين ، وسوف نذكر فى القسم الثانى الأحاديث التى جاءت عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وكيف تقسم الناس فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، شأنهم فى ذلك كأى أمر آخر ، الى درجات حسب امكانياتهم ، وفى حـدود استطاعتهم فليس كل الناس علماء وليس كل الناس سـواء فى الفهم والادراك .

ويخلص مما تقدم أننا نفهم من الآية الكريمة ما فهمه منها جمهرة المفسرين ، وهو أن الدعـوة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، هـو فرض كفاية ، أى يجب أن يتولاه فريق من الأمة والا أثموا جميعا ، قال تعالى :

« فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » .

« وأولئك هم المفلحون »

وختمت الآية بأن الدعاة الى الخير والأمـر بالمعروف والنهى عن المنـكر هم المفلحون أى

الفائزون الناجحون ، وأن يفوز المجتمع كله اذاهم فازوا ونجحوا ، ويخيب اذا هم قعدوا وتكاسلوا واحجموا .

« ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات واولئك لهم عذاب عظيم » .

بعد ان أوجب القرآن الكريم على المسلمين ان تكون بينهم جماعة على سبيل الدوام والاستمرار تدعو للخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، مما سوف نعود له بمزيد من الشرح . راح القرآن الكريم يحذر المسلمين مما وقع من قبلهم من أصحاب الديانات الأخرى ، وخاصة اليهود فالسياق يحدد هذه الخصوصية ، وثمة آيات في القرآن تندد باليهود على وجه التحديد ، لتوقفهم عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال تعالى: « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » .

وهذه الآية صريحة فى ان ما جعل اليهود مستحقين للعنة كونهم لم يكونوا يتناهون عن منكر فعلوه فعندما يدعو القرآن المسلمين ان يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، ثم يحذرهم من أن يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم ، فان الفكر يتجه لليهود على الفور على أن الآية تبقى على عمومها وتحذيرها من التفرق والتمزق وتكون المهمة الأولى ، طبقا للسياق ، لكل من يتصدى للأمر بالمعروف والنهى على المنكر ، أن يدعو للاجتماع والوحدة وهو ما أسماه القرآن الكريم « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » وتكون كل دعوة تؤدى بالمسلمين الى « التفرق » فيها نظر مهما تصور صاحبها أنه على حق .

وقد رأينا دعوات نكبت المسلمين بشتى النكبات حيث تصور أصحابها أنهم على حق فقتلة سيدنا عثمان ، وقاتل سيدنا على والخوارج وغيرهم كلهم تصوروا أنهم على الحق ، حيث كانوا يخالفون أمر الله الصريح « ولا تفرقوا » .

وها هو يحذر المسلمين من أن يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا» ولا يجب أن يخطىء متصور فيتصور أن بعض الخلاف فى المذاهب الأربعة، هو من نوع هذا الخلاف المنهى عنه فالمذاهب الأربعة ما كانت لتقوم لولا أنها متفقة ، بل ومجمعة على أساس الاسلام الذى يكفر كل من يحاول أن يتشكك فيه ، وهذا الأساس هو « القرآن والسنة » فاذا تفاوتت العقول فى فهم القرآن فذلك يجوز فقط فى حالة غياب السنة الشارحة والمبينة والموضحة ، أما عند ثبوت السنة المبينة والشارحة ، فهنا لا مجال لتفاوت فى الفهم ولا محل للاجتهاد فضلا عن الخلاف ومن هنا فما كان لمذهب من المذاهب الأربعة أو غيرها أن يناقش فى أصول الاسلام وانه بنى على خمس ، الشهادتين والصلاة والزكاة وصوم رمضان والحج لمن استطاع اليه سبيلا ولن تجد خلافا وما كان ليمكن أن يقوم حول عدد الصلوات فى اليوم الواحد ولا فى عدد الركعات فى كل فريضة ، وانما تفاوتت الافهام فيما سكت عنه الرسول ولم يبينه كأن يكون لبس هذا الزى مرة ثم لبس فى مناسبة أخرى زيا آخر فيدور التساؤل ويختلف الاستنتاج وهكذا .

فالمنهى عنه هو ضروب الخلاف التى تؤدى الى العداوة والبغضاء ، فليحذر أى داع للخير ان يفرق ، مهما كان ما يدعو اليه ، ذلك أن الجماعة ما بقيت متماسكة ، مترابطة يسودها الوئام والتآلف ولو فى أدنى الصور فمصيرها فى خاتمة المطاف الى الصلاح والخير ، أما المجتمع الذى تفرق فى ظل أى دعوة من الدعوات فمصيره الى الهلاك والدمار قطعا ، ولا يزال لحديثنا بقية .

« من بعد ما جاءهم البينات »

هذا هو المقياس والمعيار وشرط استحقاق العقاب ، فالله سبحانه وتعالى لا يندد بمن يدعو للتفرقة فضلا عن أن يعذبه الا بعد أن يقدم له البينة .

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »

وقد ساق الله للمسلمين سواء فى عهد سيدنا محمد عند نزول القرآن أو من بعده الى أبد الآبدين ، فحيث كان المسلمون على قلب رجل واحد فقد كان منهم ما كان ، ولن يعودوا لسابق مجدهم وعزتهم الا اذا عادوا مرة أخرى يدعون الى التجمع والترابط والوحدة مسقطين كل ضروب الخلافات بينهم ما لم تكن انكارا للقرآن والتوحيد ورسالة سيدنا محمد ، فهنا وهنا فقط لا يكون المخالف مسلما .

« وأولئك لهم عذاب عظيم »

ويتوعد الله سبحانه وتعالى كل من يفرق صفوف المسلمين ـ لأى سبب من الأسباب ـ بأن له عذابا عظيما ، وهذا العذاب قد يقع فى الدنيا أو لا يقع ، ولكنه واقع حتما يوم القيامة .

« يوم تبيض وجوه وتسود وجوه »

وكان لأخ أفريقى فاضل من جنوب أفريقيا يقيم الآن فى مصر فضل لفت نظرى الى أن دعاة العنصرية يزعمون أن الله سبحانه وتعالى يكنى بالسواد عن كل ما هو ردىء وسىء وبالبياض على كل ما هو حسن وطيب ، ولا شك أن من يرددون هذه المزاعم يشيرون الى هذه الآية وأمثالها من الاشارات ، وهذا ما يجعلنا نقف أمام هذه الآية لنقضى على هذه الشبهة .

القرآن والاسلام والتفرقة العنصرية :

ونبادر فنقول أن الدنيا لم تعرف ولن تعرف مبادىء قضت على التمييز العنصرى كما فعل القرآن وكما طبقه المجتمع الاسلامى بالفعل ، فالقرآن هو القائل :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

فنحن ازاء حقيقة يسجلها القرآن من ان البشر جميعا قد انحدروا من آدم وحواء ، أبيضهم وأسودهم وأحمرهم وأصفرهم على السواء ، ولم يقل القرآن الكريم هذا الهراء الذى نراه فيما يسمونه بالعهد القديم من أن الله لعن حام « الأسود » وسجل عليه أن يبقى هو ونسله عبيدا لنسل أخوته البيض ، هذا هو هراء اليهود واذا كان السخفاء من المنادين بالتمييز العنصرى يقفون عند هذا القدر ، فان اليهود يذهبون الى اعتبار البشر جميعا من غير اليهود هم عبيد مسخرون لهم ، كل هذه خرافات اسرائيلية جاء القرآن الكريم يدحضها ويستنكرها فنراه بعد أن يقرر وحدة الجنس البشرى ، يجعل السبب الوحيد للتمايز التقوى ، « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » وحديث بلال رضى الله عنه وتكريم الرسول له أشهر من أن تعرف ، وقد حدث مرة أن سبه أبو ذر فقال له « يا ابن السوداء » فنبهه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : « انك امرؤ فيك جاهلية » وعندما فتح سيدنا محمد مكة ، أبى الا أن يعلو بلال الكعبة ويؤذن ، حتى قال بعض أشراف قريش الذين ظلوا على كفرهم أنه كان خيرا من أعظم الخير أن موت آبائهم قبل أن يشهدوا هذا اليوم « الأغبر » وفى خطبة الوداع بالذات حذر سيدنا محمد المسلمين الى أبد الآبدين

ان يميزوا ويفضلوا بين الناس تبعا لحسبهم او الوانهم ، فانما هو العمل الصالح والعمل الصالح فقط ، واما الناس : « فكلكم لآدم وآدم من تراب » .

فالاسلام قرآنا وسنة وعملا وتطبيقا قد شجب وقضى على كل تمييز عنصرى .

فاذا راينا القرآن الكريم يستخدم اللون الأبيض ليكنى به عن الخير ، والأسود ليكنى به عن الشر او عن السيء والمكروه ، فليس ذلك الا استعمالا لألفاظ عربية لأحداث أثر اعتاد اللفظ ان يحدثه فى نفوس سامعيه ، أما نحن فنفهم من لفظ الأبيض والاسود المعنى الذى يقصده القرآن وقد عبر عنه بشتى التعبيرات فى آيات أخرى ، مثل قوله تعالى :

« وجوه يومئذ ناضرة » .

« ووجوه يومئذ باسرة » .

أو قوله تعالى « ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة » أو قوله تبارك وتعالى « وجوه يومئذ خاشعة » ويضع فى مقابلها « وجوه يومئذ ناعمة » فالقرآن الكريم يكنى فى كل هذه التعبيرات عن الضدين ، السعيد والشقى ، المؤمن والكافر ، أهل الجنة واهل النار .

فعندما يحدثنا القرآن عن البياض والسواد فالمقصود هو التضاد فى المصير عبر عنه بالصيغة المستعملة عند من نزل القرآن بلغتهم ليفهموه وغير خاف أن العرب فى جاهليتهم كانوا يستنكرون الشخص ذا اللون الاسود ويعتبرونه عارا ما بعده عار وقصة عنترة بن شداد معروفة ومشهورة فقد كان أشعر شعراء قبيلته ، وبطل ابطالها فى الفروسية ومع ذلك فقد ظل أبوه ينكره لمجرد سواد لونه .

وهنا تتجلى معجزة الاسلام فوسط هذه البيئة استطاع أن يقضى على هذه النعرة ، اما ان يظل القرآن يستعمل اللغة العربية ، وبالتالى التعبيرات التى درجوا على استعمالها فذلك لا مناص ما دام الله سبحانه قد شاء أن ينزله قرآنا عربيا يخاطب به أول ما يخاطب العرب ، انظر الى قوله تعالى « واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم » وغنى عن البيان أن من ولدت له أنثى لا يتغير وجهه من البياض الى السواد ولكن هكذا شاء التعبير العربى ليكنى عن منتهى الضيق والحنق .

وخلاصة القول أن البياض والسواد نسبيان ويستعملان للتعبير عن ضدين يختلفان باختلاف الظروف فبياض الشعر على سبيل المثال مكروه حيث يحرص الكثيرون على سواد شعرهم وعندما اختار المتنبى أن يجيء الى مصر ليمدح كافور حاكم مصر وهو اسود اللون راح يبرز فى كل أشعاره خطورة اللون الأسود واهميته ولم يفته أن ينوه بسواد العين ، وبسواد المسك والعنبر وهكذا ، واليوم فى بعض بلاد أفريقيا قد نرى الكراهية للبشرة البيضاء ، مما يجعلنا نهيب بهم ان لا يقعوا فيما وقع فيه الرجل الأبيض من قبل . ويكون تفسير الوجوه البيضاء يوم القيامة اى المنبسطة المستبشرة التى تتلألأ بهجة وسرورا ، واقرأوا ان شئتم : « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة » يستوى فى ذلك بطبيعة الحال اكانت وجوههم فى الدنيا بيضاء أو سوداء والعكس بالعكس .

« ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة » .

وفى هذه الحدود يجب أن نفهم التعبير بالأبيض والأسود .

وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ
فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾
وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ
ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ
أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ * لَيْسُوا۟ سَوَآءً

« فأما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

والراى على أن هذا القول يساق لمن كفروا بعد ايمانهم يوم القيامة ويرى صاحب المنار ان القول هنا هو بيان للشأن وليس الحكاية ،أى أن شأن الكافرين الذين اسودت وجوههم يكون المصير الى النار « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وليس الحكاية ، أى أن أحدا لا يقول لهم ذلك وانما هذا سيكون شأنهم ومصيرهم ،ولا اعتراض لنا على أن يفهم شيخنا هذا الفهم ولكن أن يقطع الشيخ ويجزم ويقول « بل هذا هو المتعين عندى » فنحسب أن ما يجرى فى يوم القيامة هو من الغيب الذى لا يتعين عند أحد من البشر .

« وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » .

رحمة الله ، هنا تعنى الجنة ولا نفهم منها الا هذا فالحديث هو عن يوم القيامة ، وعذاب الله يوم القيامة صورته الكبرى هى النار يصلاها الكافرون ، وتكون رحمة الله التى استحقها المؤمنون هى الجنة فى المقابل ويؤكد هذا التعبير « هم فيها خالدون » .

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين . ولله ما فى السموات وما فى الأرض والى الله ترجع الأمور » .

ما تلوت آية من مثل ما نحن بصددها الا وهتف قلبى : صدق رسول الله فى أن هذا القرآن هو وحى الله الذى أنزل عليه ، فما كان لهذا الصادق الأمين الذى عاش طول عمره لا يكذب على أحد أبدا « ثم يتصور متصور أحمق » انه أول ما يكذب يكذب على الله ، «حاشاه» .

فعندما تقول الآية الكريمة « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » ففى هذا اللفظ « بالحق » السر كله .

« وما الله يريد ظلما للعالمين » .

اى ان الله سبحانه عدل كله فما كان ليظلم البشر مهما ضلوا وانحرفوا الا بعد أن يرسل اليهم النذير يحذر وينذر ويهدى الى الصراط المستقيم ، « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

« ولله ما فى السموات وما فى الأرض » .

تذكير مستمر متواصل لقدرة الله التى لا يحدها حد ، ويعيا العقل البشرى عن ادراكها فضلا عن الاحاطة بها .

فليس هناك ما يوصلنا الى الله سوى أن نتمثل بعض مظاهر قدرته سواء فى أنفسنا أو فيما يحيط بنا ، وفى هذه الآية الكريمة التى تتكرر كثيرا فى القرآن الاشارة الى ملك الله الذى لا يحده حد ، وأن كل ما فى السموات والأرض بعض ملكه .

وقد جاء حين من الدهر تصور الانسان فيه انفسه شيئا مذكورا فكان ان أخرجه الله عز وجل من نطاق الكرة الأرضية وأصعده الى القمر لترى البشرية نفسها من جديد لا تزيد بالنسبة لملك الله العريض عن نملة تدب بين الجبال .

« والى الله ترجع الأمور » .

فليتدبر ، ليتدبر هؤلاء الحمقى الذين يكفرون بالبعث والنشور أن الله الذى وسعت قدرته السموات والأرض لن يعجز عن استرجاع كل ما خلق وعلى رأسه الانسان ، فكل شىء ، ونكرر كل شىء ، راجع الى الله عز وجل ، والرجوع هنا بكل ما تشعه من معان ، فيدخل فيها معنى « العودة » فكل شىء سيعود اليه « ان الى ربك الرجعى » كما قد يكون معناها ، انها لا تقوم الا به ، فهو سببها الدائم وخالقها وموجدها ، ومدبرها ومرجعها .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

وعدنا أن نتحدث عن هذا الموضوع باستفاضة ، ذلك انه موضوع الساعة من ناحية ، ولأن لنا فيه تجربة خاصة أصبح دينا فى عنقنا أن نضعها تحت أعين جماهير المسلمين الذين أصبحوا يموجون بكل صنوف الدعوة الى المعروف والنهى عن المنكر .

من رأى منكرا فليغيره :

تستهل هذه الآية بالثناء على المسلمين واستحقاقهم أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، اى أن ذلك شرط لازم للمسلمين فى كل زمان ومكان ليستحقوا أن يوصفوا فى مجموعهم بالمسلمين ، وهكذا الزم الاسلام المسلمين ، لا أن يقفوا عند حد اعتناق الحق ، بل وأن يكونوا دعاة للحق والخير . وفى الحديث الشريف : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الايمان » .

اجتهادى الخاص :

وقد حدث منذ أربعين سنة أن حاولت أن أضع مع أخوان لى هذا النص موضع التطبيق ولما كان انتشار الخمر فى تلك الأيام يمتد الى كل شارع وحارة ، فقد قررنا أن نهاجم الحانات

ونحطم ما بها من زجاجات ، وهاجت الدنيـا وماجت وقررت الدولة أن تضربنا بشدة بالغة ، ولم يدهشنا ذلك فى قليل أو كثير فقد كانت مصر لا تزال تدار بسلطان الانجليز وحسابهم ، وانما كانت الدهشة عندما فوجئت فى السجن بمقال فى احدى المجلات الدينية ــ لسـان حال حركة اصلاحية ــ يعترض على هذا التصرف من ناحيتنا ويراه مخالفا لما يجب أن تكون عليه الدعـوة بالمعروف والنهى عن المنكر ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، واذكر وقتها أن عقلى طاش وتصورت أن ذلك من نوع المهاترات الحزبية ، ولكننى عندما شرعت أدرس الموضوع تمهيدا لاعداد مرافعتى « وكنت قد قدمت لمحكمة الجنايات » اذا بى اكتشف أن هذا الرأى هو ما اتفقت عليه المذاهب الأربعة من أن تغيير المنكر باليد ــ أى باستعمال القوة على اي وجه من الوجوه ــ لا يكون الا لولى الأمر ، أى بأذنه وسلطانه والا لانقلب الأمر الى مضرة ومفسدة قد تفوق الأمر المعترض عليه كأن تحاول أن تسكب كأس الخمر فيلطمك صاحب الكأس فتدخلا فى عراك قد ينتهى بموت شـارب الخمر فتكون قد ارتكبت اثما فظيعا لمحاولتك منع اثم اقل فظاعة وهكذا ، ومن هنا قصر الفقهـاء التغيير باليد الى ولاة الأمور .

ومن اللطيف أننى وعيت هذا الدرس جيـدا منذ هذا التاريخ ، حيث جهله من نادوا به ، وظل المجتمع المصرى يفرز شبابا يصطنع العنف لتغيير المنكر ، ومن أجل هؤلاء سقت التجربة ليعرفوا أن محاولة استعمال اليد أى القوة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكـر هى اختصـاص الحاكم .

فان لم يستطع فبلسانه :

ويبين ذلك من عدم الاستطاعة فما دام شرب الخمر مصرح به بموجب القوانين فلن تستطيع ان تغير ذلك بكسر زجاجة خمر ، بل قد تكسر رأسك ، ويكون التغيير باليد أى بالفعل والقوة هو عمل السلطان ويجب أن يحاسبه المسلمون ان هو قصر فى ذلك .

المرتبة الثانية التناصح :

أى الدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عن طريق اللسان أى عن طريق القول، ومرة اخرى ينبه الحديث الشريف ان يكون ذلك فى حدود الاستطاعة ، وهذه الاستطاعة لاتعنى مجرد تحريك اللسان والنطق ، ولكنها الاستطاعة فى حدود قاعدتين أساسيتين :

الأولى « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » .

الثانية : « ادع الى سـبيل ربك بالحـكمة والموعظة الحسنة » .

ويكفى أن يشتمل القرآن الكريم الى أمر من الأوامر فى أى صيغة من الصيغ ، ولو مرة واحدة لكى يكون أمرا عاما شاملا واجبا فى كل الأحيان، ولكن القرآن الكريم عزز هذا المبدأ بحديثه عن « التقية » بمعنى أن يتقى الانسان ما قد يعرضه جهره بما يعتقد انه الحق الى ضرر محقق « الا أن تتقوا منهم تقاة » فدل ذلك على أن الانسـان مأمـور أمرا الى أن لا يعرض نفسـه لأضرار محققة ، وهى احدى خصائص الاسـلام التى جعلته دين الانسانية فى كل زمان ومكان ، وهو معرفته بضعف النفس البشرية ، فلم يكلفها الا فى حدود طاقتها ، ومن هنا كان الأمر بعدم القاء النفس فى التهلكة .

فاذا تصورنا أن انسانا ـــ ما ـــ رأى فى جهره ما لا يعرضه للتهلكة فان ذلك لا يكفى فى تحقق الاستطاعة ، فالاستطاعة هنا ليست مجرد القدرة على النطق ، وانما هى استطاعة علمية ، أى معرفة ما هـــو معروف ، ومـــا هو منكر وهـــو مالا يتأتى للكثيرين ، ويكفى أن أذكر للمسلمين المثل الآتى حتى لا يلقوا بالكلام جزافا وبدون بينة واضحة :

خليفة المسلمين كأى فرد من الأمة أمام شرع الله :

حدث أثناء خلافة سيدنا عمر أن شهد بعينى رأسه واقعة زنا . فتساءل وهـــو على المنبـــر « ما الشأن اذا رأى أمير المؤمنين واقعة زنا وكان هو الوحيد الذى رآها » فقال له سيدنا على رضى الله عنه « حذار من أن تسمى الشخصين، والا طالبناك بثلاثة شهود آخر ، فان لم تجىء أقمنا عليك حد القذف » ولا يتصور متصور أن هذه مجرد حكاية فنص القرآن صريح وقاطع أن كل من يرمى محصنا « بالزنا » فلا مناص من أن يشهد معه ثلاثة آخرون والا كان قاذفا ،والقرآن الكريم لم يفرق بين أمير المؤمنين وغيره من سائر المؤمنين ، فعلى من يتصور نفسه قادرا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أن يكون عارفـــا على أقل تقدير بحدود ما يأمر به أو ينهى عنه .

القاعدة الثانية :

الدعوة بالحكمة والموعظة الحســـنة ، فاذا انتهينا من تحقق الشرط الأول شرط العلم والمعرفة، فقد حل الشرط الثانى شرط الحكمة والموعظـــة الحسنة ، وقد قدمنا أنه بحسب القرآن الكريم أن يذكر الأمر مرة واحدة ليكون عاما شـــاملا فكيف عندما يفصله ويؤكده ويقدم صورا ونماذج لكيفية الحكمة والموعظة الحسنة فى الدعـــوة الى سبيل الله .

قال تعالى : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيســـبوا الله عـــدوا بغير عـــلم » « الانعـــام ١٠٨ » .

فانظر يارعاك الله الى أى حد يصور الله سبحانه وتعالى كيفية الحكمة فى أداء الرسالة فمعلوم أن الاسلام يقوم أول ما يقوم على التوحيد ومحاربة الوثنية والأصنام ، ولابد أن أناسا من المسلمين ممن ملأ الله قلوبهم بالايمان راحـــوا يتحدون عبدة الأصنام ووصلوا فى حماسهم فى التحدى الى حد سب الأصنام ، فكان الآخرون يردون على سب الأصنام بسب الله ، فنزل القرآن الكريم ينهى عن سب الأصنام فأنت ترى أن الهجوم على الأصنام وهو جوهر الاســـلام لا يكون بالسب والشتم وقد كان أقصى ما قاله القرآن الكريم لا يزيد عن قضية عقلية تقوم عليها الأدلة الحسية من وصفها بأنها لا تنفع ولا تضر ،لا تسمع ولا ترى فضلا عن أن تنطق أو تتحرك فعندما حطم ابراهيم الأصنام ، دفع عن نفسه بما يلزم عباد الأصنام باقرار أن الأصنام لاتتحرك ولا تفعل شيئا ولا تنطق « قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم ان كانوا ينطقون » «الأنبياء ٦٣».

فأنت ترى أن السب والاهانة خارج الموضوع حتى لو كان الأمر بالنسبة للأصنام . ويصل الحد بالقرآن الكريم أن يقول ملخصا القضية ، بين دعوة سيدنا محمد التى كلها حق وكلها نور وبين قضية الكفار وكلها باطل وكلها ظلام « لكم دينكم ولى دين » ويصل ذلك الى ذروته عندما يوجه القرآن الحديث الى الرسول فيقول له « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » أى ليس يكفى أن تكون دعوة سيدنا محمد هى الحق لكى يتبعه الناس ، وانما صفته الرئيسية فى أنه ليس فظا غليظ القلب .

وهكذا تتضافر آيات القرآن الكريم من أولها الى آخرها فى وجوب تحلى الداعى بما يجعله محببا اليفـــا .

وعندما يأنس انسان من نفسه توفر هذين الشرطين : شرط الاستطاعة والمعـرفة التى تؤهله ، وأن يكون سبيله الى الدعوة هو الحكمة والموعظة الحسنة ، فيلزمه الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر .

فان لم يستطع فبقلبه :

وعندنا أن الكثيرين بل والكثيرين جدا لايدركون المعنى المطلوب ، فهم يتصورون أن بحسبهم أن ينكروا « فى قلوبهم » وانتهى الأمر فلا عليهم أن يرتكبوا هم عين ما ينهـون عنه فيأمـرون بالمعروف ثم لا يفعلونه هم وينهون عن المنـكر ويرتكبونه هم فترى من يدعوك للاحسـان ثم لا يحسن هو ، ومن يدعوك لصلة الرحم حيث يمزق هو رحمه ، ومن ينهى عن الظلم والاسراف ، ويتصور أن ذلك هو شأن الحكام ، ويظلم هوفى محيطه ويسرف ناسيا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

والخلاصة فليحـــذر الذين يتصـورون أن بحسبهم أن ينكروا فى داخل أنفسهم مايتصورونه خطأ ثم يقعوا فى نفس هـذا الخطـأ من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، وعندنا أن الـوقت الحاضر هو الذى اصبح يتطلب من كل مسلم أن يفعل المعروف وينتهى عن المنكر هو نفســه قبل أن يكلم الآخرين ، ولعل ما نحن فيه اليوم هو ما ينطبق عليه قول القرآن الكريم :

« يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » .

واذا كانت بعض الروايات تقول أن سيدنا أبا بكر رأى أن ذلك شريطة أن تكون الدعـوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قائمة ومستمرة ومتواصلة ، فليس هناك تعارض بين القولين ، واحسب أنه لا يوجد عاقل يتصور أن سيدنا أبا بكر يقول أؤمروا بالمعروف ولا عليكم بعد ذلك أن لا تفعلوه وانهوا عن المنكر ولا عليكم أن تفعلوه ، وتكون الآية قائمة بكل مدلولها :

« ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » .

الدعوة بترتيب الآية :

يبقى بعد ذلك ما قاله الشيخ محمد عبــده من أن الأمر عام لكل مسلم ، وما رآه جمهرة المفسرين من أن الدعوة « لنفر » أى طائفة وأن حرف «من» هو للتبعيض ، وقد قدمنا أننا مع هذا الرأى ، ونضيف هنا أن الأمر يتـدرج بحســب ترتيب الآية ، بحيث أن الأمر يلزم البعض فالأقل والأقل .

— يدعون الى الخير .

— ويأمرون بالمعروف .

— وينهون عن المنكر .

فاذا كان الخير هو احدى فطر الانسان ، فان من المتصور ان يقدر على الدعوة الى الخير عدد كبير من الناس .

حتى اذا جئنا للأمر بالمعروف ، فان عدد من يستطيعونه يكون أقل .

ذلك ان المعروف فى ظل القرآن هو ماجاء به القرآن والسنة ، ومفروض ان لا يحيط بما جاء فى القرآن والسنة كل مؤمن ، اذ يكفى أن يشهد انسان بأن الله واحد وأن سيدنا محمدا عبده ورسوله ليكون مسلما ، ومازاد على ذلك فهو فى حاجة لعلم ومعرفة الوقت اللازم لتحصيلهما ، والمصدر الموثوق للتلقى عنه ، فالدعوة الى الخير اعم واشمل ، فاذا انتقلنا الى « الأمر بالمعروف » فهى تتخصص وبالتالى تضيق ، حتى اذا وصلنا الى « النهى عن المنكر » فان التخصص يزداد وتضيق الدائرة أكثر واكثر ، ذلك لأن تحديد ما هو منكر فى حدود الشرع يحتاج الى دراسة، فضلا عن أن وجهات النظر قد تختلف فيه باختلاف البيئات والعصور فلا ينبغى لأحد أن ينكر على آخر أمرا من الأمور قبل أن يكون على علم أن ما ينكره هو محل اتفاق من الجميع .

وبعد هذا التمهيد الذى وعدنا به لنستكمل بحثنا فى موضوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نشرع فى تفسير الآية التى كانت هى السبب فى تجزئة بحثنا :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

هنا ويكثر المفسرون من الكلام حول الثناء على المسلمين ويتساءلون بطبيعة الحال « اى المسلمين هم خير أمة أخرجت للناس » ؟ ويجيب البعض بأن المقصود هم صحابة رسول الله .

والذى لا شك فيه أن من كانوا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم هم أول من خوطب بالقرآن ، ونزل بسبب وقائع وأحداث تمت فى أيام الرسول ، ولكن القرآن كان ينزل عاما غير مرتبط بالواقعة المحددة التى نزل بمناسبتها « وهذه هى احدى أسرار الاعجاز القرآنى » .

فنحن بازاء آية تصف المسلمين بأنهم « خير أمة أخرجت للناس » فيجب أن يؤخذ ذلك على اطلاقه بالشروط التى حددتها الآية وقد حاول البعض أن يستنتج من التعبير بالماضى « كنتم » ان المقصود بالآية هم صحابة رسول الله ، وهذا مردود عليه بأن القرآن يعبر عن الحقائق بالصيغ الثلاث « الماضى والحاضر والمستقبل » . ذلك أن علم الله قديم وأزلى وخالد وهو خارج عن الزمان والمكان .

فالخيرية الموصوفة بها أمة محمد هى خيرية كانت وهى كائنة وسوف تكون والأمور دائما نسبية ولا يخلو المسلمون فى كل زمان ومكان من أشخاص هم زينة الدنيا وبهجتها من حيث :

١ — الأمر بالمعروف .

٢ — النهى عن المنكر .

٣ — الايمان بالله .

ومعلوم أن الايمان بالله يجيء دائما فى المقدمة لانه هو الأصل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو من الأعمال الصالحة التى تترتب على الايمان ، ولكن شاء الله أن يبدأ بذكر العمل «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» اظهارا لاهميته وخطورته فى سلامة المجتمعات ولكى يبرأ المجتمع الاسلامى مما تردى فيه المجتمع اليهودى :

« كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون » .

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو سمة المجتمع الاسلامى ، شريطة أن يظل فى دائرة محصنة بالعلم والحكمة والموعظة الحسنة .

« ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » .

أى لو آمنوا كما آمنتم بسيدنا محمد لكان خيرا لهم هذا هو المعنى الذى يحتمه السياق تحتيما ، فالمسلمون هم خير أمة أخرجت للناس وقد استحقوا هذه الأفضلية بالشروط التى قدمناها ، فلو أن أهل الكتاب آمنوا بما آمن به المسلمون لدخلوا فى هذا الخير العميم « لكان خيرا لهم » .

« منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون »

هنا ويقرر جمهرة المفسرين أن المقصود هو من آمن من اليهود وأعلنوا اسلامهم من مثل عبد الله بن سلام ، ونحن لا يسعنا الا أن نثبت ما قالوا فقد كانوا أقرب منا الى فهم القرآن الكريم هذا الفهم ، ولكن ذلك لا يمنعنا بحال أن نفهم .

فوق ذلك أنه كان هناك من يؤمنون بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ولكنهم لا يعلنون ذلك لأى سبب من الأسباب ، كما حدث ذلك فى صفوف المشركين فى بادىء الأمر ، حيث كان فيهم من آمن وكتم ايمانه ، وقد كان ذلك بالذات هو أحد الاسباب التى دفعت سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم عن عدم القتال فى عام الحديبية ورجوعه بالمسلمين الذين كانوا يرغبون فى اقتحام « مكة » عنوة « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم » الآية .

فليس هناك ما يمنع أن يكون هذا هو الحال فى صفوف اليهود « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » وجهة نظرنا أنه ما دام الحديث يدور حول أهل الكتاب فيجب أن نخرج دائما منهم من أسلم بالفعل فهؤلاء قد أصبحوا فى عداد المؤمنين المسلمين ، وأكثرهم الفاسقون ، هذا هو الحكم الالهى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أن أغلبية أهل الكتاب ، فاسقون أى مائلون عن الحق منحرفون عنه ، لا يعملون بأوامر الله ووصاياه ولا ينتهون عما نهى عنه .

« لن يضروكم الا أذى وأن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » .

عندما يتحدث القرآن الكريم عن أهل الكتاب فذلك تعميم ، والوصف الذى ورد فى سياق الآيات التالية قد خصص هذا التعميم بأن المقصود هنا هم اليهود فقد كانوا هم الذين يجاورون المؤمنين عند نزول القرآن فى المدينة وكانوا هم الذين زعموا انهم لو قاتلوا سيدنا محمدا لفعلوا وفعلوا ، فلما جد الجد فروا هاربين مهزومين مدحورين ، وتمضى الآيات فتعدد الصفات الملازمة لليهود والتى تحدث عنها القرآن فى سورة البقرة ، ولقد كان من نعم الله وفضله علينا على ما نوهنا فيما سبق أن جعلنا لا نتصدى لتفسير سورتى البقرة وآل عمران ، الا بعد فضيحتهم فى رمضان والتى جعلت كبيرتهم تهيب بأمريكا « أن انقذوا اسرائيل » وهم الذين كانوا قد ملأوا الدنيا ضجيجا ، أنهم أعظم قوة فى العالم « على الأقل فى منطقة الشرق الأوسط ».

« لن يضروكم الا أذى »

الكلام هنا موجه الى أول من خـوطب به القرآن الكريم وهم جماعة المسلمين على أيـام رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن انظر يارعاك الله الى سر القرآن وحوله وقوتـه ، وانه يستحيل أن يكون من صنع بشر والا لكان مجرد تاريخ يتحدث عن وقائع مضت وانتهت شأن أى كتاب يكتبه انسان أيا كانت درجـة قدرته وعظمته « وعبقريته » انما هو تنزيل من العزيز الحكيم ، الذى يعلم من خلق وهو هنا يحدثنا عن أخص خصائص اليهود ، وها نحن أولاء نشهد بعد ألف وأربعمائة سنة ، مايجعلنا نقول : « صدق الله العظيم » .

« لن يضروكم الا أذى » هكذا كانوا يفعلون على أيام رسول الله وهكذا لازالوا يفعلون بحيث يكتسب القول كما هو شأن القرآن دائما نضارة وحيوية وفاعلية « لن يضروكم الا أذى » أى بالكلام والايذاء عن طريق اللسان وعند بعض المفسرين « الا ضررا يسيرا » وقد جاء فى معجم ألفاظ القرآن : أن الأذى هو الضرر الذى يصيب الانسان « حسا أو معنى » وهو ما نأخذ به هنا فى معنى الآية من أن الضرر الذى يسببه اليهود لايمكن الا أن يكون « محدودا » والحدود كماتكون فى الكيف ، فقد تكون فى الكم من حيث الزمن أى لفترة قصيرة ، والذى يعنينا أن الآية صريحة وقاطعة « لن يضروكم الا أذى » فان معنى ذلك أن الضرر لن يكون بالغا أو عميقا فضلا عن أن يكون دائما ، وأينا لا يؤذيه كلام اليهود صـباح مساء من أنهم سيفعلون ويفعلون ، أينا لا يؤذيه غطرسة اليهود وصلفهم وادعاءاتهم ووقاحتهم، هكذا كانوا على أيام رسـول الله يتغـامزون ويكيدون . وعندما تواتيهم فرصة للتحدى بالكلام لا يتركونها ، عندما انتصر المسلمون فى غـزوة بدر سارع اليهود يقولون : لايغرن محمدا ما حصل عليه من نصر فمازاد على أن واجـه جمـاعة لا يعرفون فن الحرب ، اما لو واجهنا لعلم والله اننا نحن الناس . هكذا كان اليهود يثرثرون والله يعلم أنهم لكاذبون ، ولكن هكذا شاءت طبيعتهم العدوانية التى لابد أن تؤذى .

« وان يقاتلوكم يولوكم الأدبار »

وهذه هى صورة اليهود عندما يحاربون خارج الحصون والقلاع فانهم يولون الأدبار أى يفرون منهزمين . « لا يقاتلونكم جميعا الا فى قـرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شـديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قـوم لا يعقلون » . وهكذا وصف القرآن الكريم حرب اليهود وقتالهم فهم بين واحد من أمرين :

١ ــ اما أن يحاربوا فى قرى محصنة أو من وراء جدران من أى نوع كان .

٢ ــ واما أن لا يحاربوا ويولوا الأدبار بمعنى أن لا يلتحموا أبدا اذا استطاعـوا الى ذلك سـبيلا .

ولولا خوفنا من الاطالة بأكثر مما يحتمله المقام لرحنا نستعرض حرب اليهود منذ استقروا فى فلسـطين ، حيث لم يخرج أمرهم عن هـاتين الصورتين ، اما فى قرى محصنة أو وراء جدر ابتداء من مستعمراتهم المحصنة وانتهـاء بخط بارليف وحرب الدبابات « التى هى جـدر من الفولاذ » اما فى العراء والقتال وجها لوجه فليس أمامهم الا الفرار .

« ثم لا ينصرون »

هذه هى المحصلة النهائية لحروب اليهود أن لا ينصروا أبدا ، اجل قد يفوزو فى معـــركة أو معركتين نتيجة اخطاء وتقصير من يواجههم من المسلمين ، ولكنهم لاينتصرون أبدا بمعنى أن تتم الغلبة لهم ويستسلم لهم المسلمون .

« ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضـــب من الله وضربت عليهم المسكنة » .

مفــردات :

ضربت عليهم الذلة : تقول « ضربت الصكة اى النقود ، بمعنى صكت ونقشت ، فعندما يصف القرآن الكريم اليهود بأنه « ضربت عليهم الذلة » اى ان الذل هو طابعهم وهو الشعور بالقهـــر والانكسار ، وقد ولده فى نفوسهم الشعور بأنهم فقدوا السلطة ولما كانت السلطة فى تصورهم هى السيادة على العالم كله ، فسيظلوا الى ابـــد الآبدين مدموغين بطابع « الذل » ويتجلى ذلك فى قسوتهم ووحشيتهم اذا ما واتتهم فرصـــة يكونون فيها ذوى سلطان « مؤقت » كما هـــو شأنهم فى اسرائيل ، حيث تـــرى « عقـــدة » الاحساس بالذل تدفعهم الى اجـــراءات شـــاذة ووحشية لا يقدم عليها انسان يشـــعر بالعـــزة والكرامة والاحترام .

« اينما ثقفوا » : اى حيثما وجدوا

« الا بحبل من الله وحبل من الناس »

والحبل هو السبب ، وعند الكثير من المفسرين ان الحبل هنا يعنى العهد أى ان الأصل فى اليهود أن يكون طابعهم هو الذل « والمسكنة كما سوف يجىء » الا أن يستثنى من ذلك حـــالة تأمين الله لهم بأن يجعلهم فى ذمة المسلمين ، أو ان يؤمنهم الناس بأى وجه من الوجوه « معاهدة ، قانون ، دستور .. الخ » ونحن نريد أن نفهم من تعبير « بحبل من الله » أى متى يشاء الله ، فهو يشاء ما يريد بموجب حكمته ، فيهيىء لليهود حبلا من الناس ، اى عهدا من الناس ، يعيش اليهود فى ظله كما تعيش بقية الناس ولـــكن اليهود لا يلبثون بعد قليل من الوقت أو كثير أن يعودوا لطبيعتهم مما سوف تذكره الآية فيغضب الله عليهم ويضرب من جـــديد عليهم المســـكنة « وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة » .

وباءوا اى رجعوا الى غضب الله ، ويرى بعض المفسرين أن معنـــــاها : كانوا حقيقين ، أى مستوجبين لغضب الله ، والمعـــانى كلها واحدة . المســـكنة : تصـــور بعض المفسرين القدامى ان المسكنة تعنى « الفقر » وربما يكون قد دفعه الى هذا التصـــور ماكان عليه أغلب اليهود فى العالم الاسلامى حيث كانوا يمارسون أدنأ الحرف ، ولكن اليهود استطاعوا فى ظـــل المجتمع الغربى أن يحولوا نظام العالم الاقتصادى الى نظام ربوى وبالتالى اصبحوا ملوك المال ، فخرجت المسكنة عن أن تـــكون هى الفقـــر ، والمسكنة من السكون عن الحـــركة ، وهـــذا السكون يكون نتيجة الضعف والعجز أو شعور الانسان بالحاجة الى ما لا يقوى على الحصول عليه ، فيكون مسكينا ازاء ما يرغب الحصول عليه وعدم استطاعته ذلك ، ومن هذه الناحية فسيظل اليهود ما بقيت الأرض ارضا والسماء ســـماء سيظلون « مساكين » لأنهم يحلمـــون بالسيادة على العالمين وهم أهون من ذلك واذل.

« ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون».

وتشاء ارادة الله العلى القدير ان يغرس فى الناس معنى العدل ، واحد مظاهره ان يعلم اى انسان ادين وحكم عليه ، بماذا استحق الادانة والحكم ؟ فاذا سأل سائل من اليهود هذه اللعنة الأبدية ، ان يعيشوا مغضوبا عليهم من الله ، مستحقين أن يعيشوا ابدا فى الذل والمسكنة فيرد القرآن على هذا السؤال :

- ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله .
- ويقتلون الانبياء بغير حق « أى عن عمد وعلم بما يفعلون »
- ذلك بما عصوا
- وكانوا يعتدون

القرآن الخالد

وعندما فسر الشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا القرآن كانت دولة اسرائيل لا تزال فى عالم الغيب ولم يكن يطوف بخيال احد فى الشرق او الغرب « ما عدا الصهيونيين » ان ستقوم دولة يهودية على العدوان ثم تعيش بعد ذلك تتغذى وتتنفس عدوانا ، ومن هنا نرى الشيخين الجليلين يقولان فى تفسير المنار : « ولهذا نسب الى متأخريهم عمل متقدميهم ، والامم متكافلة ينسب الى مجموعها مافشا فيهم وان ظهر بعض آثاره فى زمن دون زمن » رحم الله الشيخين فلو عاشا لرايا ان القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ وهو عندما يتكلم فانما يتكلم عن حقائق ثابتة أبدية .

فاليهود فى اسرائيل « وبخاصة الحكام » يكفرون ومن لا يكفر فهو غارق فى المعاصى اما العدوان فهو ديدنهم والا لما استحقوا لعنة الله وغضبته .

« ليسو سواء من أهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين » .

« ليسو سواء » :

جمهرة المفسرين وخاصة القدامى على ان المقصود بهذه الآيات هو من اسلم من اليهود ومقارنتهم بمن لم يسلموا وعندما يقول القرآن الكريم « ليسوا سواء » فهو يعنى أن امة محمد عليه الصلاة والسلام هى المؤمنة وهى الصالحة وليس كذلك امة اليهود ، وكل ماجاء فى الآيات من صفات المؤمنين :

مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا
مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ
أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ
قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ

« يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعـــروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات » .

يقول جمهرة المفسرين وعلى راسهم ابن‌جرير والقرطبى وابن كثير وغيرهم ان ذلك كله وصف لأمثال ابن سلام ممن أسلم من اليهود وطالماقلنا ان الرأى هو ما قال به هؤلاء ، ولكننـــا قلنـــا كذلك انه عندما يكون لنا فهم آخر فنحن لا نصرح به الا اذا وجد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال بمثل ما فهمناه ، وهنا فقط نقول وجهة نظرنا ، ذلك أننا ممن يرون انه لا يجوز لكائن من كان أن يفسر القرآن بوجهة نظره وان خالفت وجهة نظر كل من سبقونا ، وتأسيسا على ذلك فقد ورد فى تفسير ابن جرير أقوال منسوبة الى ابن عباس تقول : روى قتادة عن ابن عباس قوله : « ليس كل القوم « أى اليهود » هلكى قد كان لله فيهم بقية » وروى عن ابن عباس قوله فى « أمة قائمة » أمة مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه . ولما كان هذا هو الرأى الذى ينشرح له صدرنا ، فنحن نسمح لأنفسنا باثبات فهمنا ، وما نفهمه من هذه الآيات ، انه بعد أن دمغ الله اليهود بما دمغ وسجل عليهم الكفر والفسوق والعدوان ، فقد شـــاء عدله وشاءت رحمته التى وسعت كل شىء « واليهود لم يخرجوا عن ان يكونوا شيئا » أن لا يقفل الباب والى آخر الزمان فى وجه اليهود لمجرد كـــونهم يهودا ، والقاعدة الأساسية فى القرآن « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » وليست هذه الآيات التى نحن بصددها الا تطبيقا لذلك ، فأيا كان شأن اليهود ، فستبقى فيهم « أمة » اى جماعة تقوم بهذه الأعمـــال الصالحة التى عددتها الآيات ، وفى هذه الحالة « وأولئك من الصالحين » على أن هؤلاء عندما يوجدون فى اى مجتمع يهودى فلن يزيدوا عن أن يكونوا افرادا وهم قلة فى جميع الأحوال حيث تبقى الكثرة الغالبة هى الموصومة بما وصمها بها الله « منهم المؤمنون وأكثرهم الفـــاسقون » « وما يفعلوا من خـــير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين » .

وهذه هى الآية التى جعلتنا نفهم ما فهمناه من أن المقصود بالآيات هم أهل الكتاب الذين ظلوا على دينهم ، فكأن الآية الكريمة تقول لهم : انه بالرغم من تمسكهم بكتابهم توراة كان أو انجيلا فان أى خير من نوع ما عددته الآيات « الايمان بالله واليوم الآخر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والمسارعة فى الخيرات » أن أى عمل صالح يقومون به « فلن يكفروه » . أى لن يضيع ثوابه فالله لا يضيع أجر من أحسن عملا » ويكفر الشىء أى يستر ويغطى ويصبح كما لو لم يكن موجودا .

«والله عليم بالمتقين»: وهذا هو الضمان والأمان لكل فاعل خير ، من يعمل اتقاء غضب الله ، وعلى استحقاق رضائه ، فهو يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فليعمل كل انسان أى انسان الخير والأعمال الصالحة فكل بحسابه يوم القيامة .

« ان الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون »

اتفق المفسرون اتفاقا يكاد يصل الى الاجماع الى أن المقصود من هاتين الآيتين هو ما سوف يكون فى يوم القيامة حيث لا ينفع الكفار ولا يرد عنهم العذاب أموالهم وان كثرت ولا أولادهم وان عزوا وسادوا » وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وتلك حقيقة تكرر ذكرها فى القرآن الكريم ولكننا رأينا فى الآية الكريمة اشعاعا يشير الى ما كان كفار قريش قد اعتزموه ونفذوه بالفعل، وذلك ان اباسفيان وكان قد نجا بقافلة قريش قبل معركة بدر فلما جاءت أنباء هزيمة المشركين فى بدر ، طلب ابو سفيان من مشركى قريش أن يخصصوا كل الأموال التى ربحوها من أجل معركة الأخذ بالثأر ففى فهمى أن الآية الكريمة فوق اشارتها الى ما سوف يكون يوم القيامة ، فهى تشير الى عدم جدوى هذا الانفاق فى الحياة الدنيا نفسها ، وأن الهزيمة المحققة هى عاقبة الكافرين ولن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وعند هذا التقرير تنتهى الجملة وتبدأ جملة جديدة مرتبطة بحرف العطف «و» «وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

الفارق بين عدم الانتصار والهزيمة :

وفى تصورى أن ماحال بين الكثيرين وبين هذا الفهم هو الفكرة الخاطئة التى انتقلت من كتب السيرة من أن المسلمين هزموا فى غزوة « أحد » .

فدل ذلك على أن الكفار قد استفادوا من أموالهم وأولادهم ، ومن هنا انصرف المفسرون الى نقل المعنى كله الى يوم القيامة ، أما نحن فلم نأخذ بالقول الذى قال ان سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم قد هزم فى غزوة أحد ، حقا انه لم ينتصر ولكنه كذلك لم يهزم لا ماديا ولا معنويا، وظلت قوة المسلمين تتصاعد وتشتد ، وسوف يأتينا تفصيل القرآن لما حدث فى غزوة أحد ، وأنه أبعد ما يكون عن الهزيمة ، ولكن ماحدث أن أبا سفيان علا جبل أحد وأعلن أن المشركين انتصروا وأن يوم أحد بيوم بدر ، الى آخر ما قال .

وقد كان كاذبا فى كل ما قال « مما سيرد علينا بالتفصيل » وليس أدل على ذلك انه آثر الانسحاب الى مكة ولم يفكر فى تعقب المسلمين ليحول بينهم وبين العودة الى المدينة . بل لم يجرؤ على مهاجمة جيش المسلمين فى ساحة المعركة مرة أخرى ، واكتفى بأن يسال عن بعد « أفيكم محمد، أفيكم فلان وفلان » وراح يعدد أسماء لم يمت منهم انسان واحد ورد عليه سيدنا عمر بما أخزاه فليس فى الأمر هزيمة ولكن هكذا خدع المشركون أنفسهم بهذا التصور وقفلوا راجعين الى مكة .

وتضمنت كتب السيرة أو بالأحرى سيرة ابن اسحاق ، وعنه نقلت كتب السيرة الأخرى تصور أبى سفيان من انه هزم المسلمين فى احد ،واصبح هذا وهم شائع حتى لقد جابهنى مرة احد الشيوخ الذين اشتغلوا بالسياسة فقال لى: « ألم يهزم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى غزوة احد ؟ ووجدتنى أثور فى وجهه ، وربماكان هذا هو الدافع الذى حفزنى على اعادة دراسة ما حدث فى غزوة احد فوجدتنى اخرجمن الدراسة بأن موقعة احد بالرغم مما استشهد فيها من مسلمين وعلى راسهم سيدنا حمزة فان النتائج العسكرية التى انتهت اليها قد اكدت الحقيقة التى كان قد فصل فيها وانتهى الأمر وهى ضعف قريش وتدهورها المستمر وتزايد قوة المسلمين العسكرية ماديا ومعنويا على ما سيجىء « مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر اصابت حرث قوم ظلموا انفسهم فأهلكته » .

الصر : البرد الشديد والأصل فيه الصرير وهو الصوت الذى يصاحب الريح الشديدة،ومن اللطيف انهم شرعوا يحدثوننا عن التدمير والافناء عن طريق موجات صوتية شديدة الذبذبة والذى يعنينا الآن أن الله سبحانه وتعالى يشبه مايفعله الكافرون فى صرف اموالهم وحشد جهودهم للوقوف فى وجه الحق ان النتيجة النهائية لذلك كله ، هو ما تفعله ريح عاتية فى حرث « زرع » انفق ما انفق عليه من مال ، وبذل ما بذل فيه من جهد ، فتهلكه الريح العاصفة وتجعله خرابا يبابا ، وقد حرص القرآن الكريم على أن يجعل هذا الحقل الذى ستدمره الريح مملوكا لـ « قوم ظلموا أنفسهم » فليس بعد الكفر ظلم للنفس وهو ما يؤكده ختام الآية .

« وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون »

فقد خلق الله البشر بفطرة سليمة تهدى الى الحق ومنح الانسان منحة العقل الذى يدعم الفطرة السليمة ، ثم ارسل الرسل وانزل الكتب فعندما يكفر الكافرون بعد ذلك فما ظلمهم الله « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » .

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات آن كنتم تعقلون » .

مفـردات :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم » دعوة للمؤمنين فى كل زمان ومكان الى أبد الآبدين أن لا يتخذوا ، أى لا يركنوا ويثقوا بأحد .

من دونكم : أى من غير أنفسكم ، من سواكم.

بطانة : بطانة الرجل خاصته وموضع سره ،مأخوذ من بطانة الثوب أى باطنه ، وهو عكس الظهارة أى ظاهر الثوب .

لا يألونكم خبالا : من الألو وهو التقصير والضعف ، .

والخبال : الفساد والمعنى أنهم لا يقصرون عن افسادكم بكل الوسائل والطرق الظاهرة والخفية.

ودوا ما عنتم : أى تمنوا،ورغبوا أشد الرغبة « ما عنتم » من العنف وهو المشقة ، اى انهم يتمنون من صميم قلوبهم أن تغرقوا فى خضم المشاكل والمصاعب والأزمات ويعملون جاهدين على افسادكم « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » .

البغضاء من البغض ، والبغض ضد الحب،اى ان علامة من يحذر القرآن اتخاذهم موضع سر الانسان وخاصته ان يكون البغض والكراهية هو محور احاديثهم ، فمن نضح حديثه بالبغض والكراهية ، اصبح حريا بأن يخاف منه .

« وما تخفى صدورهم اكبر » :

لانه من البديهيات أن من يريد أن يخدعك فان أبسط مظاهر الخداع أن يحدثك عن الحب والرحمة ، فاذا كان الحديث عن البغض والكراهية قد ظهر على السنتهم فراحوا يتشدقون به ، فان ذلك معناه ان قلوبهم « صدورهم » مفعمة بالحقد والكراهية ، الى حد أنهم لم يستطيعوا اخفاء ذلك ، فطفح البغض حتى ظهر على افواههم ويكون هذا الذى ينطقون به هو بعض من كل « وما تخفى صدورهم اكبر » .

« قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون »

اى انه « تعالى » لاينفك يعلم المؤمنين ويرشدهم ويوجههم الى ما فيه خيرهم فى الدنيا والآخرة بما ينزله عليهم من آيات القرآن الكريم والمهم فى سامع القرآن ومتلقيه أن يعى ويفهم ويستفيد بتوجيهات الكتاب الحكيم « ان كنتم تعقلون » اى أن ذلك واجب كل عاقل والا سقطت عنه صفة التعقل من هم « من دونكم » .

ويبقى أن نعرف على وجه التحديد من هم المقصودون بعبارة « من دونكم » فقد قال بعض المفسرين ، أن المقصود هم أهل الكتاب وبخاصة اليهود ، وهناك من قال بل هم المنافقون ووسع البعض الدائرة فقال يدخل فيها الخوارج وأهل الأهواء .

وعندنا ان القرآن الكريم عندما اراد أن يحذر من اتخاذ الكافرين اولياء فقد نص على ذلك صراحة وكذلك عندما اراد ان يحذر من المنافقين واهل الكتاب فقد افصح عن ذلك بصريح اللفظ فعندما يستعمل القرآن الكريم تعبيرا جديدا يدل على معنى جديد ، يكون من غير الصواب ان نفسره فى حدود المعنى الذى استعمل من قبل ، مادام التعبير الجديد اعم وأشمل فعبارة « من دونكم » تشمل كل من كان سوى المخاطب ، وعلى ذلك يدخل فيها كل من خالف الانسان فى معتقداته وسلوكه وتصرفاته فعلى الانسان المؤمن ان لا يتخذ من واحد من هؤلاء بطانة اى موضع سره وخاصة خاصته ، فضلا عن أن يتخذ منه خليلا له . وفى سنن ابى داود عن ابى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « المرء على دين خليله فلينظر احدكم من يخالل » .

وقال الشاعر :

عن المرء لا تسال وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يقتدى

ونختم حديثنا عن هذه الآية الكريمة بما ورد فى صحيح البخارى عن ابى سعيد الخدرى عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم موجها حديثه للحكام قال : « مابعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحثه عليه والمعصوم من عصمه الله » .

« ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم »

الحب ضد الكره والبغض ، وهو هذه العاطفة التى يقوم عليها المجتمع الانسانى وبغيره لايقوم وليس عندنا ذرة من شك فى أن القرآن الكريم قد قصد أول ما قصد لاظهار الفارق الأساسى والرئيسى بين من هو مؤمن صادق فهو يحب الخير للناس جميعا ، وبين غير المؤمن حيث ترى قلبه وقد أفعم « امتلأ » بالحسد للناس وبالتالى بالبغض والكراهية ، وسوف تصور العبارات الآتية هذا الفارق بين نفسية المؤمنين وغير المؤمنين .

ووصف المؤمنين بالحب والمحبة فيما بينهم تكرر كثيرا فى القرآن والأحاديث . ولكنه فى هذه الآية التى نحن بصددها قد ادخل فى هذا الحب غير المؤمنين ، وهو لم يحضره ولكنه حذر من التمادى فيه الى الحد الذى يتخذ المؤمن من « الآخر » صفيا وخليلا » « بطانة » ويقول القرآن للمؤمنين: انكم تحبون لأن ايمانكم الصادق العميق بالله ، يجعلكم تحبون من خلق من الناس ، أما من خلا قلبه من هذا الايمان فلن ينطوى قلبه الا على الحقد والكراهية .

يقول ابن جرير فى تفسيره : « فى هذه الآية ابانة من الله عز وجل عن حال الفريقين ، اعنى المؤمنين والكافرين ورحمة اهل الايمان ورأفتهم بأهل الخلاف لهم ، وقساوة قلوب أولئك وغلظتهم على أهل الايمان كما حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة قوله : « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله « فوالله ان المؤمن ليحب المنافق ويأوى اليه ويرحمه ولو أن المنافق يقدر من المؤمن على ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضراءه » ويقول ابن تيمية : « ان من علامة أهل السنة أن يرحموا المخالف ولا يقطعوا اخوته فى الدين ولذلك يذكرون فى كتب العقائد لن نكفر أحدا من أهل القبلة » انتهى .

« وتؤمنون بالكتاب كله »

هذه احدى صفات المؤمنين التى تحقق لهم التفوق والامتياز على أصحاب الديانات الأخرى ، ان المؤمن المسلم يؤمن بوحدة الدين كما أشرنا الى ذلك من قبل أكثر من مرة ، ويؤمن بأن الله سبحانه وتعالى قد أنزل التوراة والانجيل وغيرهما وان جوهر هذه الكتب السماوية واحد وحيث لا يؤمن غير المسلمين بذلك ، فلا اليهودى ولا المسيحى فضلا عن غيرهما يؤمن برسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وما انزل عليه .

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت
طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ
مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ

« واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ » .

يصف القرآن حال طائفة كانت وستظل موجودة وقائمة فى المجتمع الاسلامى تتظاهر بالايمان والاسلام فى مواجهة المؤمنين « قالو آمنا » حتى اذا اعلنوا ذلك جهارا ثم خلوا لأنفسهم « واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

عض : يعض عضا وعضيضا هو الفعل المشهور اى الضغط بالاسنان .

والأنامل : اطراف الاصابع ، وعض الأنامل من الغيظ : كناية عن شدة الحنق والغضب لعدم القدرة على فعل ما يتمناه الانسان وهذا هو حال غير المؤمنين مع المؤمنين المتفوقين بكثرة العدد والسلطان فاذا ما واجهوهم ادعوا الايمان واذا خلوا لانفسهم كادوا يذوبون من القهر والكمد لصعود نجم المسلمين وازديادهم فى كل يوم غلبة ومنعة .

« قل موتوا بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور »

انظر الى بلاغة القرآن من حيث النظم والايقاع النفسى الذى يشفى صدور المؤمنين فلا يكاد المؤمن يشعر بالعجز حيال هؤلاء الذين ينافقونه مواجهة ، وفى السر يظهرون الحقد والكره له ، نقول لا يكاد المؤمن يحار ماذا يفعل لهؤلاء الذين لا يكاد يعرفهم ، حتى يجىء وعيد الله وزجره لهؤلاء مدمدما مفرقعا تنخلع له القلوب « قل موتوا بغيظكم » ولقد فهم الذين تلقوا القرآن أول ما تلقوه هذا القول على انه تنديد وزجر لمن يفعل هذا الفعل من المنافقين ، وانه حتى الموت نفسه لن يشفيهم من غيظهم فسيموتون بحسرة ما يغيظهم .

والقرآن يطمئن المؤمنين انه يعلم أمر هؤلاء وسيتولى امرهم « ان الله عليم بذات الصدور » « ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها » .

وهذا هو مظهر آخر من مظاهر غير المؤمنين ، وهو أن يشتد بهم الحزن والأسى لكل خير يصيب

المؤمنين بينما يفرحون ويطربون لكل أذى يصيبهم وانظر وتعلم من اسلوب القرآن ، فعندما تحدث عن النعمة والخير يحل بالمؤمنين استعمل كلمة « تمسسكم » وعندما تحدث عن « السيئة » وهى كل شر يحيق بالانسان استعمل كلمة « تصبكم » لأن منها المصيبة وهكذا يتمين على كل من يريد اجادة العربية وفنون البيان والفصاحة على مختلف فروعها ان يتعلمها على وهج القرآن الكريم واشعاعه .

« وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط » .

حدثنا القرآن الكريم ان أعداء المسلمين « وعلى رأسهم اليهود » « لن يضروكم الا أذى » .

وهاهو يعود ليثبت ايمان المؤمنين ويثبت أقدامهم فيطمئنهم الى أن الله سبحانه وتعالى كفيل بأن يحبط كيدهم فلا ينالون المؤمنين بضرر من أى نوع كان شريطة :

١ — أن يصبر المؤمنون .

٢ — وأن يتقوا .

ومفهوم أن الصبر المطلوب هو الصبر على الأذى الذى ينال المؤمنين المسلمين من أعداء الاسلام وأن يتحصنوا ضد كيد الكائدين بعد الصبر .

التقــوى :

وهى التمسك بكل ما أمر الله به ونهى عنه . **« ان الله بما يعملون محيط »**

فاذا تحقق الشرطان الصبر والتقوى فان وعد الله حق « لا يضركم كيدهم » ذلك أن الله يعلم كل ما يدبرون وهو الذى يدافع عن الذين آمنوا .

التصور العسكرى فى الجاهلية :

كان للعرب فى الجاهلية تصورات خاصة للحروب فيما بينهم فالصحراء المفتوحة الممتدة التى لا يملكها أحد كأنها البحر اللا نهائى ، جعلت المعارك فيما بينهم تتلخص فيما أسموه الكر والفر وكان المهزوم فى حسابهم هو من يخلى ساحة المعركة ، وبهذا المفهوم تصور مشركو قريش أنهم انتصروا فى معركة أحد حيث كانت قضية النصر قد حسمت فيما مضى لمصلحة الرسول والاسلام وانتهى الأمر ، حسمت مبدئيا بمجرد نجاح سيدنا محمد فى الهجرة من مكة الى المدينة ، ولقد وصف الله فى محكم تنزيله هذه الهجرة بأنها « نصر » « الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذهما فى الغار » وحسمت نهائيا فى معركة « غزوة بدر » حيث ضربت قريش ضربة لم تستطع أن تقوم بعدها أبدا ، حقا لقد تصورت انها انتصرت فى غزوة أحد ، ولكن ذلك لم يكن الا مجرد وهم وتصور حاولت قريش أن تخدع نفسها به ، وليس أدل على ذلك من حادثين :

أما أولهما فهو أن خالد بن الوليد نفسه الذى كان السبب فيما تصوره المشركون نصرا ، لم يلبث أن أدرك أن قريشا خسرت الحرب نهائيا ، فغادر مكة سرا والتحق برسول الله بعد أن اعتنق

الاسلام ولو كان ما حدث فى احد هونصرعسكرىبمفهوم الدنيا للنصر العسكرى لوجب أن يكون خالد بن الوليد القائد المنتصر على المسلمين هو آخر من يدخل فى دين الاسلام .

٢ — أما الدليل الثانى على أن قريشا كانت قد خسرت حربها نهائيا ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم انهم عندما قرروا بتحريض من اليهود على أن يهاجموا رسول الله فى المدينة ، جمعوا لذلك كل قوى شبه جزيرة العرب فى حلفواه ضعيف مفكك ، تألف من عشرة آلاف جندى، وذلك فى غزوة الاحزاب « الخندق » وبالرغم من ضخامة هذا الجيش الذى لم يسبق لجزيرة العرب أن شهدت مثله « فى حروب العرب » فقد انتهت الغزوة بالاخفاق التام والفشل المبين .

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوبالأحرى الاسلام ، كان قد جاء فى دنيا الحرب ، شأنه فى دنيا السلم ، بالقواعد الجديدة ، التى لا عهد للعرب بها من قبل ، فحيث كانوا يحاربون، من أجل الغنائم أو الأخذ بالثأر ، وكان أسلوبهم فى الحرب ، أشبه بحرب العصابات فى عصرنا الحديث « أسلوب الكر والفر » جاء الاسلام ليعلم المسلمين الحرب فى سبيل الله « بالاعتقاد والايمان بالغيب » أما أسلوب الحرب فلا يدخل فيه « الفرار » أبدا ، وانما لا مناص من الصبر والثبات حتى النصر أو الشهادة ، وجعلهما متساويين « قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين » والحسنيان هما النصر فى سبيل الله، أو الموت فى سبيله وكلا الأمرين كان غريبا كل الغرابة على قريش ، ومن هنا حيث أوهمت قريش نفسها أنها انتصرت فى أحد ، نزل القرآن يكشف عن حقيقة ما حدث ، وأن الله سبحانه وتعالى ، أراد أن يربى المسلمين ويعلمهم أن لا يخالفوا أوامر رسول الله وتعليماته أبدا فكان أن لقنهم الدرس فأضاع من أيديهم النصر الذى كانوا قد حققوه بالفعل ، فأقصى مايمكن أن يقال عن غزوة أحد أنها انتهت لغير صالح المسلمين بسبب خروجهم على أوامر رسول الله أما بالنسبة للمشركين ، فلم تكن تنطوى على اى نصر من أى نوع كان ، وقد وصف القرآن الكريم ما أصاب قريشا بأنه الهزيمة والخذلان « أو يكبتهم فينقلبوا خائبين » .

ولكن قريشا صورت لنفسها أنها انتصرت وساعد اليهود والمنافقون على ترويج هذه الفرية والتضخيم فيها وتسلل ذلك كله الى كتب السيرة ،ولم ير مؤلفوها بأسا فى التحدث عن هزيمة المسلمين فى « أحد » فقد انتهى الأمر بانتصار المسلمين على الدنيا كلها ، أما نحن فقد وقفنا عند حدود ما نص عليه القرآن مما سيرد علينا ،وجملة ما فهمنا ، من الآيات القادمة أن المسلمين لم يكسبوا الموقعة ، ولكنهم لم يهزموا ماديا فضلا عن معنويا .

وأن المشركين لم يخسروا المعركة ، كما انهم لم يكسبوها وقد رضوا من الغنيمة بعودتهم الى بلادهم .

وكان اقسى ما حدث فى معركة « أحد » على ما سوف يرد علينا هو ما أشيع عن وفاة رسول الله ، وهو أمر أراده الله ، ليعلم المسلمين مايجب أن يؤمنوا به ويعتقدوه وقد كان حسب سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنه ان يتلو هذه الآيات التى تتحدث عن موت الرسول بعد وفاته بالفعل لكى ينقذ الاسلام والمسلمين من هول الكارثة التى كادت تحيق بهما .

بعد هذا التمهيد نقول وبالله التوفيق :

« وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم .. »

واذ غدوت : اى خرجت بالصباح .

من اهلك : يقول القرطبى وبعض كتب السيرةأى من منزلك من عند السيدة عائشة ، رضىالله عنها ونحن نؤثر ان نبقى العـــام على عموميتهفتصبح كلمة من اهلك اى من اهل بيتك ، وقــد كانت بيوت النبى صلى الله عليه وسلم لا تعدو ان تكون حجرات متجاورة تفتح الى المســجد والقرآن الكريم يقول لنا أن رسول الله خرج فى الصباح من أهل بيته ، فأصبح ذلك يكفينا ، ونحن انما نلجأ لكتب السيرة عندما تقدم لنـــا بياناتحتاجه لمزيد من الشرح والتفصيل اللازمين لفهم القرآن الكريم والأتعاظ به والحقيقة الهامة هنا ، أن رسول الله قد خرج مصبحا من بيته .

« تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » .

تبوىء المؤمنين : اى تتخذ لهم مصاف وأصل التبوء « اتخاذ المسكن » جاء فى الحديث الشريف « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » اى ليتخذ فيها منزلا .

مقاعد للقتال : اى ترتب المؤمنين وتنزل كل منهم فى مكانه الذى رسمته للمعركة وسيرها ، فهذا فى اليمين ، وهذا الى اليســـار وهذا فى المقـدمة وهذا فى الخلف وهو ما يسمى بلغتنا المعاصرة « التعبئة الميدانية » وسنرى الآن انهما بقى المسلمون ينفذون تعليمات وأوامر سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقد احرزوا النصر ،فلما ان خالفوه وخرجوا على تعليماته سحب الله منهم النصر ليعطيهم درسا .

« والله سميع عليم »

اى أن الله سبحانه وتعالى عالم بكل ما حدث قبل حدوثه وساعة حدوثه اذ سمع ما قاله لكم رسوله :

غزوة أحـــد :

وتعتبر سورة آل عمران فى التسجيل الكامل والدقيق لغزوة أحد التى وقعت أحداثها فى العام الثالث للهجرة كما ان سورة الانفال هى السجل الكامل والدقيق لغزوة بدر ، وجريا على أسلوب القرآن الكريم ومنهاجه فهو ليس كتاب تاريخ ،ولذلك فلا يعنيه من أى حدث الا مكان العظة منه ، وما يبقى الى أبد الآبدين ، نافعا للناس .

ما سبق غزوة أحـــد :

وقد قدمنا الاشارة الى ان مجرد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة بالرغم من تدبيرات قريش العسكرية للحيلولة دون ذلك ، كان انتصارا عسكريا من الدرجة الأولى وقد توالت انتصارات رسول الله العسكرية مذ وصل الى المدينة حيث وقف بالمرصـــاد لقوافل قريش الذاهبة الى الشام والعائدة منه فلما أن حاولت قريش أن تقضى على هذا الخطر الداهم الذى أصبح يهددها ، وقعت معـــركة بدر التى كانت موقعة حاسمة ، من أعظم ما عرف التاريخ من مواقع حاسمة أن لم تكن أعظمها على الأطلاق على الرغم من ان مجمـــوع المتقاتلين لم يبلغ الفى مقاتل ، مما سنفصله اذا شاء الله وأبقانا أحياء حتى نصل الى سورة الانفـــال .

كانت معركة بدر حاسمة كشفت نهائيا عن افلاس قريش وانها لم تعد ندا للمسلمين الذين تتعاظم قوتهم ماديا ومعنويا يوما بعد يوم ، حيث تتناقص قوى قريش وتذوى ساعة بعد أخرى ، ولكن هيهات أن تدرك قريش هذه الحقيقة ، فضلا عن أن تعترف وتسلم بهـــا .

ابو سفيان مخطط ومدبر غزوة احـــد ، ويجب اعتبار « ابو سفيان » هو المخطط والمدبر والمسئول الأول والأخير عن معركة أحـــد ، فمذ وقعت كارثة بـــدر على المشركين ، وقد آلى على نفسه أن لا يمس جسده ماء فضلا عن طيب ، ولا يهنأ له عيش حتى يثأر من « محمد » . ولســـنا الآن بصدد ما فعله ، أبو سفيان للتحلل من يمينه قبل موقعة احـــد ، ويهمنا الآن انه كان هو الرجل الذى صمم على الأخذ بثأر قتلى بـــدر .

اقتراح ابى سفيان لتمويل المعركة :

واذ كانت كل حركة للقتال فى حاجة الى تمويل ونفقة ، وكان قد عاصر معركة بدر نجاح ابى سفيان فى انقاذ قافلة قريش العائدة من الشام من ان تقع فى يد المسلمين فقد اقترح ابو سفيان على اهل مكة أن لا يقبضوا ارباحهم التى ربحوها فى هذه القافلة وان يخصصوها لمعركة « الثأر » فوافقت قريش على هذا الاقتراح وبدأ الاستعداد عشية كارثة بدر للأخذ بالثأر ، وراح كل من فى مكة يعمل من أجل هذه المعركة ، فالشعراء يندبون قتلى بدر ويحرضون على الأخذ بثأرهم وصناع السلاح يصنعون الأسلحة ، والاقوات والأغذية اللازمة للمحاربين تعد وتخزن وعشرات من الخطط توضع وترسم للاخذ بالثأر ، ولمـــا كانت هنـــد زوجة أبى ســـفيان قد فقدت اباها واخويها ، فقد راحت تدبر للانتقام ، وكان مما دبرته أن وعدت وحشيا « أحد الأرقاء » ان هو قتل حمزة « عم النبى » فهو حر لوجه الله « بالاتفاق مع سيده » ولمـــا كان وحشى يجيد الاصابة بقذف الرمح من بعد ، فقد أخذ على عاتقه تنفيذ هذه المهمة ليكسب حريته والخلاصة ان التاريخ يحدثنا ان قريشا عاشت لفكرة واحدة وهى أن يثأروا من المسلمين حتى اذا تصوروا انهم اكملوا استعدادهم الحربى ، خرجوا فى ثلاثة آلاف مقاتل مزودين بأقوى الأسلحة التى كانت معروفة فى هذا الزمان ، وعلى رأسها فرقة ضخمة من « الخيالة » وهم فرسان ذلك الزمان « أشبه بالدبابات فى عصرنا الحاضر » وكان على رأس الخيل خالد بن الوليد وكان عدد الخيالة « ما بين مائتين ، وثلثمائة » وهو عدد قلما اجتمع لقريش حتى ذلك التاريخ أى أن قريشا حشدت آخر ما عندها وعندما يخرج جيش بكل هذه القوة والاستعداد وهو يغلى بفكرة الأخذ بالثأر فلا اقل من أن ينسف المسلمين نسفا وان يلقن أهل المدينة درسا لا ينسونه أبدا ، وتأكيدا لهذا الهـــدف اصطحبوا نساءهم معهم ليقاتلوا عن شرفهم وكان على رأس النســـاء « هنـــد » والتى كانت تضرب على الدف وتنشد مع زميلاتها الابيات الآتية لتحريض المقاتلين .

نحن بنـــات طـــارق   نمشى على النمـــارق

ان تقبلـــوا نعـــانق   وان تدبـــروا نفـــارق

وبالرغم من ذلك كله فسوف نرى أن قريشا لم تحقق شيئا ابدا الا ان قتلت بعض الأنصار « ٧٠ رجلا » ثم اسرعت تسابق الريح عائدة الى مكة ، زاعمة انها انتصرت حيث كشفت وقائع المعركة كما سوف نرى على انهم كانوا اشـــد رغبة من المسلمين على انهاء المعركة « اذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

اذهمت : أى شرعت وقيل حدثت نفسها ، فعلم الله بهذا الحديث فهو يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ، ولكننا نرجح أن الأمر لابد أن يكون قد زاد عن حديث نفسى داخلى الى مظهر مادى خارجى كأن يكونوا تكلموا عن العودة ثم اختاروا ان يثبتوا ويحاربوا الى جوار رسول الله صلى

الله عليه وسلم وكان العهد بين الأنصار وسيدنامحمد ، أن يحاربوا معه ويمنعونه « أى يدافعوا عنه » كما يمنعون أموالهم وأولادهم شريطة أن يكون ذلك داخل المدينة نفسها ، ومن هنا لم يشتبك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المشركين فى غزوة بـــدر ، وكانت خارج المدينة ، الا بعد أن حصل على موافقة الانصار ، مما سوف نفصله فى حينه فلمـــا أن جاء خبر زحف قريش لقتال المسلمين كان من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتظر غارة المشركين على المدينة وان يواجههم فى داخلها وبين طرقاتها وأزقتها وذلك لعديد من الأسباب .

اولها : انه بذلك ينفذ الاتفاق الذى يؤكد تضامن الانصار كلهم معه حيث تعهدوا له أن يحاربوا حتى النهاية ، فضلا عن أن هجوم المشركين على المدينة من شأنه أن يدفع كل سكانها الى الاستماتة فى القتال دفاعا عن أنفسهم وأعراضهم . وأموالهم فوق دفاعهم عن دينهم .

ثانيها : ليحرم قريشا من تفوقهـــا العددى فى المقاتلين وبخاصة ــ سلاح الفرسان الرهيب ــ والذى لا يظهر كل فعاليته الا فى ميدان مفتوح « حيث يصول ويجول » وليس كذلك فى داخل طرقات المدينة وازقتها .

ثالثها : كان ذلك هو ما اشار به عبد الله بن أبى « زعيم المنافقين » ولـــا كان الاسلام فى المدينة لا يزال فى سنواته الأولى فقد كان لا يزال لعبد الله بن أبى وزنه وتأثيره على عدد كبير من سكان المدينة وخاصة عنــدما يوافق رأيه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلهذه الأسباب ولغيرها فكر رسول الله أن يتربص فى المدينة فى انتظار مقدم قريش ليكون النصر مضمونا ومؤكدا « باذن الله بطبيعة الحال » وقد اثبتت الحوادث المقبلة صحة هذا النظر فعنــدما تجمعت قبائل العرب كلها فى غزوة الاحزاب عجزت عن اقتحام المدينة ، ولكن بعد الانتصار الضخم الذى كان المسلمون قد حصلوا عليه فى معركة بـــدر كانت الروح المعنوية قد وصلت الى الاوج فى صفوف الانصار ، واصبح الكل يتلهفون على القتال ، فلما أن جاءت الاخبار عن مسيرة قريش واقترابها من المدينة اشتعل حماس الكثيرين وخاصة ممن لم يشهدوا بدرا من الشباب فالحوا على رسول الله أن يخرجوا لملاقاة عدوهم فى خارج المدينة « عند جبل أحد » وعلى الرغم من ان رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على خلاف ذلك كما قدمنا ، فقد نزل عند رأى الكثرة من المحاربين وقرر أن يخرج لملاقاة المشركين ودخل بيته ليلبس ملابس الحرب والقتال ولم يكد رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل بيته ليتجهز للقتال حتى لام مشيخة الصحابة شبابهم ولفتوا انظارهم الى انهم اشاروا بغير رأى رسول الله فأبدى الجميع اسفهم لذلك ، فلما أن خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتدى « لامته » أى بذته العسكرية واستعد للحرب والقتال ، عبروا عن أسفهم للرأى الذى ابدوه فى وجوب الخروج وفوضوا الأمر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن شاء البقاء فى المدينة ، فكان رد رسول الله حازما وقاطعا : « ما كان لنبى اذا لبس لامته للحرب أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين القوم الكافرين » وغادر رسول الله المدينة على رأس جيش قوامه ألف مقاتل ، ولكن عبد الله بن أبى وكان من رأيه القعود كما قدمنا لم يلبث أن انسحب بثلثمائة مقاتل محتجا بأن سيدنا محمـــدقد ضرب برأيه عرض الحائط واخذ برأى الاحداث وكان معنى انسحاب هذا العدد الضخم ، هوفقدان جيش المسلمين لثلث عدده فى الســـاعة الأخيرة السابقة على المعركة ، ومثل هذه الضربة القاتلة من شأنها أن تزلزل أقوى الجيوش واكثرها ثباتا ، وعندنا أن لابد أن تكون هذه هى اللحظة التى اظهرت فيها هاتان الطائفتان .

« أن تفشـــلا » .

اى أن تنسحبا بدورهما من المعركة ، وقال بعض المفسرين تفشلا بمعنى تجبنا فذلك معناها فى اللغة .

والله وليهما :

جاء فى صحيح البخارى عن جابر انه قال : فينا نزلت : « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما » .

قال نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة وما نحب انها لم تنزل لقول الله عز وجل والله وليهما فدل ذلك على أن الطائفتين هم الذين ظلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاضوا المعركة فانتصروا كما سوف نرى ما بقوا محافظين على تعليمات رسول الله فلما أن خالفوا وعصوا كانت الهزيمة المؤقتة أو بالأحرى العابرة .

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون »

موضوع التوكل على الله وحقيقته وأبعاده أحد قضايا الايمان الرئيسية ونرجو أن يوفقنا الله للتحدث فيه باستفاضة حيث حديثنا اليوم عن غزوة أحـــد ووقائعها ، ولكننا نكتفى اليوم بنقل عبارة اخترناها من « القرطبى » لأنهـــا تجمل خلاصة رأينا فى موضوع التوكل ، قال : « التوكل على الله هو الثقة بالله والايقان بأن قضاءه ماض واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم فى السعى فيما لابد منه من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرز من عدو واعداد الأسلحة واستعمال ما تقتضيه سنة الله تعالى » انتهى بعض ما قاله القرطبى .

وعندنا أن ذروة ما يقال فى موضوع التوكل هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ارشادا للبدوى الذى تصور ان معنى التوكل على الله هو أن لا يربط ناقته لأن مشيئة الله ستنفذ فى جميع الأحوال ، ان شاء ابقاها وان شاء اضاعها أو أماتها فكان توجيه النبى وارشاده «اعقلها وتوكل» اى على المؤمن أن يأخذ أولا بالسبب ، والسبب هنا هو أعقلها اى « أربطها » وبعد ذلك يكون الايمان بقضاء الله والرضاء به والقرآن الكريم كله هو تطبيق لهذا التوجيه ، فهو يدعو لأن يعمل المؤمن لتوفير أســـباب النصر « وأعـــدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » وفى ذات الوقت يكرر ويؤكد ويقطع « وما النصر الا من عند الله » .

فعلى المؤمنين فى كل زمان ومكان وخاصة فى الحرب أن يعدوا كل أسباب النصر بما فى ذلك الثبـــات والصبر ، متوكلين بعد ذلك على الله سبحانه وتعالى والتوكل فى اللغة اظهار العجز والاعتماد على الغير ، واذا كان الانسان بطبيعة الحـــال عاجزا بالنسبة لله ولكنه مأمور من الله ان يأخذ بالأسباب باذلا فى ذلك أقصى ما لديه من جهد والحديث ذو سعة فالى مناسبة أخرى .

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون .. » .

ولقد نصركم الله ببدر :

سنتحدث طويلا ان شـــاء الله عن نصر بدر

اذا وصلنا الى سورة الانفال والذى نريد أن نثبته هنا ، أن نصر بدر لم يكن أول نصر عسكرى على

قريش المشركة فقد سبقه ، نصر الهجرة قالتعالى : « الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا . . » الآية .

وأنتم أذلة :

ذل يذل ذلا : هان عن قهر فهو ذليل وهم أذلةوقد استعملت فى القرآن الكريم بمعنى « اللين والانقياد » قال تعالى : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » « يوصى الولد بوالديه » . وقوله تعـــالى : « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين » ولكنها هنا تجىء على المعنى الأول وهو « الهوان » ولـــما كان الهوان غير جائز فى حق المؤمنين ، « ولله العزة ولرسولهوللمؤمنين» فان القرطبى وعدد كبير من المفسرين يبادر فيقول :« وأنتم أذلة » أى وأنتم قليلو العدد « كان عدد المسلمين ٣٠٠ مقاتل ولكننا نرى أن ذلك اخراجللفظ عن معناه ، واختيار معنى آخر على سبيل التحكم ، والرأى الذى نراه والله ولي التوفيقوهو أعلم بمراده ، أن المقصود بوصف المؤمنين بالذل هنا ، هو ما كان يتصوره المشركون فيهم ،أى لقد نصركم الله حيث كان عدوكم يتصوركم فى منتهى الهوان ، فكانت لكم الغلبة عليهم .

« فاتقوا الله لعلكم تشكرون »

أى فاذكروا دائما أن النصر دائما من عند اللهفتقربوا اليه بالطاعات والائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه « لعلكم تشكرون » .

أى فلتكن تقوى الله بحيث تجعلكم تشكرونهسبحانه وتعالى فى السر والعلن ، فى السراء والضراء .

« إذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم أن يمدكم ربكمبثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ● بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ● وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

حديث الملائكة :

« الملائكة » هم بعض خلق الله أنهم جنسأو نوع أو صنف اذا شئت من عبيد الله وصفهم الله تعالى فى محكم تنزيله بأنهم عباد مكرمونولا يكمل ايمان المؤمن الا بالاعتقاد فى وجودهم فهم بعض عناصر الغيب الذى يؤلف ايمان المؤمن فهمموجودون وفاعلون بأمر ربهم ما يكلفهم به ، ولا حد لقدرتهم التى زودهم بها الله وكل محاولة لمعرفة كنههم أى تعريفهم فهو رجم بالغيب .

ليسوا بعيدين عن التفكير المادى العلمى :

ولا يتصورن متصـــور « فى عصرنا العلمى الحديث » انه اذ يؤمن بوجود الملائكة فقد خرج من دائرة العلم بالكلية ، بل العكس هو الصحيحفالايمان بالملائكة هو علم يعلو ويسبق العلم المادى البحت والذى بدأ بانكار كل ما لا يدخل تحتحواسه وانتهى به الأمر الى التسليم بأن حواسه ليست هى كل شىء .

فقد كان له مفهوم عن النور والظلام حسبمايرى بحواسه ونحن نعلم اليوم عن طريق العلم المادى البحت انه حيث تكون الدنيا ظلاما دامسا ،فثمة أشعة « نورانية » لا تزال هناك ، وتعمل

اعمالها ، وتحدث آثارها ، بحيث بدأنا نصور فى الظلام ونلتقط صورا لأشياء لم تعد هناك ، وانما كانت موجودة قبل ذلك ، اى انه ثبت بالدليـــل القاطع انه الى جوار هذا العالم المنظور يوجد عالم غير منظور ، وهو ما سبق ان ارشدنا القرآن اليه بقوله : « فلا اقســم بما تبصرون وما لا تبصرون » فمن ينكر وجود الملائكة بمقولةانه لا يراهم او يكلمهم ، فضلا عن انه انسلخ عن الايمان فقد دخل فى دائرة الجهل ، وعندما يحدثنا العلم عن « الجاذبية » وانها السر وراء كل تحركات الطبيعة وانظمتها فهو لم يعد ان وضع « لفظا » غيبيا جديدا ، لأن الجاذبية لا ترى بالعين ، او يستطيع العقل ادراك مغزاها ،وليس امامه الا ان يسلم بوجودها ، ويشـــهد آثارها .

« وفوق كل ذى علم عليم »

بقى ان احد سنن الخالق ، هذا التصاعد فى كل شىء الى مالا نهـــاية ، الى ان يشـــاء هو ان يضع لهذا الشىء او ذاك نهاية حتى ينفرد هو « وحده » بأنه لا اول له ولا آخر ، ومن هنـــا فقد كانت سنته فى خلقه هو التدرج والتصعد من الادنى او الأصـــغر الى الأعلى والأكبر الى ما شاء الله .

من الذرة الى المجرات ، ومن الخلية الى الانسان :

وهذا الذى قدمناه هو ما انتهى اليه العـــلم الحديث ، فأثبت لنـــا ، انه ابتداء من الذرة حتى النجوم والمجرات وما فوقها ، فما من وجود الاوفوقه وجود وابتداء من كائنات الخلية الواحدة تتصاعد الكائنات الى ما لا نهاية ، وعندما يتصور متصور ان ذلك قد توقف عند الانسان ، فقد دخل فى دائرة الجهل ، فلا ينكرن احد الملائكة باسم العلم فالعلم منه براء وليذكر دائما ان فوق كل ذى علم عليم ، وان ما لا يعرف اليوم يعرف غدا او كان معروفا بالامس ومنتهى ما دلنا عليه العلم « المـــادى » انه علمنا ان هذا الكون ينطوى على اسرار لا حد لهـــا ، وان ما نجهله من شئونه ، فوق ما نعلمه « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » .

تواجد الملائكة فى غزوات الرسول :

سقنا هذه المقدمة لفائدة الشباب العصرى حتى لا يتسرع فى جهل وحماقة وينكر الملائكة بحجة العلم والآيات التى نحن بصـــددها تحدثنا عن « ثلاثة آلاف من الملائكة منزلين كما تعد الآية التالية المؤمنين ان هم صبروا « بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » اى معلمين » من السيما اى العلامة وقيل سائمين اى يمتطون « الخيل » اى ان الكلمة من السائمة وفى كتب التفسير نقلا عن احاديث للصحابة حديث مسهب عن لباس الملائكة وانها كانت عمائم بيضاء وبعضها اصفر كما تضمنت كتب التفسير بعض الصور لحرب الملائكة أما نحن فنقف عند حد القرآن الكريم اذ يقول تعالى : « وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به » .

فدل ذلك فى « تصورنا » ان المقصود من الامداد بالملائكة هو تثبيت الاقدام واطمئنان القلوب الى ان نصر الله آت لا ريب فيه .

وقد اخترنا من الاقوال التى قيلت حول دور الملائكة قولا ذكرته كتب التفســير « ومن بينها القرطبى » نقلا عن سيدنا على كرم الله وجهه انه خطب الناس فقال : بينا انا امتح من قليب بدر

جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط ثم ذهبت ثم جاءت ريح شديدة لم ار مثلها قط الا التى كانت قبلها قال واظنه ذكر ثم جاءت ريح شديدة .

فكانت الريح الأولى جبريل نزل فى الف من الملائكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل فى الف من الملائكة عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ابو بكر عن يمينه ، وكانت الريح الثالثة اسرافيل نزل فى الف من الملائكة عن ميسرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى الميسرة . ا هـ

ونزول الملائكة ثابت بنص القرآن اما ذكر اسماء القادة فمفوض علم ذلك لله .

بـــدر أو احـــد :

وقد دار خلاف حول نزول الملائكة هل كان فى احد مثل ما كان فى بـــدر أم أن نزولهم كان فى « بـــدر » فقط وذكرهم هنا قد جاء بمناســـبة ما حدث فى بدر ، ونحن ليس من منهاجنا أن نقف امام هذه الأبحاث ، والسياق يحتمل هذا المعنى او ذاك ، وسوف نرى أن المسلمين ظهروا على المشركين فى صدر المعركة ، وانهم لـــا لم يصبروا وخالفوا امر الرسول ، ضاع منهم النصر اذ خالفوا الشرط الذى اشترطه الله سبحانه وتعالى لكى يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، وهو أن يصبروا ويتقوا وهو الأمر الذى لم يفعلوه .

« اذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين » .

قلنا فيما سبق ان السياق يحتمل ان يكون نزول الملائكة فى احد ، فالاشارة الى ثلاثة آلاف تعنى عدد المشركين فى احد ، حيث كان عددهم فى بدر هو الف فقط ، ومن هنا كان قول القرآن فى سورة الانفال وهى التى سجلت وقائع بدر .

« اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم انى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » وهذا قاطع فى نزول الملائكة فى بدر وأن عدتهم كانوا الفا ، فهل الحديث هنا تكرار لوعد الله سبحانه وتعالى أن ينزل من الملائكة عددا يكون مساويا للمشركين لتثبيت قلوب المؤمنين ، ذلك يمكن أن يفهم « بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » بلى أن تصبروا : هذا هو ما نفهم منه ارتباط القول بما قبله ويكون هو الوعد من الله عز وجل أن يتابع مدده بالملائكة بمقدار صبر الجيش » اى ثباته « وتقواه فلما أن تخلف الشرط . فلم يصبر المسلمون «أى لم يثبتوا» فلم يغثهم الله بالملائكة كما فعل فى بدر ، وربما فى بدء المعركة .

مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ
عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾
وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ * وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

يمددكم : من مد يمد ، ومعناها اللغوى البسط والزيادة ولكنها عندما تستعمل مع الجيش فيصبح معناها : الحق به من الجند ما يقوى ويستكثر به من « فورا » والاصل اللغوى للكلمة : القصد الى الشيء والأخذ بجد وهو مأخوذ من فارت القدر تفور فورا وفورانا » .

« وماجعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » .

وقد اشرنا الى معنى الآية فيما سبق من ان أرسال الملائكة بهذه الاعداد لا يقصد منه إلا طمأنة القلوب وتثبيتها ، أما عملية النصر « ذاتها » فهى شيء يهبه الله لمن يشاء ليتحقق ما سبق فى علمه .

وهو العزيز الحكيم : العزيز أى الغالب على أمره الفاعل لما يشاء .

الحكيم : أى المدبر وكل شيء عنده بمقدار « ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين » .

« ليقطع طرفا من الذين كفروا »

اى يمدكم ليقطع طرفا من الذين كفروا ، بقتل جزء منهم .

قيل أن الحديث يدور حول قتلى بدر وقيل بل المقصود قتلاهم فى « أحد » وكانوا ثمانية عشر رجلا .

أو يكبتهم : اى يحزنهم والمكبوت هو «المحزون» فينقلبوا خائبين : اى يرجعون بخيبة الأمل ، خاب يخيب اذا لم ينل ما طلب .

وقد دار الخلاف بين المفسرين « كما قدمنا » هل هذا القول خاص بما وقع فى غزوة بدر او احد ، وعندنا انه وقد نزل بعد احد واشار الى بدر فهو ينطبق على ما حدث بل وما سوف يحدث « فى غزوة الخندق » حيث انقلب الكفار خائبين ، وهو عين ما حدث بعد غزوة احد كما سوف نرى

اذ عاد الكفار الى مكة خائبين ولكنهم « لغاية فى نفس يعقوب » صوروا ما حدث على أنه انتصار ، حيث لم يحققوا من ورائه أى هدف رئيسى ، أوغير رئيسى الا ان يكون قتلهم لبعض المسلمين (٧٠ شهيدا) « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون » .

القرآن كلام الله ومحمد الصدق كله :

طالما نبهنا الى أننا نقف من حين لآخر لنلفت بعض الشباب « الذين يحاولون التشكيك فى القرآن وانه ليس كلام الله ، وهذه الآية التى نحن بصددها قاطعة فى أنه أبعد ما يكون عن أفكار سيدنا محمد أو انفعالاته وردود فعله ازاء الأحداث .

فسوف يعرض لنا فى آيات مقبلة مدى المحنة الرهيبة التى تعرض لها سيدنا محمد فى هذا اليوم العصيب ، فقد فرت عنه أغلبية الجيش ولكنه كماكان شأنه دائما ثبت كالطود فى المعركة ، وثبت معه بضعة من أصحابه وبلغت المحنة ذروتها عندما اشيع ان سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم قد قتل مما سوف تتحدث عنه آيات قادمة ، وفى صحيح مسلم أن سيدنا محمدا كسرت رباعيته « وهى ما نسميه اليوم بالخوذة » وأنه شج فى رأسه وسال دمه فراح صلى الله عليه وسلم يقول: « كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم الى الله تعالى » .

هذا هو رد الفعل الطبيعى عند محمد الانسان

« قل إنما أنا بشر مثلكم » فها هو قد شج وكاد يموت وسالت دماؤه وفر عنه كثير من أصحابه فكان أن قال هذا الذى قال مما رواه مسلم جاء فى كتب السيرة وينزل القرآن بغير ما قام فى نفس محمد الانسان ليقول له « ليس لك من الأمر شىء » أى ان الله وحده هو الذى يقرر من الذى سوف يفلح ومن الذى لن يفلح ، فلو أن سيدنا محمدا كان زعيما أو ثائرا « كما يحلو للبعض ان يصفوه » أو كان ملكا أو سلطانا لظل يمقت من آذوه هذا الايذاء ولكان عدوه رقم واحد هو خالد ابن الوليد الذى حول النصر الى هزيمة ، ولكن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن شيئا من ذلك « ويأثم كل من يحاول أن يصفه بغير ماوصفه الله به » كان سيدنا محمد رسول الله وخاتم النبيين عن طريق الوحى فنزل الوحى يقول له : « ليس لك من الأمر شىء » ثم أعلمه بمشيئة الله الذى يعلم من الأمور مالا يعلمه محمد .

« أو يتوب عليهم أو يعذبهم » :

وليس فى هذا القول الذى نزل على خلاف رد فعل رسول الله ، مجرد الخلاف فقط بل انه يحمل التنبؤ بما سوف يحدث فى المستقبل وهوما لا يعلمه الا علام الغيوب فبعض هؤلاء الذين تصورت يا محمد انهم لن يفلحوا فسوف يتوب الله عليهم ، ويصبحون من أعز أبناء الاسلام مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص الذين لن يلبثوا أن يعتنقوا الاسلام وينزلهم الرسول صلوات الله عليه منازلهم .

« أو يعذبهم فإنهم ظالمون »

فالله وحده هو الذى يعلم من الذى سوف يتوب عليه فيكون من الناجين المفلحين ومن منهم سيتمادى فى غيه فيكون ظالما لنفسه مستحقا العذاب .

« ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم » .

من الخاص الى العام :

وبعد أن اختص القرآن الكريم سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بالحديث « ليس لك من الأمر شيء » وانه هو وحده « سبحانه » من يتوب أو يعذب انتقل من التخصيص فى الخطاب الى النص على القاعدة العامة من انه مالك السموات والأرض وانه هو وحده الذى يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء واذا كانت الآية السابقة قد انتهت بما يشير لعذابه ونقمته على الظالمين فقد ختمت هذه الآية بأنه « غفور رحيم » فهو اذا كان المنتقم فهو الغفور الذى يغفر الذنوب للتوابين رحمة بهم ومنا وكرما منه .

القرآن كتاب دين ووعظ وارشاد :

ان الذين يتابعون هذا التفسير يعرفون أن الحديث فى القرآن الكريم كان يدور حول القتال، وما تحقق فى بدر وعما جرى فى معركة أحد ، وها هو السياق ينقطع لينهى القرآن الكريم عن الربا ، ويجهد بعض المفسرين انفسهم ، ليوجدوا علاقة بين النهى عن الربا وبين عدم انتصار المسلمين فى أحد وعندنا أن هذه الاجتهادات لا عناء فيها ، وان قطع السياق ، للتحذير من الربا ، وتوجيه بعض الأوامر المتعلقة بالسلوك كما سوف نرى ، هو أمر مقصود ، حتى لا يظن ظان أن القرآن الكريم قد تحول الى كتاب تاريخ ، وحقيقة القرآن أن كل كلمة فيه تهدف الى هداية البشر وانه عندما يشير الى أية أحداث فى سالف الدهور ، أو معاصرة لرسول الله أو حتى لا تزال فى عالم الغيب ، فكل ذلك مقصود لما يتضمنه من وعظ وارشاد وهداية ، وسوف نرى مصداق ذلك ، أن السورة الكريمة سوف تعود بعد بضع آيات الى حديث أكثر تفصيلا لمجريات الأمور فى معركة احد ، فقد علمنا ان جبريل عليه السلام ، (اى الوحى) كان هو الذى يرشده عن موضع الآيات ، التى كانت تنزل متفرقة ، ومكانها من السورة ، ومن هنا كان الرأى الذى انتهينا اليه ونلتزم به ان ارادة الله وقدرته هى التى جمعت القرآن الكريم على هذا النسق وبهذا الترتيب مصداقا لقوله تعالى : « ان علينا جمعه وقرآنه » فليس لكائن من كان تحت ظل فلسفة من الفلسفات ، أن يقترح مجرد اقتراح أى تغيير فى نظام السور فضلا عن ترتيبها .

فليس القرآن الكريم كتاب بشر قد كتب ليوافق أمزجة القراء ، ولكنه كتاب هداية وارشاد من رب العالمين وهو لا يؤرخ لبدر أو أحد : وانما هذه كلها مواقف تفيض بالعظة والاعتبار .

تحريم الربا :

ولقد تحدثت سورة البقرة من قبل عن تحريم الربا ، وقد افضنا القول فى تلك المناسبة ، ولكن لا مانع من العودة بالتفصيل الى التحدث عن تحريم الربا ومدلوله ومداه وخاصة لأن الآية الكريمة التى نحن بصددها ، هى الآية التى اتخذها البعض ذريعة فى العصور الحديثة لاباحتهم الربا « اذا لم يكن اضعافا مضاعفة » فنقول وبالله التوفيق !

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

الربا : من الفعل ربا يربو بمعنى زاد جاء فى القرآن الكريم : « وترى الأرض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت » وتكرر المعنى بما يفيد أن الأرض تزيد عندما يخالطها الماء ولكن الربا عندما يطلق هذا اللفظ فهو يعنى النظام « المالى » الذى يفرض فوائد محددة عند اقراض المال لاستعماله فى أى غرض من الأغراض ، ولم يخرج معنى اللفظ فى استعماله الجديد عن جوهره اللغوى وهو « الزيادة » .

تحريم الربا فى الاسلام :

منذ نزل القرآن الكريم فى مكة قد نص على جميع المحرمات بما يشعر بعدم الرضا عنها ، ولكن نظرا لأن الدعوة المحمدية للاسلام فى مكة ، كانت مجردة عن السلطات ، فقد وقفت عند حد الدعوة الأساسية فى الاسلام وهى الدعوة الى التوحيدوتنزيه الله عن الشبيه والولد ، والدعوة بجوار ذلك الى مكارم الأخلاق التى هى التطبيق العملىوالدنيوى للايمان بوحدانية الله وان ستكون هناك حياة أخرى فيها ثواب وعقاب .

وبعد أن هاجر سيدنا محمد صلى الله عليهوسلم الى المدينة قامت الدولة الاسلامية فنزل القرآن الكريم أكثر تفصيلا ، وتولى سيدنا محمدصلى الله عليه وسلم بسنته القولية والفعلية ، الأمر تحديدا وتفصيلا ، فاذا كان تحريم الربا قدأخذ صورة عملية فى المدينة فنحن واجدون كراهية الله له والتنديد به فى سورة من أوائل السور التى نزلت بمكة فى مطلع الدعوة وقد حدد هذا التاريخ حديثها عن واقعة ثابتة فى التاريخ وهىهزيمة الروم من الفرس ، وتنبؤها عن انتصار الروم بعد ذلك (وهو ما حدث بالفعل) والذىيهمنا من ذلك كله ، ان سورة الروم نزلت فى مكة منذ وقت مبكر فى الدعوة الاسلامية ومع ذلكفنحن نرى فيها ما يشير الى كراهية الله سبحانه وتعالى للربا وانه برىء منه :

« وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلايربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » .

المضعفون : اى الذين تضاعفت لهم الحسنات وفى تعبير آخر « ذووا الحسنات » المضاعفة ولكننا نؤثر التعبير الأول .

الربا كما نص عليه القرآن :

أشرنا الى ذكر الربا فى سورة « الروم » وقدتكرر ذكره بعد ذلك «الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ● ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا واحل الله البيع وحرم الربا ● يمحق الله الربا ويربى الصدقات ● اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين » . (سورة البقرة)

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا اضعافامضاعفة » . (سورة آل عمران)

« واخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل » . (سورة النساء)

اى ان الرسول الكريم لم يكد يستقر فى المدينةويقوم المجتمع الاسلامى ، حتى انزل الله سبحانه وتعالى الآيات التى تحظر الربا وتحرمه تحريماتاما مطلقا لا لبس فيه ولا غموض ولا مجال فيه للاجتهاد .

حيرة بعض الفقهاء المحدثين :

وقد وقف بعض الفقهاء فى خلال الفترة التىتدهور فيها العالم الاسلامى وسيطرة أوروبا عليه ، وقفوا حيارى مترددين أمام موضوع الربابعد ان اصبحت الحياة الاقتصادية تقوم عليه ، وتصوروا أنه لا فكاك من ذلك ، فتساهلوا فىموضوع الربا اذا كان يمارس فى صور معينة

ولا تتجاوز فيه الفوائد قدرا معينا ، وراحـــوايبحثون فى علة التحريم وانها استغلال حاجـــة الضعيف والمضـــطر الى المـــال فاذا خـــرجت المعاملة عن الضـــعف والاحتيـــاج ، كما لو كان المقترض هو الدولة او البنك ، لاستثمار المال ، هنا وتنتفى علة التحريم ، ومن ناحية ثانيـــة تمسك البعض بنص الآية التى نحن بصـــددهاوزعموا أن المحرم هو الموصوف « بأضـــعـــاف مضاعفة » وكل هذا خبط وخلط اوقعهم فيـــهتصورهم استحالة الاستغناء عن « الربا » .

واحمد الله اننى عشت حتى ارى الدنيا كلهـــاوقد بدات تبغض (بدرجات متفاوتة) نظام الربا واصبحنا نسمع فى غير المجتمعات الاسلامية عن القروض التى اصبحت تقدم بغير فوائد فدل ذلك على أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيـــد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه عنـــدما يشرع فهـــو يشرع ما ينفـــع البشر ومالا تستقم أمورهم الا على أساسه .

« الربا » :

استعمل القرآن الكريم هذا اللفظ بما يدل على انه نوع من المعاملات المعروفة والمشهورة عبر التاريخ فى كافة ارجاء العالم ، وذلك واضـــح من تنديد القرآن باليهود لأخذهم « الربا » مع أنه محرم عليهم ، واليهـــود هم اليهود عبر الزمان والمكان لا يجيدون شيئا قدر اجادتهم للأعمـــال الربوية والتى اصـــبحت تســـمى الآن « فوائدمصرفية » فليس هناك فى الدنيا سوى نظـــام مالى اشتهر باسم « الربا » وهو أن يقـــدم المـــال لمن يطلبـــه فى مقابل فائدة (زيادة) عن طريق المشاركة فى الاستثمار على قاعدة « الغنم بالغرم » فقد أباح الله وأحل استثمار المـــال بمعنى زيادته وتكثيره بل وحث على ذلك بتنديده بمن يكنزون المـــال ويحبسونه عن التـــداول ، وبحثه على العمل والسعى ابدا فاستثمار المـــال أمر مرغوب فيه شريطـــة أن يتم على قاعـــدة « الغنم بالغرم » اى المشاركة فى الربح والخسارة فليقدم كل قادر ماله لمن يطلب استثماره شريطة المشاركة فى الأرباح والخسائر أما تقديم المـــال للحصـــول على أرباح فقط فى حـــالتى المكسب والخسارة وعلى المدين أن يرد ما استدانه مضافا اليه الفوائد فهذا هو الربا الذى اخترعه اليهود منذ كانو يهودا الى أن نزلت التوراة تحـــرمه عليهم فضربوا بالتوراة عرض الحائط وأصبحوا هم ملوك الربا واغرقوا العالم معهم الى الحـــد الذى جعل بعض فقهاء المسلمين يقفون الموقف الذى اشرنا اليه ، واشهد أن احدا من علمـــاء الاسلام لم يجرؤ على الافتاء بتحليله ولـــكنهم اغرقوا الموضوع فى خضم من الشروح والتفاصيل التى نفذ منها البعض الى ما قالوا كأن يقسموا الربا الى صنفين ، ربا النسيئة وربا الفضـــل ، ويحرمون الأول ويبيحون الثانى ، أو يتكلمون عن الربا فى القرآن وانه محرم باتفاق وبلا جـــدال أو شبهة ثم يفتحون ابوابا لمـــا يسمونه « الربا فى السنة » وهنا يتحدثون عما اسموه « ربا الفضل » وهو ما اجازوه ، وهكذا وجدت الثغرة التى تسلل منها من يريد أن يتسلل .

وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾
قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ
وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ
مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ

« والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب الا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » .

عامة الناس بعد خاصتهم :

فى الآية السابقة قد حدثنا القرآن الكريم عن صنف عالى المرتبة من الناس ، وهم خواص المؤمنين ، ولكن الله الرحيم سبحانه وتعالى الذى خلقنا وعلم ما نحن عليه من ضعف . فأكثرنا لا يستطيع كظم غيظه ، **والأقلون هم** الذين يعفون عمن أساء اليهم ، ومن هنا فقد بادر سبحانه وهو اللطيف الرحيم فأدخل الطمأنينة على نفوسنا نحن الذين لا نرقى الى الصنف الأول ، نحن الذين نقع فى الخطيئة وتزل اقدامنا رغما عنا ولكن الايمان يردنا الى الجادة والطريق المستقيم ونعلم أن ربنا غفور رحيم ، وهو يقبل التوبة عن عباده ، وما علينا الا أن نعقد العزم على أن لا نعود الى ما يغضب الله نحن وأمثالنا من المؤمنين بفتح الله سبحانه باب الرجاء بمثل هذه الآية الكريمة ولها أشباه ونظائر فى كثير من السور .

« والذين اذا فعلوا فاحشة او ظلموا انفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » .

الفاحشة : هى المعصية الكبيرة ، ولكن استعمالها غلب على « الزنا » حتى كاد البعض أن يعتبرها مرادفة لها ولكن جاء فى القرآن الكريم .

« الفواحش ما ظهر منها وما بطن » فدل ذلك على أن كل معصية كبيرة فهى فاحشة « أو ظلموا انفسهم » هذا هو التعبير الحق والصادق ، عندما يرتكب الانسان بعض المحرمات المنهى عنها فهو فى هذه الحالة يكون قد ظلم نفسه بتعريضها لعذاب الله فكل ارتكاب للسيئات هو ظلم للنفس .

ويكون معنى الآية ان كل من ارتكب معصية كبيرة او صغيرة ويكون بذلك « ظلم نفسه » ذكر الله على الفور وانه هو التواب الرحيم فاستغفر واناب فيكون هذا الاستغفار بالذات هو مظهر الايمان العميق الثابت بالله سبحانه وتعالى لأنه ينطوى على المعانى التالية :

١ ـ الايمان بالله رب العالمين .

٢ ـ انه يحاسب فيعاقب على السيئات .

٣ ـ انه عالم بكل ما يجرى ويقع من الانسان.

٤ ـ انه غفور رحيم عندما يلجأ الانسان اليه.

وكل هذه المعانى تنطوى فى قوله تعـالى :

« ومن يغفر الذنوب الا الله » ذلك اننا نحن البشر قد لا نغفر لأننا ناقصون أو لخوفنـا من عواقب الغفران اما هو ، سـبحانه ، وهـو الكامل الذى لا يسأل عما يفعل فلا حد لمغفرته ، وهو عندما يهددنا ويحذرنا ويخوفنا ، فهو انمـايفعل ذلك لنفعنا وخيرنا وتمكيننا للعيش مـع بعضنا فى سلام ومحبة وتعاون بقـدر الامكانوما من خطيئة ومعصية من المعاصى الا وهى شر لانها تنطوى على اذى للنفس او الجمـاعة ومن هنا فقد حث الله سبحانه وتعالى على التوبة من المعاصى وان كبرت وكثرت ومهما تعددت التوبةوتعدد النكوص عنها لأن التمادى فى المعـاصى فى كل الأحوال هو شر واضرار بالنفس ويكون الكف عنها هو خير فى جميع الأحوال .

« ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » .

ولم يصروا :

الاصرار : هو العزم بالقلب على الثبـاتوالاستمرار .

على ما فعلوا : اى من المعاصى .

وهم يعلمون : ينصب العـلم هنا على كل العناصر السابقة ، اى ان ما يفعلونه هو معصية لله تعالى ، وأنهم لو توقفـوا عن ارتكابهـاواستغفروا الله فسوف يغفر لهم اى أن الذين يستثنيهم الله من رحمته هم الذين يعلمون ذلك كله ومع ذلك يثبتون على ارتكاب المعاصى .

لا نوافق على من يحاولون اخفاء هذه الحقيقة

وقبل أن نبدى رأيا لنا فى هذه القضية التى هى من اكبر ما شغل وسوف يشغل المجتمعـات الاسلامية الى ابد الآبدين نريد أن نسجل حديثين يؤكدان معنى الآية ويزيدانها تفصيلا ، وهم بعد ذلك سندنا وحجتنا فيما سوف نسب اليه من رأى .

الحديث الأول :

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسـلم ـ « ان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب الى الله تاب الله عليه » اخرجاه فى الصحيحين .

الحديث الثانى :

وقال ابو هريرة نقلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم » رواه مسـلم .

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث التى تشير الى الضعف البشرى مما يجعل الانسان يخطىء ويزل ، ولكن بحسبه أن يدرك انه أخطأ فيستغفرويتوب الى الله لكى يتوب الله عليه مهما تكرر منه الخطأ . والمهم انه يكون صادقا مع الله فى كل مرة ينتوى فيها التوبة لانه اذا وقع فى المعصيةمرة اخرى ، فان ذلكيكون نتيجة الضعف البشرى الذى يتسلل منه الشيطان الرجيم ، فيوقع الانسان فى المعصية ويتكرر ذلك منه ،ولكن رحمة الله وغفرانه لا حد لها .

وهنا يجىء راينا ، فقد ذهب البعض «اجتهادا» ان لا يقال ذلك للناس ، حتى لا يتهاونون فى شأن دينهم فيرتكبون المعاصى استنادا الى انهميتوبون .

وليس من حق احد ان يزعم انه يعرف ما يصلحمن شأن الناس بأكثر من الله خالقهم ، وما دام الله سبحانه وتعالى قد اختار هذا الأسلوبليخاطب به عباده حتى قال وقوله الحق .

« قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهملا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا » .

فنقول ما دام الله سبحانه وتعالى قد اختارهذا الأسلوب لمخاطبة البشر ، فلم يعد يجوز لأى انسان لأى سبب من الأسباب أن يقول خلاف ذلك .

ان المعاصى التى يقع فيها الانسان ، اما أنتكون متعلقة بأخيه الانسان الفرد أو الجماعة وهذه تفصل فيها الشريعة كما قننها الله سبحانهوتعالى وصاغها الانسان فى اجراءات وقواعد تطبق .

اما ما خرج عن هذا اللون من المعاصى التىتتصل بعلاقة الانسان بربه ، وما يتوقعه من حساب وعقاب يوم القيامة ، فليس لكائن منكان أن يوزع رحمة الله وأن يقرر مغفرة الله لمن ، وهى محرمة على من فالله يغفر لمن يشاءويعذب من يشاء وقد راينا كيف خاطب الله نبيه عندما ندد بمشركى قريش الذين وصلوا الى حد اصابته بجراح خطيرة فى غزوة احد فقال له : « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم او يعذبهم » .

فاذا كان هذا هو قول الله سبحانه وتعالىلنبيه ورسوله ، فليتق الله كل من يتصور أن يغلظ ويشتد على الناس بدعوى انه يريد الصالح . فليدع الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كل منقدر على ذلك ولكن حذار ثم حذار أن يسدباب التوبة والمغفرة الى ما لا نهاية ، فان ذلك يكون خروجا عن حد القرآن ، وتصويرا للهسبحانه وتعالى بصورة لا يرضاها لنفسه .

« أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرىمن تحتها الأنهار خالدين فيها » .

وهذا هو مصداق ما ذهبنا اليه ، فالله هنا سبحانه وتعالى يعد بالخلد فى الجنة بعد المغفرة للذين : « اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا انفسهم » وكل المطلوب منهم أن يعترفوا بذنوبهم وان لا يصروا على ما فعلوا » فيصبحون كمنلا ذنب له ، ويدخلهم ربهم جنات النعيم .

« ونعم أجر العاملين »

اى ان التوبة هى عمل من اعظم الاعمال وربما يفوق بعض الاعمال ، فهى قهر للنفس ، وتجرع مرارة الاعتراف بالخطأ حتى قال بعضالمتصوفة « ذل المعصية خير من كبرياء الطاعة » والقائل يعنى ذل المعصية بعد أن يتوب فاعلها ،لأنه سيظل على استحياء من ربه وخوف من

ان لا يقبل الله توبته ، وهذا هو ما يسميه هذا المتصوف الكبير ، ذل المعصية ويعتبره افضل من كبرياء وخيلاء من يتصور انه لم يذنب ابدا .

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

السنن : جمع سنة وهى الطريق المستقيم والخطة المتبعة ، سنة الله ، اى ما جرى به نظامه فى خلقه .

قد خلت : اى قد مضت .

ويكون المعنى : ان الله يلفت نظر المؤمنين والبشر بعامة ، الى انه قد سبقتهم امم ودول ومجتمعات ، كانت لها كلها أنظمتها ومعتقداتها وطرقها فى الحياة ، والمعنى على انه « اهل سنن » فحذف المضاف وقد انقرض أهل السنن، كما ينقرض كل كائن حى ، ويطالب القرآن بالاحاطة بتاريخ هذه الأمم والمجتمعات واستخلاص العبرة مما وقع واصاب هذه المجتمعات لينظروا « كيف كان عاقبة المكذبين » .

ولقد راينا نحن راى العين مع أن حياتنا لا تزيد على قرن واحد من الزمان ، راينا مصارع الكاذبين على الله الذين انكروا العدالة الالهية ، رأينا مصارع الطغاة والجبارين ، لينتصر الحق والعدل وكل القيم التى انزلها الله من السماء لاصلاح البشر وطالما نبهنا الى أن آيات من هذا القبيل هى التى جعلت ائمة التاريخ الانسانى، ينبغون فى المجتمع الاسلامى من أمثال «الطبرى» كما نبغ الجغرافيون من أمثال « الادريسى » ونبغ الرحالة ، من أمثال « ابن بطوطة » فهؤلاء وغيرهم كانوا يتحركون عبر « الزمان والمكان »ويقصون من انباء الأمم والمجتمعات وهم يعبدون الله بعلمهم ، اليس هو القائل :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

فليسافر من يريد السفر الى اى ركن من أركان العالم ، شريطة أن يكون الاعتبار والاتعاظ من أهم مقاصده .

وحقيقة الأمر ان ليس هناك سوى رباً واحد لا ثانى له وهو هذا الذى أطلقوا عليه اسم « ربا النسيئة » وهو هذا النظام الذى عرفه اليهود وزاولوه وبشروا به وهو تقديم المال فى القروض مقابل فائدة محددة . وآيات القرآن الكريم واضحة ومحددة وقاطعة فى التحريم :

١ ــ فكون القرآن يبيح المعاملات التى تؤدى الى استثمار المال فان ذلك يبين من التفرقة بين البيع وبين الربا « وأحل الله البيع وحرم الربا » .

٢ ــ كون الربا هو هذا النظام المعروف الذى يتعاطاه اليهود « واخذهم الربا وقد نهوا عنه » .

٣ ــ كونه يعنى الزيادة « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله » .

٤ ــ كونه لا يتغير اسمه بكبر الفائدة أوصغرها او الغرض الذى قدمت من اجله فيبين من قوله تعالى : « وان تبتم فلكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .

وعلى ذلك فالربا حرام ومن يقول العكس فهو كافر باتفاق ، ومن يمارسه رغم علمه بأنه حرام فهو فى حالة حرب مع الله ورسوله بنص القرآن .

اضعافا مضاعفة

بقى أن نلفت النظر الى أن التعبير بعبـــارةاضعافا مضاعفة هو من نوع «القناطير المقنطرة» فهو أسلوب بيانى يجرى مجرى العرب فى التعبير، ويكون من السذاجة التى تصل الى حد البلاهة ، الا ان يكون الأمر بسوء نية وقصد ان يأخذ التعبيربحرفيته فلا يصبح هناك ربا على الاطلاق فى اى حالة من الحالات لأن « اضعافا » هى شيء بغيرحد واقلها فوق الاثنين لانها جمع ، اى أن تكون ثلاثة أمثال الأصل على الأقل ، فاذا كانت يجبان تتضاعف فى كمها الجديد بلا نهاية ، ادركنـــا انه يستحيل ان يكون هذا هو المقصود وسبحان الله وتعالى عن العبث .

« واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

فليتق الله كل من يحاول العبث بآيات اللهولست انا الذى ادعو الى تقوى الله فى هـــذا الموطن ، وانما هو أمر الله سبحانه وتعالى لكلمن يعالج موضوع الربا فلا ينزلق الى تأويلات وتخريجات والتشدق بما تصوروه علة لتحـــريم الربا فاذا انتفى ما زعموه علة فلم يعد هناك ربا فلهؤلاء يقول سبحانه « واتقوا الله لعلكمتفلحون » .

فاذا لم يكفهم هذا الأمر العام ، فليســـمعوهأشد غلظة واعنف نكيرا .

« واتقوا النار التى أعدت للكافرين »

فالذين يتساهلون فى موضوع الربا يقتربونمن حافة الكفر ويحذرهم من النار ، فليتقوا الله ويخـــافوه .

« وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون »

والأمر باطاعة الله ورسوله باتباع الـــكتابوالسنة مسألة مفروغ منها والمؤمن لا يســـتحق أن يوصف بأنه مؤمن الا متى التزم بهذه القاعدةولكن الأمر هنا بالطاعة والنص عليها ، مقصود بالذات للتأكيد وزجرا لـــكل من تحدثه نفســـهبفلسفات أو شقشقات وتخريجات للترخص فى موضوع الربا (الفوائد) « لعلكم ترحمون » اى ليشملكم الله برحمته .

« وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » .

وسارعوا : اى بادروا ، واقبلوا مسرعين الىمغفرة من ربكم : والدعوة الى طلب المغفـــرة من الله هى دعوة عامة مطلقة للمؤمنين فى كل زمانومكان ولكنها تشعرنا فى هذا الموطن بأنها موجهة بخاصة الى من كانوا يزاولون « الربا » فاللهيدعوهم الى ترك هذا الاثم والرجس والمبـــادرة بالتوبة وطلب المغفرة من الله ، ويجعلهم بذلكمن المستحقين لجنـــة « عرضـــها الســـموات والأرض » .

فاين طولها ، واين النـــار

وفى شرح سابق لنفس المعنى رويت اعتراضبعض الشباب « المـــاديين » متســـائلين ، « فأين النار » اذن ، وأضاف البعض اذا كانعرضها السموات والأرض فأين طولها ، وكل هذه تساؤلات ليست جديدة فقد تساءلها غـــيرالمؤمنين فى كل زمان ومكان ، حتى قيل ان هرقل عاهل الروم سأل هذا السؤال فى رده على سيدنامحمد صلى الله عليه وسلم بمناسبة دعـــوته للاســـلام .

ولكننا قبل ان نثبت هذه الرواية ، نريد ان نلفت الأذهان اولا وقبل كل شيء الى احتمـــال أن يكون القول قد جرى مجرى الأساليب العربية من مجاز وكناية واستعارة فيصـــفون الشـــخص (على سبيل المثال) بأنه بحر وجبل ، او اسد ، فعندما توصف الجنة بأن عرضها الســـموات والأرض ، فان ذلك كناية عن ضخامتها واتساعها، وحتى لو اردنا ان نأخذ القول على ظاهره فالعلم الحديث راح يحدثنـــا عن ابعـــاد ومســـاحات ومسافات يعيى العقل عن مجرد تخيلها ، وحسبك ان تعلم انهم اصبحوا يقولون لنـــا ان الضوء ينطلق بسرعة ٣٠٠ الف كيلو متر فى الثانيـــة الواحدة ، ويؤسسون على ذلك ان ضـــوء الشمس التى تبعد عنا أكثر من تسعين مليـــون ميل ، يصل الينا بعد سبع دقائق فعليك ان تتصورما الذى يعنيه بعد ذلك قولهم أن نجما من النجوم التى نراها قد وصل ضوؤه الينا بعد (كذا) سنة ضوئية ، ثم يقال لنا أن بعض العـــوالم يبعد عنا مليون سنة ضوئية ومائة مليون وألف مليون سنة ضوئية ، وهكذا .

ونحن نعلم الآن ان ما نراه بأعيننا ونســـميه السماء ويضيء بالنهار ، هذه الظاهرة لا تعـــدو أن تكون « الغلاف الجـــوى المحيط بالأرض » ويسميها القرآن الكريم « السماء الدنيا » ويحدثنا القرآن الكريم عن سبع سموات ، ليست هى كل شيء فى الوجود فهناك « الكرسى » وهنـــاك « العرش » ونحن لا نتحدث عن هذه الأشـــياء باعتبارها ماديات أو معنويات فهو من الغيب الذى لا يحيط به غير الله ، وحسبنا أنها من الغيبيات التى يجب الايمان بها .

وردت فى القرآن الـــكريم وهى تدل على أن السموات والأرض ليست هى كل شيء فى الوجود فعندما يحدثنا القرآن الكريم عن جنة عرضـــها السموات والأرض ، فنحن نفهم من ذلك ، ان طولها أكثر من ذلك وسبحان القادر الذى لا يحد قدرته حد .

التعبير بين القديم والحديث

ويهمنا وقد اعتدنا فى تفسيرنا هذا أن نتحدث بلغة العصر ان نلفت النظر كيف تلتقى المعـــانى وان اختلف التعبير ففى حديث لأبى ذر رضى الله عنه عن النبى ــ صلى الله عليه وســـلم ــ أنه قال : « ما السموات السبع والأرضون السبع فى الكرسى الا كدراهم القيت فى فلاة من الأرض وما الكرسى فى العـــرش الا كحلقـــة القيت فى فلاة » .

وهكذا تتلاقى فى التعبيرات قديمها وحديثهـــا حول الحقيقة الواقعة من أن الوجود بغير حدود لا يستطيع العقل أن يدركها وليس أمام الانسان الا أن يستسلم لفاطر السموات والأرض .

حديث هرقل

ونختم هذا الباب بما ذكره القرطبى من حديث ابى يعلى بن ابى مرة : لقيت التنوخى رســـول هرقل للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بحمص شيخا كبيرا قال : قـــدمت على رســـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بكتاب هرقل فناول الصحيفة رجلا عن يساره ، قال : فقلت من صاحبكم الذى يقرأ ؟ قالوا : معاوية ، فاذا كتاب صاحبى : انك كتبت تدعونى الى جنة عرضـــها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

سبحان الله فأين الليل اذا جاء النهار .

« الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »

احدى صور المسلم الكامل

ومن التحذير من ممارسة الربا البغيض ، ينتقل القرآن (شأنه دائما) الى تبيان ما يجب أن يكون عليه المسلم الكامل وهو ذلك المسلم الذى يتقى الله ، والقرآن الكريم ملىء بالصور التى يدعو الى تحقيقها ليتكامل الانسان المسلم ماديا ومعنويا وروحيا وهو هنا يقدم لنا احدى صور الكمال الانسانى يوجزها فى أربع صفات .

ـ ينفقون فى السراء والضراء .

ـ والكاظمين الغيظ .

ـ والعافين عن الناس .

ـ والله يحب المحسنين .

وقد تحدثنا طويلا عن الانفاق فى سبيل الله بمناسبة ما جاء فى سورة البقرة وها هو الحث على الانفاق باعتباره صورة من صور الكمال الانسانى وقد ذكر الانفاق فى سورة البقرة « سرا وعلانية » وها هو يذكر هنا « فى السراء والضراء » والسراء هى ، اليسر ، وقيل الرخاء وقيل غير ذلك والضراء هى العسر وقيل الشدة، وقيل غير ذلك فى نفس المعنى والاتجاه .

وقد حاول البعض أن يخصص الانفاق بأمور معينة ومحددة وقد قلنا ونقول أن كل انفاق فى عمل صالح فهو انفاق فى سبيل الله .

وكل القيد الذى يحدد الانفاق أن يكون فى الأمور المشروعة بمقتضى الشرع وأن يكون فى حد التوسط والاعتدال « والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » .

« والكاظمين الغيظ » .

الغيظ : أصل الغضب ، وكظم الغيظ بمعنى رده الى الجوف واخفائه بحيث لا يبدوا على الجوارح يقال : كظم غيظه أى سكت عليه ولم يظهره مع قدرته .

« والعافين عن الناس » .

ويتدرج القرآن مع رقى الصورة الانسانية وكمالها ، فهى اذا كانت تبدأ بالنفقة فى الأعمال الصالحة ، فان من درجاتها العليا أن يحبس الانسان غضبه فلا يطلقه مع قدرته على ذلك وأن يفعل ذلك مرضاة لله ولكن حبس الغيظ فى داخل النفس ، على الرغم من أنه فضيلة ، فانه لا يزال موجودا يؤثر فى النفس ، ومن هنا كانت الفضيلة الأرقى هى « العفو » وهى اجتثاث « الذنب » من أساسه فكأنه لم يكن ، وهى صفة من صفات الله عز وجل فهو « التواب الرحيم » أى أنه يعفو عن المذنبين عندما يتوبون اليه ويستغفرونه ، جاء فى القرآن الكريم « ويعفو عن كثير » فمن أراد أن يتأدب ويتخلق بأخلاق القرآن ، فالعفو عن المسىء عند القدرة من أعظم القربات عند الله وهو من أعلى ما يمكن أن يرقى اليه الانسان .

« والله يحب المحسنين » .

وتتصاعد درجات السمو والارتقاء الانسانى حتى يظفر الانسان المحسن بمحبة الله ، وليس فوق محبة الله درجة يمكن أن يرقى اليها الانسان .

وفى التراث الاسلامى حادثة تروى فتجمع بين درجات سلم الكمال الانسانى والواقعة التى تشتمل عليها القصة تنسب الى اكثر من شخص حسب تعدد الروايات وليس المهم من هو صاحب

الواقعة ، بقدر ماتهمنا ذاتها ، ويدل تعدد أسماءمن نسبت اليهم على انها وقعت بالفعل فراحوا ينسبونها لكل من ارادوا أن يرتفعوا به قالوا انجارية آنت سيدها أثناء قيامها على خدمتـــه ، فلما لاح الشر على وجه سيدها بادرته بقولها« والكاظمين الغيظ » فتمالك سيدها نفسه وقال كظمت غيظى فأسرعت الجارية . والعافين عن الناس . فقال لقــد عفوت عنـــك ، وأكملت الجارية الآية :

« والله يحب المحسنين » فقال سيدها اذهبىفأنت حرة لوجه الله .

ولا تحسبن أن هناك ما يلخص التـــدرج فىمعالى الكمال الانسانى أعظم من هذه القصـــة وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم احاديث كثيرةتدعو الىتمالك النفس عندالغضب، فمن ذلك قوله ، صلى الله عليه وسلم : « ليسالشديد بالصرعة وانما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب» والشديد هو القوى، والصرعة، منلا يغلب او الذى يغلب فى كل معركة يخوضها .

« هـــذا بيـــان للناس »

مع شدة وضوح الأمر لنا ولجميع المفسرين (تقريبا) ان هذا البيان الذى ســـوف يعلنه القرآن الكريم هو خاص بما سوف يليه من شرح وايضـــاح لمجريات موقعة احد فقـــد وجد من قال ان البيان متعلق بما سبقه من قوله تعالى : « قد خلت من قبلكم سنن ... الآية ولكننا من رأى الجماعة من أن البيان متعلق بما بعده .

وقد قدمنا ان المشركين والمنافقين واليهود قد استغلوا مجريات معركة احد وما أشيع فيهـــا من وفاة رسول الله . ليبلبلوا الأفكار وليزعموا ان المسلمين منوا بهزيمة ساحقة يوم احد ، وقد وجدوا من يستمع لهم فنزل القرآن الكريمبهـــذا البيان ، يوجهه للنـــاس كافة ، ويؤكد للمؤمنين منهم ، انهم الأعلون دائمـــا والأعزةبمقدار تمكن الايمان من نفوسهم .

« وهدى وموعظة للمتقين »

والقرآن الكريم ككل شأنه انما يذكر ما يذكرللناس الى ابد الآبدين ، لا ليكون كتاب تاريخ ، ولكنه كتاب هداية وارشاد وانما قد يرد فى ثناياوعظه وارشاده ما يكون اكبر سندا لتدعيم ما جاء فى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،كما سوف نرى .

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » .

ولا تهنوا : اى لا تضعفوا وقيل لا تعجزوا وقيل لا تجبنـــوا .

ولا تحزنوا : الحزن معروف وهو ضد السرور وهو حالة نفسية من الألم المعنوى لوقوع ما لا يرضاه الإنسان ، أو لفوات ما كان يؤمله ويرجوه ومغزى مطالبة المؤمنين بها فى هـــذا الموضـــع معناه انه لم يحدث لهم ، كما انه لم يفتهم ، ما يحزن بسببه « وأنتم الأعلـــون ان كنتم مؤمنين » .

هذا ويعمد كثير من المفسرين الى القول بأنذلك يعنى المســـتقبل ، اى انكم ســـتعودون للانتصار بعد أحد .

أما نحن فنرى أن الآية تقرر أمرا واقعا فى كل الأحوال والأزمنة من أن المؤمنين هم الأعـــلون دائما ، فان ايمانهم بالله الواحد الأحد المنزه عن الشبيه والولد ، يجعل المؤمن فى أعلى عليين ،

ايا كانت صفة خصمه وأيا كان مكان المؤمن ،فعلو المؤمن على غير المؤمن مسألة لا تتغير حسب الأحوال والظروف ، وليس ادل على ان العلو كان للمؤمنين فى غزوة أحد من ان سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام لم يكد يرجع الى المدينة حتى ندب الناس فى اليوم التالى مباشرة أن يخرجوا لمطاردة قريش ، ولم يقبل ان يصحبه فى هذه المطاردة الا من كان معه بالأمس ، ولكن قريشا (التى زعمت انهـا انتصرت) كانت قد عادت الى مكة بأسرع من الريح .

وسوف يرد علينا بعد قليل ، ان ابا سفيان بن حرب عندما تصور نفسه انه قد انتصر ، فحدد موعدا من العام التالى ليتلاقى مع المسلمين فى معركة جديدة ، فلما حان الموعد المضروب توجه اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بجيشه ،ولم يذهب المشركون .

فقضية علو المسلمين على المشركين حتى ميدان القتال والتفوق العسكرى كانت قد حسمت وانتهى الأمر على ما قدمنا « ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » هـذا هو تلخيص القرآن الكريم لمـا أصاب المسلمين يوم أحد ،والقرح يعنى الجرح ، فشبه القرآن الـكريم ما أصاب المؤمنين يوم أحد من استشهاد (٧٠) شهيدا بأنه لا يعدو أن يكون جرحا ، قد أصاب المشركين جرح مثله من قبل ، ولكن شتان ما بين الجرحين والآثار التى تركها كل جرح ، فقد كان ما لحـق المشركين يوم بدر هزيمـة نكراء بكل المقاييس يقابلها فى ناحية المسلمين النصر «ولقد نصركم الله ببدر » حيث لم يترتب على غزوة أحد اى نصر للمشركين ، بل لم يترتب عليها أى اثر على الاطلاق وظلت الدعوة المحمدية فى تصاعد مستمر ، حيث كانت قضية المشركين فى خسارة وتدهور يوما عن يوم ، بل وساعة بعد أخرى .

« وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » .

وبعد أن بين الله تعالى للمسلمين ، أن ما اصابهم يوم أحد لا يعدو أن يكون من الناحية المادية البحتة مجرد « قرح » شرع يبين سبحانه ، لماذا اقتضت مشيئته أن تسير الأمور فى احد فى الطريق الذى سـارت فيه :

— وتلك الأيام نداولها بين الناس

— وليعلم الله الذين آمنـوا

— ويتخذ منكم شـهداء

— والله لا يحب الظالمين

هذه الأغراض التى أجملتها الآية الكريمة سوف تفصلها الآيات القادمة ولذلك فسنتحدث عنها على ضوء المستفاد من كل السـورة ومن كل القرآن الكريم ، ومن تاريخ العالم الاسلامى كله.

« وتلك الأيام نداولها بين الناس »

أول درس أراد الله سبحانه وتعالى أن يغرسه فى نفـوس المسلمين الى ابـد الآبـدين أن يفصلوا بين احداث التاريخ ومجرياته وبين الايمان بالله ، فالايمان بالله على الوجه الصحيح يجعلك دائما الأعلى (معنويا على الأقل) أما بالنسـبة للأحداث التاريخية الجارية فهذه قد شاءت ارادة الله أن يداولها بين الناس و « نداولهـا » أى نصرفها بصـورة مختلفـة من حيث

الضعف والقوة ، والخفض والارتفاع والغلبة والسلطان ، أو القهر والضياع ، الى آخره ولقد عبر شاعر عن هذا المعنى فأجاد التعبير وذلك فى قوله :

ويوم لنا ويوم علينا ويوم نساء ويوم نسر

فالدنيا لا تسير على خط واحد هابط ابدا أو صاعد ابدا ، والأمر فى النهاية منوط بارادة الله للسير فى هذا الطريق أو عكسه وهو درس مافتىء الله عز وجل أن يعلمه للمسلمين من حين لآخر ، وسنرى كيف انهم عندما نسوه مرة أخرى وتصوروا أن الدنيا دانت لهم وانتهى الأمر ، فكان أن ذكرهم سبحانه بهذه الحقيقة مرة أخرى وهى أن مرجع الأمور كلها اليه وكان ذلك فى غزوة حنين .

« ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا .. » الآية .

وعندنا ان ما حدث فى حنين هو عين ما حدث فى أحد حيث بوغت المسلمون بأمر لم يتوقعوه والمهم فى كل هذا ان الأمور بيد الله يصرفها كيف شاء وانى شاء لحكمة اختص هو بعلمها ، فلا ينبغى أن تؤثر الأحداث الجارية على ايمان المؤمن ، ففى القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، تصور كثيرون ، ان أوروبا علت وسادت المسلمين وانتهى الأمر ، وها نحن اولاء نشهد زوال سلطان اوروبا ، وعودة النهضة الى العالم الاسلامى فعلى المؤمن ان لا يزعزع ايمانه تقلب الأحداث فقد شاءت ارادة الله كما قدمنا ، أن يجعل الغلبة والقوة والمنعة والغنى والفقر .. الخ ليس وقفا ولا حكرا على صنف من الناس .

« وليعلم الله الذين آمنوا » .

ويجب ان نفهم من مثل هذا التعبير ، انه يخاطب عقولنا وأفهامنا ، والا فعلم الله قديم وسابق على كل شىء ، ولكنه يعلم الدنيا عامة والبشر خاصة ، من هو العبد المؤمن ، ومن هو غير المؤمن ، من الذى لا تزده الأحداث المتقلبة الا ايمانا ، ومن الذى يتسرب الشك الى نفسه .

« ويتخذ منكم شهداء »

وهذا هو درس آخر أراد الله سبحانه وتعالى أن يلقنه للمسلمين ليعدهم للقتال فى سبيل الله الى أبد الآبدين .

فما من حرب فى الدنيا ، صغرت أو كبرت ربح فيها من ربح ، وخسر فيها من خسر الا وسقط فيها قتلى من الجانبين ، والقرآن هنا يعلم المسلمين ان الله سبحانه يريد أن يكون له شهداء يموتون فى سبيل اعلاء كلمته وفى هذا يقول تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ... » الآية .

وليس يغير من صفة الشهيد ولا من مكانته عند الله ، نتيجة المعركة وهل كانت عند هذا الجانب او ذاك .

ومرة أخرى نلفت النظر الى ان ذلك كله تربية من الله واعداد للمسلمين ، فعندما يقول لنا « ويتخذ منكم شهداء » ، فذلك لخيرنا نحن ، أما هو فغنى عن العالمين .

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا
يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ
وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ
وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ
كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

« والله لا يحب الظالمين »

ولما كان الله هو الحق ، وهو العدل ، وهو الرحمة فهو يذكر المؤمنين ليكونوا على ثقة بالنصر النهائى ، لأن كل من كان على باطل فهو ظالم وكل من كان غير عادل أو رحيم فهو ظالم ، والله لا يحب الظالمين ، فنهايتهم معلومة ومقررة وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين .

يمحص : بمعنى يختبر ويبتلى : وقيل يطهر وقيل يخلص .

يمحق : اى يهلك ويستأصل .

والمعنى هو ما سبق ان اشرنا اليه .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » .

هذه الآية والتى سبقتها هى تأكيد للمعانى التى تضمنتها الآية الكريمة التى سبقتها فالله سبحانه وتعالى وهو فى مقام التشريع يحدد للمؤمنين المبادىء والقواعد التى تؤدى الى الجنة ، وهو هنا يقرر لهم ان فى ميدان المعركة لا يدخل فى جنته الا من جاهد (اى حارب وقاتل) أو ثبت فى أرض المعركة وكان من الصابرين .

« ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » .

وهذا هو أحد الوان التمحيص اى الاختبار فعقب غزوة بدر ولم يشترك فيها من المسلمين الا ثلثمائة ، فقد تصايح كل من لم يشترك فيها انه كان يرغب فى القتال وكان يتمنى لو استشهد فى سبيل الله .

ولقد كانت هذه الحماسة هى التى جعلتهم يشيرون على رسول الله ان يخرج بهم لملاقاة المشركين ، فكان هذا الذى كان ، والقرآن هنا يذكرهم بما قالوه من تمنيهم الموت (اى الشهادة) فى سبيل الله وعندما بوغتوا على ما بينا وسوف نبين ، اذا بهم يفرون من الموت « وانتم تنظرون » اى وانتم تعاينون وتشهدون .

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » .

نصل الآن الى الآية الكريمة التى كانت هى الأصل والأساس ، لكل ما أشيع حول غزوة أحد وما مكن لهذه الشائعات وساعدها على الرواج، والحادث الذى تشير له الآية هو القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل وانتهى أمره ، فكان مجرد سريان هذه الاشاعة المكذوبة، أهم عامل حال دون عودة المسلمين للتجمع وهزيمة المشركين كما حدث فى أول المعركة ، كما كانت السبب فى تصور المشركين أنهم انتصروا ، وليس أدل على ذلك من أن مشركى قريش لم يكادوا يتثبتوا من أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم لا يزال على قيد الحياة حتى اسرعوا مهرولين الى مكة .

الآية التى انقذت المسلمين :

ونحن نعلم اليوم ويعلم كل المسلمين الذين سبقونا منذ أن التحق الرسول صلوات الله عليه بالرفيق الأعلى ، ان هذه الآية الكريمة قد انقذت المسلمين فى أعقاب وفاة رسول الله من فتنة عارمة لم يكن يعرف سوى الله كيف كان يمكن أن تنتهى ، لولا أن أنطق الله سيدنا أبا بكر الصديق بهذه الآية ، فأنقذت الموقف وحسمت كل شىء ، ولأدع الآن الامام البخارى رضى الله عنه يحدثنا عن هذه الواقعة الخالدة كما رويت له بسنده :

قالت السيدة عائشة ان أبا بكر رضى الله عنه اقبل على فرس من مسكنه بالسنح فدخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمم (أى قصد) رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغطى بثوب حبرة : فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى ثم قال : بأبى انت وأمى والله لا يجمع الله عليك موتتين : أما الموتة التى كتبت عليك فقد متها ... وخرج أبو بكر وعمر يكلم الناس وقال : اجلس يا عمر ، قال أبو بكر : أما بعد فمن كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت قال الله تعالى:«وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » الى قوله وسيجزى الله الشاكرين قال فكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر فتلاها معه الناس كلهم فما اسمع بشرا من الناس الا يتلوها واخبرنى سعيد بن المسيب أن عمر قال والله ما ان سمعت أبا بكر تلاها فعرفت حتى ما تقلنى رجلاى وحتى هويت على الأرض ... الحديث بطوله وروايات فى البخارى .

وبقى أن تعرف ان سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول فى هذا الموقف العصيب، على ما رواه ابن ماجه فى سننه ونقله عنه القرطبى : « والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يموت حتى تقطع أيدى أناس من المنافقين كثير وارجلهم » .

واذا كان هذا ما يقوله عمر بن الخطاب وهو من هو ، فعليك أن تتصور ماذا تكون عليه حالة بقية المسلمين .

ويعنينا فى هذا المجال ان هذه الشائعة التى شاعت فى غزوة أحد عن وفاة رسول الله ونزلت الآية الكريمة بمناسبتها ، كانت هى التى أعادت للمؤمنين ايمانهم الذى تزلزل عند وفاة رسول الله فعلا أى أن ما حدث فى أحد كان درسا يلقنه الله سبحانه وتعالى للمسلمين ، ليس فقط على أيام

النبى ، وانما الى ابد الآبدين ان سيدنا محمــدامهما كبر وعظم فالله اكبر وهو فى نهــاية الأمر عبد الله ورسوله ، ومن هنا فقــد راحت الآية الكريمة تذكر المؤمنين بهذه الحقيقة وتعاتبهم فى نفس الوقت فتقول لهم : هبوا أن ما قاله الناعق صحيح ، وتقول بعض الروايــات ، ان ابليس اللعين هو الذى صاح معلنا قتل محمد ، وسواء كان الناعق هو ابليس أو اى كائن آخر فالثابت بنص القرآن ، ان هذا القول تردد .

ويقول القرآن الكريم ان هذا القول حتى ان صح فهو لا يعنى بحال أن يرتد المســلمون بعد ايمانهم كفارا ، وكم سبق سيدنا محمدا رسل دعوا الى مثل ما دعا اليه ، ثم ماتوا فلم يرتد اتباعهم كفارا .

« وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » خلت : اى مضت « أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شــيئا »

يقال لمن عاد الى ما كان عليه ، انقلب على عقبيه ، أو نكص على عقبيه ، ومعناه ان يرتدوا كفارا وقال بعض المفسرين ان المقصود بها هنا هو ارتداد المسلمين يوم احد فرارا وهربا ولكننا نؤثر المعنى الأول ، فقد كان ذكر هذه الآية هو العاصم للمسلمين من الكفر بعد وفاة ســيدنا محمد .

« ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا »

والمعنى واضح فمن يؤمن انما يؤمن لنفسه ومن يكفر فلن يضر بكفره الله فى قليل أو كثير فالله غنى عن العالمين .

« وسيجزى الله الشاكرين » :

ومكافأة الله سبحانه وتعالى للحامدين الشاكرين ، هى احدى سننه ، ولكن الحديث عن جزاء الشاكرين بمناسبة أحداث « أحد » قاطع فى انه كان من صحابة الرسول من وعى أحداث أحد وشكر الله عليها باعتبارها احدى النعم .

« وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا » .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : كفى بالموت واعظا وقد كان من مقاصد القرآن تعليم المؤمنين ان الموت آت لا ريب فيه وان الله سبحانه وتعالى هو الذى يحيى ويميت ، وقد جعل لكل اجل كتابا ، لا يستطيع الانسان ، اى انسان ، اذا جاء هذا الأجل أن يؤخره ولو لمــا هو دون اللحظــة .

قال تعالى : « فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

وساعة هنا لا تعنى هذا القدر من الزمن (٦٠ دقيقة) وانما هى رمز لمطلق الزمن .

وعندنا ان الايمان بهذه الحقيقة ، وان الأعمار كما يقولون بيد الله ، هى التى تجعل الشجاع شجاعا فى كل زمان ومكان ، وقد كانت هى سر عظمة المسلمين عندما كانوا عظماء وعندما ضعف ايمانهم بها انتهوا الى ما كانوا قد انتهوا اليه ، واذا كنت انا « شــخصيا » اتفاءل بمســتقبل المسلمين ، فذلك لأن هذا الايمان قد بدأ يعود اليهم ، فنرى المسلمين فى كل مكان وقد هبــوا

يقاتلون ، ايمانا منهم أن لكل اجل كتابا ، يستوى فى ذلك ان يحاربوا شجعانا ، أو أن يقعـدوا ويستكينوا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها .

وبعد ان وضعت الآية الكريمة ايدى المؤمنين على حقيقة الحياة الكبرى من ان الموت آت لا ريب فيه ، لا يؤجله فضـلا عن أن يرده اى تصرف انسانى من اى نوع كان ، ترك الله سـبحانه وتعالى لكل انسان ان يختار ما يريد ، اهو يريد الدنيا بكل ما فيها ، ام يتطلع الى ما وراء الدنيا من حياة آخرة وهى الأبقى والأكمل ، ووعد الله سبحانه ، أن يعطى لكل انسان ما يريد فمن يرد ثواب الدنيا نؤته منها وهو المشاهد والملحوظ دائما فى كل زمان ومكان فمن جعل كل همه أن يحصل فى الدنيا على هذا الشىء أو ذاك ، فهو يحصل عليه فى اغلب الأحيان وقد يضـحى فى سبيل الحصول عليه ، بكل المعـانى الكريمة المتعارف عليها ، والمهم انه يحصل على ما يريد فقد وعد الله ووعده الحق ، بذلك .

ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها : فى المقابل فان من يرد ثـواب الآخرة فان الله سـبحانه وتعالى سوف يحقق له ما يريد .

وسنجزى الشاكرين : ومرة اخرى تختم الآية بالنص على أن الله سبحانه وتعـالى سيكافىء الشاكرين ، يعنى بهم المؤمنين ، ثم هو يطـلق الجزاء فلا يقيده بالدنيا أو الآخرة ، لأنه تعالى اذا كان قد وعد بحسن الجزاء فى الآخرة ، فهو قد يمنحه فى هذه الدنيا قبل الآخرة .

فائدة للمسلمين :

ونريد ان نخرج قليلا عن السياق ، لنسـوق للمسلمين فائدة ، فلا ينبغى أن يتصور متصور انه بموجب هذه الآية الكريمة ، اصبح من المتعين على المسلم أن لا يلتمس خيرا من الدنيا ، كلا .. ان مثل هذا التصور يكون خاطئا فقـد جاء فى القرآن الكريم :

ــ ولا تنس نصيبك من الدنيا

ــ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا

ــ وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا .

ــ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعبـاده والطيبات من الرزق .

وعندنا ان الآية التى تنظم القضية بأكملهـا قضية الموازنة فى العمل للدنيا والآخرة هى قوله تعالى فى سورة البقرة :

« فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » .

اى أن المطلوب من المسلم المؤمن ان لا يجعل الدنيا هى همه الوحيد ، بل يجب أن يعمل من اجل الآخرة ايضـا .

وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ
يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا
عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ
ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ
وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ
وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ

« وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » .

مفردات :

وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير — كأين : يعنى كم .

ربيون : الجماعة الكثيرة ، وقدرها البعض بألف والبعض بعشرة آلاف ، وقال آخرون هى الألوف الكثيرة ، وخير من ذلك كله المعنى الأول من انها الجماعة الكثيرة .

فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله .

الوهن : انكسار الحد بالخوف ، ونحن نختار « وهنوا » بمعنى خافوا ، وهذا أفضل من تفسيرها ، « ضعفوا » لأن الآية الكريمة لن تلبث ان تنفى عنهم الضعف .

وما ضعفوا وما استكانوا :

الاستكانة الذلة والخنوع « والله يحب الصابرين »

والصبر فى القتال هو الثبات ، واحتمال كل صنوف المخاطر وما تبعثه فى النفس من خوف .
« وما كان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا »

وكل هذا القول يساق لصحابة رسول الله اولا فقد نزل بسبب ما حدث فى احد وكانوا هم اول من سمعه ، والقرآن يعاتبهم ويذكرهم ان نبيهم ليس هو اول من يقاتل فى سبيل الله فيقتل

او يموت (الآية السابقة) وليسوا هم أول من يحارب الى جوار نبيهم ، بل لقد سبقهم الكثيرون فما خانوا ولا ضعفوا (ولم يفـروا) بل انهم توجهوا لله بالدعاء « وكأنهم عاينوا الموت » ان يغفر لهم ذنوبهم واسرافهم فى امرهم والاسراف هو تجاوز الحد ، اى أنهم واجهوا الموت بالتوبة وطلب المغفرة ، واذ كانت الحرب لا تعنى أبدا الموت ، فقد مضى المؤمنون وقد تطهروا بالتوبة وطلب المغفرة وبالتالى فقد ازدادوا قوة ومضوا يدعـون الله .

« وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين» وأرجو أن تلاحظ تسلسل الدعاء فى درجـات تنتهى بطلب النصر الذى يصبح بعدها شـيئا محققـا ، لقوله تعـالى : « ان تنصروا الله ينصركم » وهو ما تراه فى الآية التالية مباشرة « فآتاهم الله ثواب الدنيا » وثواب الدنيا ، للثبات فى القتال مع صدق النية واخلاصها هو النصر المؤزر « وحسـن ثواب الآخـرة والله يحـب المحسنين » ومرة اخـرى تلفت النظر لكلمـة « وحسن » ثواب الآخرة فى هذا الموطن ، ففى آية سابقة قال تعالى : « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها » أما فى هذه الآية فقد زيدت كلمة « وحسن » ذلك ان جماعة المؤمنين استحقوا ما هو اكثر من الثواب العادى فى الآخرة فهم لم يضعفوا ولم يستكينوا ، وانما استغفروا وتطهروا بالتوبة وثبتوا فى القتال فى سبيل الله فكان فضل الله عليهم عظيمـا ، فمنحـهم النصر فى الدنيا « وحسن » ثـواب الآخرة .

« والله يحب المحسنين » .

اشارة الى ما فى موقف هذا النفر وتصرفهم من امتياز يرفعهم فوق ايمانهم درجـة ، وهى درجة الاحسان .

« يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على اعقابكم فتنقلبوا خاسرين » .

التحذير من اتباع الذين كفروا قائم ودائم الى يوم الدين ، ومع ذلك فنحن نستشف من القول على ضـوء ما ورد فى كتب السيرة مدى البلبلة التى نجح اعداء الدعوة المحمدية فى اشاعتها فى صفوف المسلمين من زعمهم بأن المسلمين هزموا شر هزيمة فى «أحد» وافترق المفسرون فيمن عناهم القرآن « بالذين كفروا » فقال البعض : هم مشركو قريش وقال بعض آخر : هم اليهود ، وقال آخرون بل هم المنافقون واخترنا نحن ان يشمل التعبـير هؤلاء جميعا فقلنا « أعـداء الدعوة المحمدية » فلابد ان يكونوا قد تضافروا جميعـا وتعـاونوا لتضخيم ما حـدث ودعوا المؤمنين للرجوع الى دينهم ، وعندنا ان كل من هدف الى هذه النتيجة فهو كافر بلا جدال أو شبهة يستوى فى ذلك أن يكون من مشركى قريش أو يهود يثرب أو المنافقين ممن تظاهروا بالاسلام « بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » فلا تلتفتوا القول من حاول أن يردكم بعد ايمانكم كافرين ، واستمسكوا بايمانكم « بالله الواحد الأحـد فهو فقط ولا احد سواه « خير الناصرين » .

« سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النـار وبئس مثوى الظالمين » .

أشرنا من قبل ان مشركى قريش الذين زعموا لأنفسـهم أنهم انتصروا فى « أحـد » لم يكادوا يتبينون ان سيدنا محمدا عليه الصلاة والسلام لم يقتل وأنه لم يكد يرجع الى المدينة حتى ندب من حضر موقعة احد معه أن يهبوا معه لمطاردة قريش ، تقول كتب السيرة : ان قريشا لم تكد

تسمع هذا النبأ حتى امتلأوا بالذعر وحثوا خطاهم للرجوع الى مكة ، وهذه الآية الكريمة ، تفسر لنا سر هذا الهلع الذى اصـــاب مشركى قريش فغنى عن البيـــان انهم كانوا فى حـــالة زهـــو بانتصارهم المزعوم ، وكان من غير المعقول أن يتمكن سيدنا محمد من اللحاق بهم بعدد كبير ، فما هو السر فى تراجعهم بهذه السرعة ؟ تكشف لنا الآية هذا السر وهو ان الله القى فى قلوبهم الرعب (اى الخوف الشديد) أما مصدر الرعب فهو معنوى نفسى ، وهو احساسهم انهم يحاربون عن قضية خاسرة وهى اشراكهم بالله ، والاشراك هو مصدر فعل اشرك تقول اشرك به ، اى عدل به غيره ليجعله شريكا ، وقد كانت هذه الفكرة فكرة الاشراك بالله قد تزعزعت فى نفوس الكثيرين ، وبدأ نور التوحيد ينفذ بالتدريج الى هذه القلوب المظلمة بالشرك ، ومن هنا نستطيع أن ندرك لماذا امتلأوا رعبا عندما سمعوا بمسير ســـيدنا محمد نحوهم ، ولم يحل انتصارهم المزعوم دون وقوع هذا الرعب .

« بما اشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » :

قدمنا أن اشركوا بمعنى جعلوا لله شريكا ، اى عدلا له وندا .

ما لم ينزل به ســـلطانا : السلطان الحجة والبينة والبرهان .

« ومأواهم النار وبئس الظالمين » مثوى : من ثوى يثوى ثواء ، بمعنى اقام ، والمأوى هو المكان الذى يرجع اليه الشىء ليلا أو نهارا .

قبل أحد وبعد أحد والى ابد الآبدين :

وهكذا نزل القرآن الكريم بعد غزوة احـــد يتحدث عن المشركين بما اعتاد أن يتحـــدث به عنهم ، من أن مأواهم جهنم وبئس المصير « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنـــكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين »

تحسونهم : اى تستأصلونهم بالقتل وهذه الآية الكريمة هى التى شرحت صدرنا الى أن معركة أحد من الناحية العسكرية كانت نصرا للمسلمين ، وكان سببها أن خالف بعض المســـلمين الأوامر المعطاة لهم فكان أن حجب الله سبحانه وتعالى هذا النصر ليريهم ويعلمهم ويختبرهم ولكن حجب النصر عن المسلمين ، لم يحوله الى هزيمة لهم وبالتالى لم يحرز المشركون اى نصر .

ولقد أوضحت هذه الآية الكريمة هذه الحقائق بما لا مزيد عليه .

« ولقد صدقكم الله وعده » .

انظر الى هذا التعبير وتدبر دلالته ، فهو يعنى ان الله سبحانه وتعالى قد حقق للمسلمين وعده ، بأن نصرهم على عدوهم ومن هو هذا العدو ، انهم ثلاثة آلاف مقاتل جاءوا مجهزين بالعـــدد والعدة والتصميم على الأخذ بالثار ، فلم يكادوا يخوضون المعركة مع سبعمائة مسلم فقط (اى دون ربع عـــددهم) حتى انتصر المســـلمون ، ومعلوم ان قوة اى جيشين عند الالتحام انمـــا تتجلى فى الصدمة الأولى وقد انتهت الصـــدمة الأولى بـــين المشركين والمســـلمين بانتصـــار المسلمين ، وهذا هو المستفاد من قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه » : ثم زادت الآية الكريمة الأمر تفصيلا فذكرت لنا كيف ان المؤمنين شرعوا فى قتال المشركين ، وهنا تزودنا

كتب السيرة بمزيد من التفصيلات فتحدثنا كتب السيرة كيف أن حامل لواء المشركين قتل ، وقد كان قتــل حامل اللواء يعنى أو يرمز لهزيمــة الجيش ، فتقدم من المشركين من حمل اللواء من جديد ولكنه قتل بدوره وتقول كتب السيرة ان عدة من قتل من المشركين ممن تصدوا لحمــل اللواء بلغوا سبعة قتلوا جميعا ولدينا بيت من الشعر منسوب الى حسان بن ثابت يفيــد أن الأمر انتهى بأن توقف الرجال عن حمل اللواء فتقدمت امراة لحمله وهى عمرة بنت علقمــة الحارثية ، وفى هذا يقول حسان :

فلــولا لــواء الحــارثية اصــبحوا ... يباعــون فى الأســواق بيع الجلائب

يبين من ذلك ان المعركة حققت نصرا كاملا للمسلمين ؛ ويبين ذلك من قوله تعالى : « من بعد ما أراكم ما تحبون » واى شىء يحبه المسلمون اكثر من النصر . فما الذى حدث بعد ذلك ؟.

ويكون السؤال فما الذى حدث ليحجب هذا النصر الذى تحقق بالفعل ، تجيب الآية الكريمة على هذا التساؤل بقولها :

« حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم » فما الذى وقع من المسلمين مما يصــفه القرآن الكريم . فشلا وتنازعا وعصيانا هنا وندع الحديث للامام البخارى يفصل لنا ما حدث .

روى البخارى عن البراء بن عازب قال : لمــا كان يوم أحد ولقينا المشركين أجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم اناسا من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم : لا تبرحوا من مكانكم ان رايتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وان رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تعينونا عليهم ، قال فلما التقى القوم وهزمهم المسلمون حتى نظرنا الى النساء ينشــدن فى الجبل وقد رفعن عن سوقهن وقد بدت خلاخلهن فجعلوا يقولون : الغنيمة ، الغنيمة فقال لهم عبد الله (بن جبير) امهلوا ، أما عهد اليكم رسول الله الا تبرحوا ، فانطلقوا فلما أتوهم صرف الله وجوههم وقتل من المسلمين سبعون رجلا .

ثم ان أبا سفيان بن حرب أشرف علينا وهو فى نشز (أى مرتفع من الأرض) فقال أفى القوم محمد ؟ فقال رسول الله : لا تجيبوه حتى قالها ثلاثا ثم قال ، أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ ثلاثا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجيبوه ، ثم قال ، أفى القوم عمر ؟ ثلاثا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تجيبوه ، ثم التفت (أى أبو سفيان) الى أصحابه فقال : أما هؤلاء فقد قتلوا ، فلم يملك عمر نفسه دون أن قال : كذبت يا عدو الله قد أبقى الله لك ما يخــزيك به . فقال : أعل هبل . قال النبى صــلى الله عليه وسلم : أجيبوه ، قالوا : مانقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا الله أعلى وأجل ، قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجيبوه ، قالوا : مانقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم : قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب ســجال ، الا انكم ســتجدون فى القـــوم « مثله » لم آمر بهــا ولم تســؤنى . انتهى ما جــاء فى البخــارى وقد فصلت كتب السيرة حقيقة ما وقع نتيجة مخالفة الرمــاة لتعليمات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا بسندهم الموثوق به : « وحملت خيــــل المشركين على المسلمين ثلاث مرات كل ذلك وهى تنضح بالنبل فترجع مغلوبة ، وحمل المسلمون فنهكوهم قتلا ، فلما أبصر الرماة الخمسون ان الله عز وجــل فتح لاخوانهم ، قالوا : والله ما نجلس ههنــا لشىء ، قد أهلك الله العدو ، واخواننا فى معسكر

المشركين . وقالت طوائف منهم : علام تقف وقدهزم الله العدو ؟ فتركوا منازلهم التى عهد اليهم النبى الا يتركوها ، وتنازعوا وفشلوا وعصوا الرسـول ... ا.هـ .

وكان ما كان مما سبق ان قلناه ، من أن خالدبن الوليد الذى عجز كما رأينا ثلاث مرات ما بقى الرماة فى مكانهم ، فلما غادروا المكان ، انقض خالد بن الوليد من هذه الثغرة وباغت المسلمين .

نصر كامل لسـيدنا محمـد وحجب للنصر عن المسلمين

وهذا الذى حدث هو نصر كامل لسيدنا محمدصلى الله عليه وسلم فما بقى المسلمون يعملون وفق خطته وتعاليمه فقد كان النصر .

« حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم »

فشلتم : من فشل يفشل فهو فاشل ، والفشل : عكس النجاح ، ويفسرها المفسرون هنا بأنها تعنى جبنتم وضـعفتم ، ولكننا لسـنا من هذا الراى ، فما حدث لم يكن نتيجة ضعف أو جبن ، وانما هو عدم التوفيق الذى جاء عقب الخلاف بين الرماة « وتنازعتم » ثم كان هـذا العصيان لأوامر رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم « وعصيتم » .

وقد كشف القرآن الكريم عن الدافع لهـذا العصيان بقوله :

« منكم من يريد الدنيا » والدنيا هنا هى الغنيمة التى أراد الرماة أن يحصلوا على حظهم منهـا ولا مانع كما قدمنا فى أن يأخذ الانسان بنصيبه من الدنيا ، شريطة أن لا يخالف أبسط تعـاليم الاسلام ، فما بالك والمسألة هنا هى مخـالفة صريحة لأوامر رسول الله ولذلك فقد جاء التقويم السريع من الله سبحانه وتعالى لجماعة المسلمين فحجب عنهم النصر الذى كانوا قد أحـرزوه فعلا .

« ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » .

صرفكم : ردكم ، وقال بعض آخر « صرفكم » يعنى انه لم يكلفكم بطلبهم ، ويعنينا نحن من اللفظ ، انه يدل على أن يد المسلمين كانت هى العليا ، الى أن حولها الله على النحو السابق ، ليؤدب المسلمين ويعلمهم ويربيهم وغير ذلك من المعانى التى قدمناها والتى ركزها القرآن فى «ليبتليكم» .
« ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » ولم يشأ الله بواسع كرمه وفضـله ، ان يبقى ما حدث معلقا ، فأنزل عفوه على كل من شارك فى غزوة أحد ، لقد كانت درسا للمسلمين وعلم الله عز وجل أنهم وعوا الدرس ويتبين ذلك من استجابتهم الفورية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى اليوم التالى لمطاردة المشركين فأما وقدوعوا الدرس واجتازوا الامتحان فقد بشرهم الله عز وجل بأنه عفا عنهم والعفو هو استئصـال الذنب وجعله كأن لم يكن .

وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ
فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ
عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ
الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ
لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ
وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ

« والله ذو فضل على المؤمنين » .

مواصلة تسجيل وقائع معركة أحد :

ويمضى القرآن الكريم فى الاشارة الى بعضما جرى للمسلمين فى غزوة أحد وقد تحدثنا فيما سبق تبعا لسياق الآيات كيف انتصر المسلمون على المشركين فى الجولة الأولى وولوا منهزمين ، حتى خيل لكتيبة الرماة أن المعركة قد انتهت وجاء دور جمع الغنائم فسمحوا لأنفسهم ان يعصوا أمر الرسول الذى أمرهم أن لا يبرحوا أماكنهم ، مهما حدث فكانت الثغرة التى انتهزها خالد بن الوليد وهاجم المسلمين من الخلف وهم مشغولون بجمع الغنائم ، فكان لهذه المباغتة أثرها فى اصابة المسلمين بالهلع والذعر فاذا بهم يفرون من أرض المعركة تحت هول المباغتة وهذه الآية تصور لنا قمة هذه المأساة .

« اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى اخراكم » .

تصعدون : (بضم حرف التاء) من الفعل أصعد ، وهو السير فى مستوى من الأرض وبطون الأودية ، قال المبرد : أصعد ابعد فى الذهاب وأمعن فيه .

وقال نفر : أن المقصود هو الصعود فى الجبل، وواقع الحال لا يتفق وهذا القول ، فالذى يفر من أرض المعركة يكون كل مايشغله هو أن يبتعد عنها بأسرع ما يستطيع ، وأن يختفى عن الأبصار بالعدو السريع جدا ، لا ان يتسلق جبلا ويؤكد ذلك من أن الامر كان امر جرى وفرار بأسرع ما يمكن ، الجملة التالية :

« ولا تلوون على أحد » : اى لا تعرجون ولا تلتفتون لشىء ، فان من يلتفت الى شىء أو يعرج عليه ، فانه يلوى اليه عنقه .

« والرسول يدعوكم فى اخراكم » :

وتمعن الآية الكريمة فى تصوير هول الذعر الذى أصاب الفارين والذى بلغ الى حد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يهيب بهم للتوقف والثبات فان شيئا ما لم يغير موازين القوى التى حققت للمسلمين النصر ، ولكن هؤلاء المنهزمين كانوا يمعنون فى الفرار غير ملتفتين الى احد حتى لو كان رسول الله نفسه ، و « اخراكم » اى فى مؤخرتكم .

« فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم » .

الغم : فى اللغة التغطية : تقول غممت الشىء اى غطيته ، ويقال « غم الهلال » اى لم ير ، جاء فى الحديث الشريف : « اذا غم عليكم هلال رمضان فأكملوا شعبان ثلاثين يوما » .

ولكن الغم فى الاصطلاح هو صدمة الحزن الأولى عندما يفاجأ الانسان بمصيبة أو كارثة واذا جاز لى أن اسوق تشبيها من عالم الطب لاظهار العلاقة بين الغم والحزن فهم يقولون : ان المرض يكون حادا ثم يتحول الى مزمن واتصور أن الغم اذا استمر فانه يصبح حزنا .

والآية الكريمة تصور لنا الكوارث التى نزلت بهؤلاء الفارين ، فهم لا يكادون يرزأون بمصيبة الفرار وقتل من قتل وجرح من جرح حتى تنهال عليهم الكارثة الأفدح عندما نعق الناعق بأن رسول الله قد قتل وهكذا عاقبهم الله على الغم الأول ، بالغم الثانى .

وكانت هذه الشائعة المحزنة شائعة وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، واتضاح كذب الاشاعة وان رسول الله صلى الله عليه وسلم حى يرزق بمثابة خاتمة سعيدة لغزوة احد فلم يعد احد يبالى بما ضاع من الغنائم أو بما أصاب المسلمين من قتل وجرح ، فسلامة رسول الله بالدنيا وما فيها .

« والله خبير بما تعملون »

وتختم الآية شأن القرآن دائما ـــ بالتذكير بعظمة الله وقدرته وعلمه الذى يحيط بكل شىء .

« ثم أنزل عليكم من بعد الغم امنة نعاسا يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد اهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل ان الأمر كله لله يخفون فى انفسهم مالا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور » .

الأمنة : الأمن ، نعاسا : النعاس معروف وهو الفتور الذى يسبق النوم تقول جمهرة المفسرين ان النعاس الذى نزل بالمؤمنين فى غزوة احد كان اثناء المعركة ، فلزمنا ان نثبت قولهم ليكون أمام القارىء يأخذ به اذا شاء ، والذين يتابعوننا فى هذا التفسير يعلمون مدى تحرجنا ، بل انكارنا لمحاولة تفسير القرآن برأى انسان لا سند له الا عقله هو ، ومزاجه هو ، ولذلك فنحن نعيذ أنفسنا من أن نقول برأى مخالف لما ذهب اليه جمهرة المفسرين وأن يكون سندنا فى الخلاف هو مجرد الرأى وانما نستند فى المخالفة على نص القرآن نفسه فهو يقول :

« ثم انزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا » فهناتحديد زمنى صريح لنزول الأمن والنعاس (الذى هو من مظاهره) وان ذلك قد حدث بعد الغم ومعلوم على ما قدمنا ان موقعة أحد قد مرت فى مرحلتين : الأولى وكانت نصرا مؤزرا ، فلا محلللتحدث عن الغم هنا .

اما المرحلة الثانية . فكانت عنـــدما بوغتالمسلمون بهجوم غير متوقع فكان الذعر والهلع وما ادى اليه من فرار .

وهنا . كان الغم نتيجة من قتل ومن جرح وفقدان النصر ، ثم كان الغم الأكبر عندما سرت اشاعة موت النبى صلى الله عليه وسلم فعندمايقول لنا القرآن الكريم : ان بعد هذا الغم الذى اصاب المسلمين أنزل الله الأمن الى حد النعاس،فنحن نفهم من هذا أنه كان بعد المعركة ، ونسأل الله أن يجنبنا الزلل .

ونحن نرىأن الآية كلها تصور الحالة النفسيةالتى تفشـــت فى المدينـــة حيث باض المنافقون وافرخوا وقد واتتهم فرصة التشنيع والتشكيك ،وحيث كان اليهود كما هو شأنهم دائما ينفثون سمومهم وعلى ضوء هذا التصور والفهم نشرحالآية فى مجموعها فنقول وبالله التوفيق :

كان المفروض عقب هذه النازلة التى دهمتالمسلمين فى أحد أن تستبد بهم حالة الفزع والقلق، ولكن الذى حدث للمؤمنين الصادقين ، كانعكسذلك تماما فبمجرد أن علموا بنجاة سيدنا محمد صلى الله عليه وســـلم حتى فرحوا واطمأنتنفوسهم حتى لقد ذاقوا طعم النوم ، وطعمالنوم عقب المعركة شعور منهم بالأمن والطمأنينة يدل على ذلك أنه عندما ندبهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للقتال فى اليوم التالى ، لبوا جميعـــاالدعوة واسرعوا تحت قيادته لمطاردة المشركين.

الحديث عن المنافقين :

وتتحدث الآية فىصراحة ونصاعة عن المنافقين،فالمؤمنون برسول الله ما كانوا ليقولوا كلمـــة واحدة مما حكاه القرآن عنهم ، وهم الذين عانوا ما عانوا ليقولوا كلمة واحدة من هذا الطراز فرفضوا ، وحسبنا أن نستعرض نص ما قالوه:

« وطائفة قد أهمتهم انفســهم يظنون بالله غيرالحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل ان الأمر كله لله يخفون فى انفســـهمما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا .

وعندنا ان هذا القول كله هـــو حكاية عنالمنافقين ، وقد ذكرنا فيما مضى عن عبد الله بن ابى — زعيم المنافقين — انه قد رجع قبل المعركةولميشترك فيها،ولابد انهاستغل ماحدثفى «أحد» ليستعيد نفوذه وسلطانه فراح على اســـلوبالمنافقين يتظاهر بالحزن والكمد لينفث سمومه ويشيع افكه وبهتانه من مثل :

— « هل لنا من الأمر من شىء » .

— «لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا ».

وعلى كلا الزعمين الذى لا يقول بهما الا منظل على كفره وان تظاهر بالاسلام .

يرد القرآن الكريم بقوله :

ــ « قل ان الأمر كله لله » .

ثم يزيد الأمر تحديدا من ان لكل اجل كتاب .

ــ « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ، وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم » .

والابتلاء والتمحيص بمعنى الاختبار وطالما نبهنا الى ان ذلك لا يعنى أن الله يختبر ويمحص ليعلم ما لم يكن يعلم فعلمه قديم وانما هى دروس وعظات لنا لنستفيد بها .

« والله عليم بذات الصدور » .

عليم بعلم قديم محيط بكل شىء لا تخفى عنه خافية ، وهو تحذير وانذار للمنافقين الذين لا يتصورون أنه يعلم خلجات نفوسهم .

« ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم » .

« ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ».

كلام عربى فصيح مبين لا يفهم منه سوى معنى واحد ، وهو : « ان الذين تولوا » اى فروا « منكم » : أى انهم كانوا جزءا من الجيش ، « يوم التقى الجمعان » أى فى يوم المعركة هم المقصودون بالحديث التالى ، ومع ذلك فستجد من يقول لك انه خاص بفئة معينة أو أشخاص بذواتهم ، ونحن نجد فى ذلك تكلفا ، والحديث عام فى كل من فر من أرض المعركة .

ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟
وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ
ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ
فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ
فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ

« انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » :

استزلهم : اى دفعهم وحملهم على الزلل ،

والزلل هو الخطيئة .

بما كسبوا : اى بما اجترحوا من السيئات وارتكبوا من خطايا ، وهو ما يحدث فى النفس الضعف والوهن وهذه هى فرصة الشيطان للتسلل الى النفس والوسوسة .

والسيئات والخطايا ليست فقط ما يظنه البعض من عصيان بعض أوامر رسول الله فى ميدان المعركة فالقول عام فى كل من فر يوم المعركة وان ذلك تم بتسلط الشيطان الذى ما كان يقدر على ذلك ، لولا ما ارتكبه هذا البعض من خطايا سابقة .

« ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حليم » :

ولو وقف القرآن الكريم عند هذا الحد لكانت كارثة من اعظم الكوارث التى تحيق بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدق الروايات تتحدث عن انه من بين سبعمائة صحابى ، لم يثبت الى جوار رسول الله ويحاربوا حتى النهاية سوى بضعة عشر نفرا ، وقد كان فيمن فروا صحابى جليل كسيدنا عثمان بن عفان ، كما سنشير الى ذلك .

ومن هنا فلم يشأ الله بواسع رحمته وفيض كرمه أن يبقى القوم معلقين فأعلن مشيئته فى العفو عن هذه الخطيئة والعفو يمحو الذنب ويجعله كأن لم يكن ، واكدت الآية ان لا محل للاستغراب والدهشة لهذا العفو فهو سبحانه يعفو عن كثير ، لأنه هو الغفور الحليم ولقد كان هذا العفو الالهى هو الذى جعل صفحة سيدنا عثمان بن عفان بيضاء نقية فى وجه من تصور أنه يمكن أن تكون مغمزا فى سيدنا عثمان .

جاء فى صحيح البخارى « جاء رجل حج البيت فرأى قوما جلوسا فقال من هؤلاء القوم قال هؤلاء قريش ، قال من الشيخ ؟ قالوا : ابن عمر فأتاه فقال : انى سائلك عن شىء أتحدثنى ؟ قال انشدك بحرمة هذا البيت ، أتعلم أن عثمان بن عفان فر يوم أحد قال نعم ، قال فتعلمه تغيب عن بدر فلم يشهدها قال نعم ، قال فتعلم غيبته عن بيعة الرضوان فلم يشهدها ، قال نعم . قال فكبر ، قال ابن عمر تعال . فأخبرك وابين لك ما سألتنى عنه فأما فراره يوم أحد فأشهد أن الله عفا عنه ، وأما تغيبه عن بدر فان ما تحته كانت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم ان لك أجرا ممن شهد بدرا وأسهمه وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فانه لو كان اعز منه فى مكة لبعثه مكانه ، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان الى مكة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يده اليمنى (هذه يد عثمان فضرب بها على يده اليسرى) وقال : هذه لعثمان .

(قال ابن عمر للسائل) اذهب بهذا الآن معك اى انه شرح للسائل حقيقة الأمر حتى لا يضل .

« يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير » .

غزى : اى غزاة

ضربوا فى الأرض : اى كانوا مسافرين لغرض من الأغراض كالتجارة أو طلب العلم .

حسرة فى قلوبهم اى ندامة فى قلوبهم والحسرة هى الاهتمام والتعلق بشىء فائت لا يقدر على بلوغه .

والمعنى تحذير للمؤمنين أن لا يقعوا فى أباطيل الكفرة وهم المنافقون الذين كانوا يزعمون أنه لو لم يخرج المسلمون للقتال فى أحد ما ماتوا وما قتلوا فالله هو الذى يحيى ويميت ولا تزيد الحرب والاغتراب والسفر بعامة فرصة الموت فمتى حان أجل الانسان فهو واقع لا محالة ومالم يحن فلن يموت الانسان أبدا وسر النجاح والفشل والقوة والضعف كامن فى مدى ايمان الانسان بهذه الحقيقة .

« والله بما تعملون بصير »

وعلى المؤمن أن يوقن بانه :

« ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ولئن متم أو قتلتم لالى الله تحشرون » فليس فى الدنيا كلها منجاة من الموت « كل نفس ذائقة الموت » ولم يعرف البشر مذ كانوا بشرا ، أن انسانا ما قد خالف هذه السنة ، وفارق ما بين المؤمن وغير المؤمن ان هذا الأخير أيا كان الاسم الذى يطلق عليه :كافر ، مشرك ملحد ، مادى ، لا دينى فهو يتصور ان هذه الدنيا هى خاتمة المطاف وان الانسان اذا مات فقد انتهى من أمره ، أما المؤمن فيعرف انه سوف يبعث من جديد ليحاسبه الله على ما قدمت يداه فاما الى الجنة واما الى النار .

« ولئن متم أو قتلتم لالى الله تحشرون »

تحشرون : يوم الحشر اى يوم القيامة ويكون المهم الذى ينبغى أن يستولى على كل مشاعر المؤمن هل الموت ، أو القتل فى سبيل الله . ورمزه بين الناس الخير ؟ أو أن الموت أو القتل

كان فى سبيل الشيطان . أى الشر ؟ على هذا التساؤل تجيب الآية السابقة . الجواب القاطع الشــافى .

« ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من اللهورحمة خير مما يجمعون » ورحمة الله فى هــذه الآية بعد مغفرته تعنى دخول الجنة ، والجنة« خير مما يجمعون » أيا كان هذا الذى يجمعوه سلطانا أو ملكا أو مالا أو جاها فكل هذه أعراض‌زائلة ويبقى الخلود للآخرة « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من‌حولك » .

ســانحة :

استميح ربى عذرا أن اتحدث عن سانحة عنت‌لى وقد وصلت الى هذه الآية وأنا اذ أسوق هذه السانحة ، أو هذه الخلجة والخاطرة ، انما اتقرب‌الى الله بوصل ما بينى وبين القــارىء الذى يتابعنى فى هذا التفسير ، فلست أكتم القارىءأنه على الرغم من انقضاء عشر سنوات على شروعى فى هذا التفسير فاننى ما أمسكت القلم‌لأكتب فى التفسير الا وتملكنى خــوف ، وليس يشجعنى على المضى، سوى أمرين ، تحدثت عن‌اولهما أكثر من مرة ، وهو انه ما دام الله جلت قدرته قد أبقى لى قوة عقلى ، وأبقى ليدى قدرتهاعلى الكتابة فهذا ايذان منه ان أستمر أو هكذا اتصور .

أما الأمر الثانى وهو ماسنح لى بمناسبة هذه‌الآية ، فهو أنه كلمــا امتلأت نفسى بمعنى من المعانى ، وامتلأت بالرغبة فى افراغ هذه المعانى‌بطريق الكتابة ، اذ بالآية الكريمة التى جاء دورها فى التفسير ، تهيىء لى فرصة قول ما فى نفسى ،خذ على سبيل المثال انه وقعت فى الآونة الأخيرة احداث مؤسفة مفزعة ، وزاد فى كونها مؤسفةومفزعة ، انها ارتكبت باسم الاسلام ، والاسلام منها برىء ، بل انها تقف منه موقف الظلام من‌النور ، والشياطين من الملائكة ، ومع ذلك فقد ساد الجهل الى حد أن ارتكبت هذه الجرائم التى‌لا تصدر حدوثها الا عن مجانين .

وامتلأت نفسى بالرغبة فى الصراخ : أن كفوا أيها الناس عن الزج بالاسلام وسط هذا الجنون ، ان المجنون والمجانين يقولون ما يشاءون ، ان‌أى مجنون قد يتصور انه « اله » والمتواضعون منهم يتصورون أنهم نابليون والاسكندر ، ويجد دائما مجنونا آخر بل مجانين يتابعونه على هذا التصور ، ومن هنا كنت شديد الرغبة أن أبين وان‌اظهر ، أن من نزعت الرحمة من قلبه ،فقد جهل الاسلام من الألف الى الياء ، بل صــار عدوا‌للاسلام وحربا عليه ، وبينما أفكر هذا التفكير ، اذا بهذه الآية الكريمة التى نحن بصـــددها ،تعرض‌لى لتفسيرها وليس فى القرآن كله ما يصور الرحمة التى يجب أن يتحلى بها كل مسلم اقتداءبرسول الله من هذه الآية ، بحيث أستطيع ان أقول فى ظلها كل ما أود قوله ، وفهمت من هذا‌اشارة الهية أن أمضى فى التفسير .

« لا حياة بغير الرحمة »

اعلم ــ حفظلك الله ــ ان الحياة لا تقوم الا« بالرحمة » ولا تسير فضلا عن أن تزدهر الا بالرحمة وما حب الأم والوالدين بعامة الا فروعامن هذه الرحمة ، وكل ما تنطوى عليه الحياة من حنان وتعاطف وبر وصداقة وحسن معاملةاو معاشرة هى الوان من هذه الرحمة ، وما بعث الله بالأديان السماوية للناس الا ليتراحموا فيمابينهم ، وما الهدف وراء كل صنوف العبادات الا التراحم بين الناس ، ومن يتصور أن الله فى‌حاجة الى صــلاته وصــيامه فهو الى الوثنية

أقرب ، فالله غنى عن العالمين ، وعندما أنزل ادیانه فقد اراد بها صلاح البشر ، ولا صلاح لهم بل لا وجود أصلا اذا انعدم التراحم فيمـــابينهم .

« وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » .

وليس هذا الذى قدمناه هو اجتهاد منا وانمانص قرآنى يحصر السبب فى ارسال سيدنا محمد صلى الله علية وسلم فى ارادة الله سبحانه وتعالى فى رحمة البشر ، وكان رسول الله يقول عن نفسه : « أنا رحمة مهداة » .

والصفة الأساسية التى اراد الله سبحـــانه وتعالى أن يغرسها فى نفوس البشر غرسا ، كونه تعالى « الرحمن الرحيم » فكانت فاتحة كل السور بسم الله الرحمن الرحيم ، وندب المسلمين ندبا أن يستهلوا كل أمورهم بسم الله الرحمن الرحيم .

فالرحمة هى سدى الاسلام ولحمته ، أو هى الدماء التى تتدفق فى تعاليمه ، بل هى روح الاسلام وسر وجوده ومقاومته الزمن وانتشاره ، ولم ينهض المسلمون من عثرتهم فى أى يوم من أيام التاريخ الا فى ظل الرحمة .

«ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك »

وتعال الآن نرى مصداق ذلك كله فى الآية التى نحن بصددها ، فالله سبحانه وتعالى يرفع من شأن نبيه لأنه استجاب لدواعى الرحمة الالهية فى أحرج المواقف وادقها ، فحيث يوقع البشر منذ كانوا بشرا عقوبات على مثـــل التصرفات التى وقعت من صحابة رسول الله فى غزوة أحد فان سيدنا محمدا « نبى الرحمة » قد « لان » من الفعل : لان يلين .

والفعل هنا يعنى ، الرفق والرقة والرأفة التى عامل لها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والله سبحانه وتعالى لا يقر نبيه على تصرفه فحسب ، بل انه يقول له انه التصرف الوحـــيد الذى يناسبه ويناسب رسالته .

« ولو كنت فظا غليظ القلـــب لا نفضوا من حولك »

الفظ : الغليظ الجـــافى ، والفظـــاظة هى الشراسة .

الغليظ القاسى وغلظ القلب تجهم الوجه وقلة الاشفاق والرحمة يقول الشاعر البدوى متفاخرا بغلاظته .

يبـــكى علينـــا ولا نبكى على احـــد

لنحـــن اغلـــظ اكبـــادا من الابل

لا نفضوا : أى لتفرقوا ، واصل « الفض » الكسر .

وهكذا يقرر الله سبحانه وتعـــالى ان سمة الداعى الى الله الأولى أن يكون رحيما والا انفض الناس من حوله .

فاذا وجدت من يزعم انه داع الى الله ولم يكن كله رحمة ، ثم وجدت من يلتف حوله برغم ذلك فتيقن فى غير تردد انك بصدد جماعة من المجرمين الذين فقدوا عقولهم .

« فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » .

لم يقف القرآن الكريم عند حد اقرار سيدنا محمد على معاملته أصحابه ، رغم ما وقع منهم

باللين والرفق والتسامح ، بل طلب منه أن يعلو ويسمو على البشر فهو البشــير الأعلى الذى انزل عليه القرآن يقول له :

« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » .

ولقد فصلنا القول فيما مضى فى هذه الدرجة الرفيعة وأشرنا الى هذه القصــة الطريفة التى حصلت بها جارية على حــريتها بعد أن آذت سيدها ، لمجرد تلاوتها هذه الآية ، ولكن الله سبحانه وتعالى شاء لنبيه ان يعلو حتى فوق هذا فطلب منه :

١ ــ ان يعفو عمن عصا واذنب .

٢ ــ وان يستغفر لهم وقد رأينا أن الله سبحانه قد غفر لهم بالفعل .

٣ ــ وان يرد لهم اعتبارهم ، فيشاورهم فى الأمر .

وقبل ان نتحدث عن موضوع الشورى الذى هو اساس نظام الحكم فى الاسلام نرى أن نثبت بقية الآية الكريمة « فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » « وشاورهم فى الأمر » .

وهنا نصل الى ما يمكن أن نسميه « روح الادارة » فى الاسلام ، ابتداء من ادارة الأسرة وانتهــاء بادارة الدولة ، وهى « الشورى » فالشورى ليست كما يتصور البعض هى اساس الحكم فى الاسلام فقط ، وانما تمتــد الى ادارة الأسرة ، حيث أشار القرآن الكريم الى التشاور بين الزوجين حول فطام الطفــل « فان ارادا فصالا » .

وجاء فى سورة الشورى وهى سورة مكية أى نزلت قبل أن يكون للمسلمين دولة وحكومة فوصفت السورة المؤمنين بأن أمرهم شورى بينهم ويقولون أن الأصل اللغوى لكلمة الشورى من قول العرب « شرت الدابة وشورتها » أى علمت خبرهم من جرى أو وقوف .. الى آخره ويقال للموضوع الذى تركض فيه (المشوار) وهى الكلمة التى اصبحنا نستعملها فى حياتنا اليومية .

الشورى فى الاصطلاح هى اخذ الرأى لاتباع أحسن الآراء وأصلحها ، فما من امر صغر او كبر ، سهل أو صعب ، الا وكان هناك عدة طرق واســاليب لمواجهته وهو مالا يعرف الا باستطلاع الآراء عن طريق التشاور ، ولذلك جعله الاسلام قاعدة من قواعده .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« ما ندم من استشار » وقد نقل عنه أنه كان يشاور أصحابه فى كل مالم يوح اليه فشاورهم فى الحرب وشاورهم فى السلم بل شاورهم فى أخص خصائصه ففى « قصــة الأفك » حيث خاضت الألسن فى سمعة السيدة عائشة رضوان الله عليها فقد استشار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعض المقربين اليه فيما يكون عليه تصرفه ، حتى اذ نزل القرآن ببراءة السيدة عائشة ، انتهى كل شىء والمهم أن رســول الله لم يكن فى ذلك مجتهدا ، وانمــا كان يصــدع بالأمر الالهى « وشاورهم فى الأمر » .

وحسبنا أن نقدر الظروف التى نزل فيها هذا الأمر ليظهر لنا كم هى اساسية وحيوية « قاعدة الشورى » فقد نزل هذا الأمر الربانى عقب عصيان بعض الصحابة لأوامر النبى ، بل ان المتاعب التى حدثت فى موقعة أحد قد جاءت نتيجة مشاورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأصحــابه واتباعه لمشورتهم فقد كان من رأيه على ما قدمنا ان لا يبارح المدينة ، ولكن اغلبية المحاربين اشاروا بالخروج لملاقاة المشركين ، فكان هذا الذى كان .

ومع ذلك فقد أمره الله أن يعفو عنهم وأن يستغفر لهم ، ولما كان الله عز وجل عفا عنهم بالفعل ، فقد أصبحوا أهلا للاستشارة ومن هنا أمره الله سبحانه وتعالى أن يشاورهم فى الأمر « فاذا عزمت فتوكل على الله » .

ولما كان لب القيادة وجوهرها هو الحزم والعزم فان الله يلقن الدرس الى أبد الآبدين الى كل قائد وزعيم ومسئول أنه بعد أن يستشير ويتضح له الرأى الذى يأخذ به ، أن يحزم أمره ويمضى فيما اعتزمه مفوضا أمره الى الله .

« ان الله يحب المتوكلين » أى أن التوكل على الله يأتى بعد التشاور والتدارس ، حتى اذا استقر الرأى واتضح الطريق ، كان الاتكال على الله ، مع وعده سبحانه بأنه « يحب المتوكلين » من باب أولى .

وعندنا أنه اذا كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى والذى كان الوحى الالهى يقوده ويرشده ، اذا كان مع ذلك يؤمر امرا بأن يشاور ، فكان بالأحرى أن يكون واجب من هم دون سيدنا محمد والحق أنه لايوجد حاكم أيا كانت درجة طغيانه الا ويوهم نفسه أنه يستشير (ولو أهل الفرع المتخصصين) ولكنه فى الحقيقة يغرر بنفسه فهو يستشير بطانته وصنائعه ، الذين يشيرون بما يراه هو ويهواه فيصور لنفسه أنه استشار وهو فى الحقيقة لم يزد عن سماع نفسه وهواه .

ومن هنا كان أهل الشورى يجب أن يتصفوا أول ما يتصفوا بتقوى الله فلا يخشون أحدا سواه ولا يلتمسون كرمه ورضاه قال رسول الله « المستشار مؤتمن » .

« ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

« النصر هبة الله »

فى هذه الآية الكريمة يعمق الله سبحانه وتعالى مفهوم النصر فى نفوس المؤمنين كما فعل فى آيات اخرى عديدة من مثل .

« ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » أوقوله تعالى : « وما النصر الا من عند الله » وهو هنا يقرر سبحانه وتعالى ، أن من ينصره الله فلا غالب له ، أيا كان هو فردا وحيدا مجردا من كل حول وطول ثم كانت ضده كل قوى العالم مجتمعة كما كان الشأن بالنسبة لسيدنا محمد شخصيا وقد أشار القرآن الى ذلك بقوله :

« الا تنصروه فقد نصره الله »

فالنصر منحة ربانية يهبها لمن يشاء وقتما يشاء كيفما يشاء ، فكل شقشقة: ان لو حدث هذا الشىء أو ذاك لتحقق النصر ، هو مجرد زعم ، وقد رأينا فى غزوة أحد بالذات أن النصر تحقق للمسلمين بالفعل ، ثم أراد الله ان يلقن المسلمين درسا فكان هذا الذى كان .

فعلى المؤمن الصادق أن يعرف ان النصر والخذلان كلاهما من عند الله ، ومن ينصره الله فلا غالب له ، ومن يخذله الله ، أى يترك معونته (فالخذلان هو ترك العون) فلا توجد قوة على ظهر الأرض تنصر من خذله الله .

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون »

ختمت الآية السابقة بأن الله يحب المتوكلين وهو هنا يأمر المؤمنين بالتوكل على الله والتوكل على الله معناه الاعتماد على الله مع استشعار العجز فى أعماق النفس امام قدرة الله ، وهذا لا يعنى بحال ترك الأسباب ، فالقرآن الذى دعا للتوكل هو نفسه الذى دعا للأخذ بالأسباب ، فقال وقوله الحق « خذوا حذركم » « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة » « وقل اعملوا » « فامشوا فى مناكبها » فالقرآن الكريم يدعو للعمل الأخذ بالسبب ثم التوكل على الله وقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الفضيلتين فى قوله «اعقلها وتوكل ».

« وما كان لنبى أن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون » .

ماهو الغلول ؟ :

جاء فى معجم الفاظ القرآن :

« ومن استعمال المادة ، غل يغل كنصر ينصر

« ومن استعمل المادة ، غل يغل كنصر ينصر ، اى خان فى المغنم خاصة ، واغل اغلالا خان مطلقا لأن الخيانة فى الحالتين أخذ شىء على خفاء ، وهو من مدار معنى المادة ، وقد ورد منه فى خيانة المغنم الماضى والمضارع مدغما ومفكوكا فى « ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » .

وبعد أن بينا معنى كلمة « يغل » وأنها الخيانة فى الغنيمة باخفاء بعض منها ، وقبل أن نعرض للآية بتفسير عباراتها وما قيل حولها نريد أن نصور المبدأ العام الذى جاءت به هذه الآية وكيف كانت أحد أسرار انتشار الاسلام هذا الانتشار السريع الذى لم يسمع بمثله من قبل أو من بعد .

الرحمة بمجرد توقف القتال :

كانت القاعدة المطبقة فى الحروب قبل الاسلام هى أن الغالب يقتل المغلوب وكل من يتصل به ويستبيح ماله وعرضه ، فيقتل من يشاء ويبقى على من يشاء ويأخذ مايشاء وترى أثر ذلك كله فى كتاب اليهود مما أطلقوا عليه اسم « العهد القديم » .

كان فاتح اى بلد من البلاد يستبيح البلد لجنوده بعد أن تستسلم يفعلون بها وبأهلها ماشاءوا من قتل وحرق وذبح واستيلاء على كل ما يقدر عليه أى جندى ، وكان الفاتحون يتفاوتون فى تحديد المدة التى ينطلق فيها جندهم يفعلون ما يشاءون ، والرحيم من الغزاة والفاتحين ، من كان يحدد هذه المدة بثلاثة أيام ، ولكن لم يطف بخيال أحد أن هذا العرف الدولى المجمع عليه أن الاسلام سيوقف ذلك .

دين الرحمة فى الحرب مثل ما فى السلم :

وقد تحدثنا عن الاسلام دين الرحمة ولما كان الاسلام جاء لينظم كل شىء فى حياة الانسان ، ولما كانت الحرب احدى سنن الحياة فقد كان لابد لدين الرحمن أن ينظمها ، وقد نظمها ، وفى هذه الآية التى نحن بصددها أوقف القرآن بل حرم على الجنود النهب والسلب عن طريق

الزامهم بقاعدة حديدية تجعل النهب والسلب جريمة يحاسب عليها المؤمن يوم القيامة يستوى فى ذلك حالتا السلام والحرب .

الغنائم وكيف توزع فى الاسلام :

وقد كان موضوع الغنائم احدى المسائل الكبرى التى عنى بها الاسلام ونظمها تنظيما دقيقا ، حتى لقد تضمن القرآن الكريم سورة «الأنفال» واذا شاءت ارادة الله ان اعيش حتى اصل الى تفسيرها فسوف افصل الأمر بشأن تقسيم الغنائم كما ورد فى اول السورة ، أما اليوم فحسبنا ان نقف أمام مدلول الآية التى نحن بصددها ، لنرى الى أى حد قد غيرت النظام الذى سارت عليه البشرية حتى ذلك الوقت ، فأبطلت الحافز على النهب والسلب فى أثر انتهاء المعركة ، وحددت الغنائم بما خلفه الخصم المقاتل فى ميدان المعركة فكل ما يخلفه الجيش المهزوم فى ساحة المعركة ، فهو غنيمة لمجموع المسلمين ، يوزع بالطريقة التى سترد علينا ان شاء الله فى سورة « الانفال » والويل كل الويل لمن يحاول ان يأخذ لنفسه شيئا خاصا به ، لقد سمى هذا خيانة ، ووصل الأمر الى حد أن تساءل الفقهاء ، هل يعتبر من أخفى شيئا من الغنيمة لنفسه ، سارقا وتقطع يده ؟ وقرر الفقهاء أن لاقطع عليه ، لأنه مالك لجزء من هذا الذى اخذ (على سبيل الشيوع) فانظر - يرعاك الله - الى أى حد وصل التغليظ على من يمد يده الى الغنائم التى خلفها الخصم فى ساحة المعركة ، تدرك لماذا أذهل المسلمون العالم فى صدر الاسلام ، وكيف استطاعوا بهذه المبادىء الجديدة ، أن يدكوا صروح أعظم قوتين فى الدنيا ، فارس والروم فقد كانت الشعوب المقهورة قبل جيوشها تفتح ذراعيها لهذه القوة الجديدة ، التى جاءت بالحرية والعدل والمساواة ، والرحمة قبل ذلك كله وبعده .

مناسبة نزول الآية :

ولقد قيلت روايات متعددة لأسباب نزول الآية ، من أنه نسب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه اختص نفسه بهذا الشىء أو ذاك وهى أقوال لم نطمئن اليها ، ولذلك فنحن نقف عند حدود مدلول الآية وهو ما يتسق مع مجريات الأحداث فى غزوة أحد وما أعقبها من أقوال فقد قدمنا أن ما غير ميزان المعركة فحولها الى هزيمة بعد الانتصار هو عصيان فريق من الرماة لأمر سيدنا محمد الصريح فى أن لا يبرحوا اماكنهم لأى سبب من الأسباب ، ولكنهم وقد رأوا زملاءهم يجمعون الغنائم من ارض المعركة ، تصوروا أن المعركة قد انتهت فبادروا الى اخذ نصيبهم من الغنائم فكان هذا الذى كان ، ولابد أن يكون .

هذا النفر قد عوتب ، ولابد ان يكونوا قد دافعوا عن أنفسهم بما سبق ، ولابد أن المنافقين واليهود ، الذين حاولوا ان يستغلوا ما حدث للتشهير واشاعة الشك والبلبلة ، لابد ان يكونوا تقولوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موضوع الغنائم ، ولابد أن يكون فيما قالوه مانزلت الآية الكريمة لتكذبهم فيه وتبهتهم .

« وما كان لنبى أن يغل » :

جزم وتأكيد من الله سبحانه بأنه يستحيل على من كان نبيا لله « ان يغل » اى يخون على التفصيل الذى قدمناه فى الشرح اللغوى للكلمة ، فالنبى ، مطلق نبى ، متى كانت هذه صفته فقد استحال عليه « ان يغل » .

بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ
مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟
مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ
نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ

« ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة » :

وبعد أن نفى الله عن الأنبياء امكان ارتكاب هذا الأمر ، انتقلت الآية الى تحذير الكافة من «الغلول» فأنذرتهم انهم اذا استطاعوا الاستخفاء عن الناس فى الدنيا فلن يستطيعوا فعل ذلك يوم القيامة ، حيث يجيئون مطوقين بما حاولوا اخفاءه فى الدنيا ، وقد عظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هذه الجريمة وخوف الناس منها بما لا زيادة بعده لمستزيد ، فجاء فى صحيح مسلم نقلا عن أبى هريرة قال :

قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال: «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير، له رغاء يقول يا رسول الله « اغثنى » فأقول لا أملك لك شيئا فقد ابلغتك ، لا الفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له جمجمة يقول : يا رسول الله اغثنى ، فأقول لا أملك لك شيئا لقد ابلغتك لا الفين احدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة ... » الحديث بطوله فى القرطبى نقلا عن مسلم وهو يعدد ما يمكن أن يغل وتبرؤ رسول الله صلى الله عليه وسلم من « الغال » .

« ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » .

وبعد هذا التشهير العلنى ، يجيء دور الحساب ، حيث يعاقب الانسان على ما قدمت يداه ولنا أن نتصور مقدار عقوبة هذه الجريمة التى شاء الله أن يشهر بمرتكبها على رؤوس الأشهاد ولا يلومن مرتكبها الا نفسه فقد حذره الله والرسول من مغبة ما فعل ، فيكون العدل كل العدل هو ما سوف يحيق به من عذاب .

« أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير . هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون » .

يقارن القرآن الكريم شأنه دائما ، بين نقيضى الحياة ، والذى يتمثل فى الناس تمثله فى كل شأن من شئون الطبيعة ، فكما ان هنــاك الظلام والنور والحر والبرد ، فهناك الخـير والشر واتباع كل منهما ، فاتباع الخير هم المعنيون بقوله : « أفمن اتبع رضوان الله » وأهل الشر هم المعنيون بقوله : « كمن باء بسخط من الله ».

ورضوان الله أى رضاؤه وجزاء من حصل عليه الجنة ، وسخط الله أى غضبه وعاقبة من يحل به « ومأواه جهنم وبئس المصير » .

« هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون » .

فى هذه الآية الكريمة يقرر الله سنته التى لن تجـد لها تبديلا ، فمنذ كان البشر بشرا وهم يتفاوتون فى كل شىء ، فى الحظوظ والقدرات والملكات ، وسواء كانوا أخيارا أو أشرارا فهم درجات يعلو بعضها بعضا ، ومنه أخذ « الدرج » أى الســلم ، وقد اسـتعمل القرآن الـكريم « الدرك الأسفل من النار » فالدرجات فى دنيــا الصـعود والدركات فى دنيــا النزول والهبوط هو نظام طبيعى فهكذا ارادة الله .

محاولة الافساد والتمرد :

وقد جاء أقوام يفسدون فى الأرض ليحملوا الناس على التمرد ويخرجوهم من حالة الرضـــا والقنــاعة ، التى جعلت الجميع يتعايشون فى سلام « مع بعض الصعوبات طبعا » الى حالة من التمرد والثـورة الدائمــة التى تؤدى الى الصراع وسفك الدم ، وانطلقت دعواهم تنكر أن الناس درجات ، وانما هم درجة واحـدة وليس سوى التراث البشرى من الظلم والقهر هو الذى أحـدث هذا التفـاوت بين البشر ، وجاءوا بنظـام يقضى على مخلفات المــاضى ، ولمــا كانت الأديان من هذا الماضى دعوا الى اسقاط الأديان فهى « أفيون الشعوب » .

حتى العلم الذى هو ثمرة التجربة المحسوسة الملموسة والمشاهدة بالعين المجردة والمستعملة فى الحياة اليومية للانتفاع بها ، كذبوها وانكروها وحاولوا أن يصطنعوا علوما جديدة يدرسونها فى المدارس لانكار المحسوس والملموس فعلم الوراثة يقرر أن الصفات كلها تنتقل من الوالد الى المولود فابن الأسود أســود وابن الأبيض أبيض ولون الشــعر ونوعه ولـــون العينين ، والطول والقصر ، والنحافة والبدانة ، وحتى الأمراض تنتقل بالوراثة والعالم يســتخدم هذه الحقيقة لانتاج بذور أجود وأحسن فى النباتات ، وســلالات أفضــل فى الحيوانات وما كانـــوا يستطيعون أن يدحضــوا ذلك ومع كونهم هم الذين يقولون ان للانســـان والحيــوان طبيعة واحدة ، فقد قالوا (على سبيل التعسف) ان الانسان استثناء من هذه القاعدة ، وان الأطفال اذا تربوا جميعا تربية جيدة ومنحوا كل المزايا ، تقل الفوارق الى أن تنعدم بالتدريج .

وبعد ستين سنة من هذا النظام ماذا كانت النتيجة ؟ ان صورة المجتمع لم تتغير (قيد شعرة) فهناك الكناسون والعاملون والمزارعون ، وهناك الحكام والعلمــاء والكتاب والفنانون والمهم أن الناس فى المجتمع هم الناس يعيشون فى درجات تبعا لقدرة كل منهم وعلم كل منهم وحظ كل منهم ســواء فى دنيا الخير والعمل أو فى دنيــا الشر والجريمة ، وصدق الله العظيم اذ يقول :

« هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون » من خير أو شر فيكافئهم أو يجازيهم عليــه (أحيانا فى الدنيا) وعلى سبيل القطع واليقين فى الآخرة .

« لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من انفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

لقد من الله : اى لقد أنعم الله واحسن وشرف واعلى من شأن البشرية .

« على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » .

كانت نعمة الله على البشرية ان بعث لها رسولا (من أنفسهم) والمؤمنون هم كل من آمن بالله وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبكل ماجاء به « من أنفسهم » أى من العرب خاصة وكون سيدنا محمد عربيا ولد فى جزيرة العرب ، حقيقة مادية لا خلاف فيها ، وأى تكريم يراد اضفاؤه على العرب لانتساب سيدنا محمد اليهم لا مانع فيه ، أما أن يحاول محاول ان يتخذ من ذلك اساسا لأى حكم شرعى ، كبر أو صغر ، فهنا تعترضه كل نصوص القرآن وأقوال الرسول وافعاله ، قال تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ومن أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم : فى خطبة الوداع : لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى .

وقال الرسول فى خطبة الوداع : لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى .

ومن اعمال الرسول صلى الله عليه وسلم :

أما أعمال الرسول صلى الله عليه وسلم فكثيرة وفصيحة أى ناطقة بمدلولها ، فعندما اظفره الله فدخل مكة فاتحا منتصرا ، أمر بلالا (الحبشى) أن يرقى الى ظهر الكعبة ليؤذن ، ولن تدرك مغزى هذا العمل الا اذا علمت أن كتب السيرة سجلت لنا حوارا دار بين كبيرين من مشركى مكة ، حيث راح يهنىء كل منهما الآخر ان أباه لم يعش حتى يرى اليوم الذى يعلو فيه احد العبيد (ظهر الكعبة) وهكذا أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلم قريشا بحركة واحدة ، أن عهد الأنساب والاحساب قد انتهى ، وان قيمة اى انسان انما تقاس بتقواه .

« يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » .

يقول الشيخ محمد عبده على ما نقله عنه تفسير المنار وتابعه عليه : « الآيات هى الآيات الكونية الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ، وتلاوتها عبارة عن تلاوة ما فيه بيانها وتوجيه النفوس الى الاستفادة منها والاعتبار بها » .

وعندنا أن « الآية » قد يكون المقصود بها فى بعض المواقع هذا الوصف المتقدم أما هنا فنحن نعتبر أنه من التكلف ، مخالفة جمهور المفسرين ، وما يدل عليه ظاهر التعبير وهو عين ما كان يمارسه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفعل ، فكان اذا هبط عليه الوحى بآيات من القرآن ، تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على سامعيه ، وهذه الآيات كما تكون حديثا عن قدرة الله ، فقد تكون حكاية عن شىء مضى ، فيجب ابقاء العموم على عموميته وعدم تخصيصه الا بمخصص فآيات القرآن هى عبارات القرآن كما جاءت فى المصحف بهذا التقسيم الذى هو عليه .

« ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » .

ويزكيهم : أى ويطهرهم (من الأرجاس) وقال البعض : يزكيهم : أى يربى نفوسهم .

ويعلمهم الكتاب : هنا قال البعض : يعلمهم الكتاب ، أى يعلمهم القراءة والكتابة ، وحقا فعل الرسول صلى الله عليه وسلم الكثير لتعليم أصحابه القراءة والكتابة ، وتضمن القرآن الكريم آيات مضيئة تحث على تعلم القراءة والكتابة ، ومع ذلك فنحن نرى ان تعليم الكتاب ، اعم واشمل من تعليم القراءة والكتابة ، وقد كان ثمة علم حيث لم تكن القراءة والكتابة قد اخترعت ، وقد تلقى جمهرة الصحابة العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق التلقين ، وسار العلم الاسلامى فى بادىء الأمر شوطا كبيرا بعيدا عن القراءة والكتابة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم قد بعث ليعلم الناس كتاب الله بكل الوسائل ، وليست القراءة والكتابة الا احدى هذه الوسائل .

والحكمة : حاول البعض أن يحصر الحكمة فيصبح معناها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقا كل ما نطق به الرسول صلى الله عليه وسلم فهو الحكمة ذروة الحكمة ، ولكن كلمة الحكمة ، تدل على ملكة كانت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوجد بعده ، ولذلك فيجب تعريفها بما اصطلح عليه البشر منذ كانوا بشرا ، وهى معرفة حقائق الحياة وسننها وأسرارها وتجاربها .

« وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين » .

هذا حكم القرآن الكريم على المجتمع العربى قبل أن يظهر فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلزم الالتزام بما يقرره القرآن ، وهراء كل هذا الذى حاوله المستشرقون أعداء الاسلام من رسم صورة زاهية للحياة فى مكة قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم (كما لو كانت باريس أو لندن) وذلك ليغضوا من معجزة الاسلام وما فعله فى العرب ومما يؤسف له أن بعض الكتاب من المسلمين قد نقلوا هذه الأقوال عن المستشرقين كلون من ألوان التجديد والعلم الحديث .

« أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انى هذا قل هو من عند أنفسكم ان الله على كل شىء قدير » .

وهنا يسارع بعض المفسرين بتفسير المصيبة على أنها موت من قتل فى غزوة أحد ، وأن المسلمين اصابوا فى يوم بدر ضعفها ، فقد قتلوا من المشركين فى بدر سبعين وأسروا سبعين ، ويساوون بين القتل والأسر حتى يستقيم المعنى فقد بلغ عدد من قتل من المسلمين فى أحد سبعون .

ونحن لا نأخذ بهذا القول فما كان الله سبحانه وتعالى يصف موت من مات من المسلمين بأنه مصيبة وهو القائل .

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » .. الآية .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة بالذات « قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار » فنحن نستبعد أن تكون كلمة « المصيبة » تعنى من قتل ، وانما نأخذ بقول من قال انها تعنى ما أصاب المسلمين من هزيمة وغلبة .

ويكون المقصود بكلمة « مثليها » هو الانتصار في يوم بدر وفي يوم أحد (بالذات) فقد بينا كيف انتصر المسلمون في صدر المعركة وفر المشركون من هول الصدمة الأولى .

« قلتم انى هذا قل هو من عند أنفسكم » .

يؤكد هذا المعنى الذى نأخذ به ونغفل ما عداه، سياق الآية فهو يحكى على لسان المسلمين تعجبهم من أن يهزموا فالقرآن يذكرهم بأن هذه الهزيمة هم سببها ، فقد انتصروا في غزوة احد كما انتصروا في غزوة بدر ما بقوا سامعين مطيعين ، فلما ان عصوا وخالفوا كانت الهزيمة.

« قل هو من عند أنفسكم »: أى أنه لا محل لتسائلكم وتعجبكم ، فقد نصركم الله ما انتصرتم له مرتين فلما سولت لكم أنفسكم ما سولت كانت الهزيمة .

« ان الله على كل شيء قدير » .

فهو قادر على أن ينيلكم النصر وهو قادر على حرمانكم منه ليربيكم ويعلمكم .

« وما اصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين » .

وهذه الآية الكريمة اشارة صريحة لذلك فقد شاءت ارادة الله أن يحدث ما حدث ليكون ذلك درسا وعبرة للمؤمنين لينتفعوا به فيما هو آت من معارك ومواقف .

« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » .

« وليعلم الذين نافقوا » .

اعلم حفظك الله وهداك ، ان علم الله قديم، ولا يقع شيء في السموات والأرض مذكانتا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، الا بعلمه السابق القديم ، فعندما يقول لنا القرآن « وليعلم الذين نافقوا » .

فالمقصود هو أن يكشف لنا نحن البشر عما يريد أن يعلمنا به ، وهو هنا سبحانه أراد أن يكشف لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجماعة المؤمنين الصادقين عن جماعة تظاهروا بالايمان والاسلام ، وهم في حقيقتهم أقرب الى الكفر ، والقرآن يشير هنا ، الى عبدالله بن أبى ابن سلول ، وقد ذكرنا فيما مضى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة لملاقاة المشركين عند « أحد » في ألف مقاتل ولكن عبد الله بن أبى لم يلبث أن انسحب وتبعه ثلاثمائة رجل ممن كانوا لا يزالون يوالونه ، وقد حاول بعض الصحابة أن يقنعوه بعدم التخلى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فيما قالوه لاقناع الرجل (على ما حكاه القرآن) ان الحرب واجبة عليه ، ان لم يكن في سبيل الله « أو ادفعوا » فالدفاع عن المدينة لئلا تقع في يد قريش فيستبيحوها ، فرد عليهم « عبد الله بن أبى » بهذا الرد الكاذب المتهافت : « قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم » وهو قول يتحدث عن نفسه بنفسه فلأى شيء اذن جاء المشركون بجيشهم وسلاحهم وفرسانهم ، بل جاءوا حتى بنسائهم ليستميتوا في القتال دفاعا عن أعراضهم ، فالعذر الذى سيق لخذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو عذر قبيح ومن هنا فقد أنزل الله حكمه على هذا التصرف .

مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟
لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟
بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ
أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

« هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » .

وهكذا وصف الله سبحانه وتعالى هذا التصرف بأنه أقرب الى الكفر من حيث الظاهر ، أى انهم يقفون موقفا بين الكفر والايمان ، وحتى لو وصفوا بأنهم أقرب الى الكفر ، فلا يزالون فى دائرة الايمان ، وما يجعلهم كذلك هو أنهم « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » أى أن الله سبحانه وتعالى قد حكم عليهم بعلمه ، ان قلوبهم خاوية مما يقولونه بألسنتهم ، ولكنه احتفظ بهذا العلم لما فى القلوب لنفسه ، أى ليس لك يا محمد ولا لمن حولك أن تحكموا على ما فى القلوب فالله وحده « أعلم بما يكتمون » وقد التزم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بهذه القاعدة على الرغم مما عانى من أعمال المنافقين ، فكان بعض الصحابة يتحدث عن كفر أحد المنافقين وانه لا يضمر فى نفسه سوى الرغبة فى الاضرار والايذاء فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرد « هل شققت عن قلبه » فليس لكائن من كان أن يحكم على ما فى القلوب الا الله سبحانه .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فمن قالها فقد عصم دمه وماله الا بحقه » .

وحتى لا يتصور متصور أن ذلك مجرد قول قد تصح نسبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم أولا تصح ، فقد أيده طول حياته بأعماله وتصرفاته ، الى الحد الذى يذهل الانسان ولا يكاد يصدقه ، الا ان يتذكر الانسان أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم كان — حقا وصدقا — رسول رب العالمين .

هنـــد ووحشى :

فوحشى هو العبد الذى وعدته هند زوجة أبى سفيان بالحرية أن هو قتل حمزة ، فتربص به فى غزوة أحد وقذفه (عن بعد) بحربته فأرداه شهيدا ، وأبت هند الا أن تنزع قلب حمزة وتحاول أن تأكله (أسمعت فى كل عصور التاريخ عما هو أبشع من ذلك) ومع هذا فبمجرد أن نطق وحشى ونطقت هند بالشهادتين فقد نجوا وعاشا بعد أن أصبحا تحت أمر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولقد ذكرنا بالتفصيل فى تفسير ســـورة « المنافقون » كيف أن الأمر وصل فى أحد المواقف الى حد أن تقدم ابن عبد الله بن أبى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب اذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قرر موت أبيـــه أن يعهد اليه هو بتنفيذ هذه المهمة ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد عليه بأنه سيظل يحسن صحبة أبيه ، فلما مات عبد الله بن أبى، رجا ابنه — وكان صحابيا أمينا — النبى أن يصلى على أبيه ، فاستجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لطلبه ، وصلى صلاة الجنازة على شيخ المنافقين واذا كان الله سبحانه وتعالى قد لقن الدرس للمسلمين وانتهى الأمر فقد نهى الله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلى مرة أخرى على واحد ممن أعلمه جبريل عنه أنه منافق ، أى كافر بقلبه .

« ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله » .

اى انه وقد غرس الله فى قلوب المؤمنين ان لا يحكموا أبدا بتكفير مسلم متى نطق بالشهادتين فقد طلب الله من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن لا يصلى على المنافقين الذين كان جبريل يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم ، ولم يعد من حق أى انسان كائنا من كان أن يحكم بتكفير شخص ينطق بالشهادتين .

« الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت أن كنتم صادقين » .

ويمضى القرآن الكريم فى تســجيل أقــوال المنافقين والرد عليها وافحامهم وقد كان ممــا قالوه بعد أن « قعدوا » هم عن القتال بعد أن سمعوا على موت من مات « لو اطاعونا » اى لو أنهم سمعوا كلامنا بالانسحاب قبل القتــال لمــا ماتوا ، وهنا يفحمهم القرآن بقوله : « قل فادرءوا » أى فادفعوا « عن أنفسكم الموت أن كنتم صادقين » .

والمنافقون والكفار يعلمون مثل غيرهم من البشر ان لكل أجــل كتاب وانــــه اذا جــاء أجــلهم « لايستأخرون ساعة ولايستقدمون » وطالما قلنا ونبهنا الى الحقيقة التى يشهدها كل انسان فى كل زمان ومكان أن ساعة الموت حين تحين لا ينفع معها طب ولا علم ولا مستشفيات أو تقدم أو تأخر يستوى فى ذلك أعظم العظماء ، وأبسط البسطاء .

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

هذه هى الآيـــة التى جعلتنـــا نصرف معنى « المصيبة » عما قال به بعض المفسرين من انها تعنى موت سبعين واخترنا معنى لكلمة المصيبة « الهزيمة » .

فها هو سبحانه وتعالى يخطىء من يتصور أن « الشهيد » يموت ، الا من حيث الظـــاهر اما فى الحقيقة، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، والشهيد هو كل من مات فى حرب فى سبيل الله

وفى كتاب لنا أصدره المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، شرحنا فيه بالتفصيل ما هى الحرب فى سبيل الله ، وفى كتب الفقه أحكام الشهيد ومن هو الشهيد ، وقد ذكر القرطبى فى تفسيره الكثير من هذه الأحكام جريا على منهاجه .

أما نحن فنقف عند حدود النص الذى نحن بصدده فهاهو تعالى يقول لنا بمناسبة من استشهد فى معركة أحد (وأطلق القول) أنهم ليسوا أمواتا وانما هم « احياء عند ربهم يرزقون » .

فهم : احياء ، وهم عند ربهم يرزقون، يقول سيبويه : ان كلمة « عند » لا تعنى المكان وانما تعنى الكرامة .

وثمة أقوال كثيرة تستند الى أحاديث تحاول أن تصف كيفية الحياة وحدودها ونحن نعتبر ذلك كله خوضا فى الغيب ولذلك نقف عند حدود ألفاظ القرآن الكريم الذى بعد أن قطع بحياتهم المادية (يرزقون) أشار الى حياتهم المعنوية بقوله :

« فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فرحين : أى مسرورين سعداء ، بفضل الله الذى غمرهم به بما آتاهم الله من فضله ، ماهو هذا الفضل وما هى حدوده فضلا عن كيفيته ؟ علم ذلك عند الله .

« ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم » .

والمعنى واضح كل الوضوح ، وهو أن الشهداء وقد عاينوا أنهم أحياء عند ربهم يرزقون وبعد أن سعدوا بفضل الله ونعمته عليهم فقد تيقنوا أن دعوة الاسلام هى دعوة الحق وان النصر محتوم ومحقق ، وعلى ذلك فهم مطمئنون على مصير من « لم يلحقوا بهم » من اخوانهم الذين خلفوهم وراءهم فى الدنيا ، هذا هو المعنى الذى نراه واضحا كل الوضوح فى مفهومنا ومع ذلك فمن المفسرين من قال : لم يلحقوا بهم : أى فى الفضل والدرجة والمنزلة ومنهم من قال ان المقصود بها من سيأتى دوره فى الاستشهاد ، ونرى أن تبقى على عمومها ، فممن لم يلحقوا بشهداء أحد وبدر أشخاص من مثل سيدنا أبى بكر الصديق ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نفسه ، فلا محل لقول بأن من « لم يلحقوا بهم » فى الفضل والأرجح ، أن يقال : لم يلحقوا بهم أى ظلوا أحياء حول رسول الله صلى الله عليه وسلم يتابعون المسيرة لنصرة الحق .

« الا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

هذه هى البشرى التى استيقنها من استشهدوا بعد أن عاينوا ماعاينوا وحملها القرآن الكريم عنهم وأبلغها عن طريق الوحى أن لا خوف على المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله أبدا ولا ينبغى لهم أن يحزنوا أبدا لما يعترض سبيلهم من صعوبات ومعوقات أو لما قد يصيبهم من عذاب واضطهاد ، حتى ولو أدى ذلك الى موت البعض منهم ، فالنتيجة محققة ومضمونة وهى النصر ، النصر الشامل « والعاقبة للمتقين » وبالتالى فلا مجال للخوف فضلا عن الحزن .

« يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .

وهذه الآيةتأكيد وتحقيق لكل المعانى السابقة، فهؤلاء الشهداء بعد أن أصبحوا عند ربهم وعاينوا عين اليقين فرحوا بأمرين :

الأول : النعمة والفضل اللذين أسبغهما الله عليهم .

الثانى : اطمئنانهم لمصير اخوانهم الذين لا يزالون فى الدنيا وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون .

سيرة الرسول كما ينيرها القرآن الكريم :

● لقد حفظ لنا القرآن الكريم الحقائق البارزة فى سيرة الرسول بطريقة لم يحظ بمثلها أى انسان آخر فى العالم ، وأنا أعنى ما أقول بكل دقة علمية، من أنه لا يوجد انسان آخر فى هذا الكون قد سجلت الحقائق البارزة فى تاريخ حياته بما لا يدع مجالا للشك فيها ، كما هو الشأن بالنسبة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فما من انسان كبر أو عظم عبر التاريخ ، الا وكان مصدر المعرفة بسيرته ، هو ما كتب عنه ، وهذا الذى كتب أما أن يكون من قوله هو أو من قول معاصريه، أو من قول من جاءوا بعده وأحاطوا بالمصدرين السابقين .

وكل ما يقوله الانسان عن نفسه — كائنا ما كان هذا الانسان — هو شيء يحتمل الصدق والكذب ، ومن باب أولى ما يقوله الناس عنه .

● وهنا يأتى انفراد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بصدق كل ما قاله القرآن الكريم عن وقائع حياته ، لا لأن القرآن الكريم هو كلام الله، فتلك مسألة نؤمن بها نحن المسلمين ، ولكننا نسوق القول للمسلمين ، المؤمنين منهم وغير المؤمنين ، كما نسوقه لغير المسلمين فقد كان القرآن الكريم هو كل سلاح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ودعامته وكان قوله : ان هذا الكلام الذى يجرى على لسانه فى بعض المناسبات ويسميه قرآنا ، هو وحى من رب العالمين ، وقد كان هذا القرآن باعتباره الصدق كله هو السبيل الذى لا سبيل غيره لكى يؤمن من آمن بأن سيدنا محمدا هو رسول رب العالمين ، فأحسب — وهذا هو الموقف — استحالة أن يتضمن القرآن شيئا جرى على مرآى ومسمع من الناس، لم يكن هو عين ما حدث بالفعل لأنه فى هذه الحالة سيكون أصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم — قبل خصومه — هم أول من يتشكك فى هذا الوحى ، فعندما يقول القرآن الكريم لسيدنا محمد «ألم يجدك يتيما فآوى» فهذا قاطع الدلالة على أنه كان يتيما ، والا لما وجد انسانا واحدا يتابعه وعندما يقول له «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » فيستحيل أن يكون سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم غير هذا، وهكذا فعندما يشير القرآن الكريم الى غزوات الرسول فيستحيل أن يكون الأمر قد سار على خلاف ما يقوله القرآن وهذا هو الفارق الأساسى بين ما يقوله القرآن الكريم فى أى شأن من الشئون وما يقوله أى مصدر آخر .

غزوة حمراء الأسد أم غزوة بدر الصغرى : سقنا هذه المقدمة بين يدى تفسير الآيتين اللتين تحدثتا عن غزوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أعقاب غزوة أحد ، فأحد القولين ، وهو قول الجمهور الذى يقرب من الاجماع على أن الآيتين اللتين سنعرض لهما بالتفسير ، قد نزلتا فيما أسمته كتب السيرة « غزوة حمراء الأسد » وقد وقعت غداة غزوة أحد ، عندما انتدب سيدنا رسول الله المسلمين للخروج معه للتصدى لجيش أبى سفيان . الذى أرجف المرجفون أنه سينقض على

المدينة ، فوصل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بمن معه ، الى « حمراء الأسد » التى تقع على بعد ثمانية أميال خارج المدينة ، ولكن الرعب كان قد استولى على قلوب المشركين ففروا مذعورين الى مكة كما قدمنا ، وهكذا عاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فائزا منصورا وقد استرد هيبة المسلمين وجيش المسلمين .

ولكن أقواما آخرين قالوا ان الآيتين نزلتا بمناسبة « غزوة بدر الصغرى » أو «بدر الموعد» فقد قدمنا فيما سبق أن أبا سفيان قال عقب ماحدث فى غزوة أحد : يوم بيوم (يقصد أن ما حدث فى أحد يقابل ما وقع فى بدر) ثم تواعد مع المسلمين ، أن يتقابلا فى مثل هذا اليوم من العام القادم .

وعندما اقترب الموعد دس أبو سفيان على المسلمين من يخوفهم عاقبة الخروج لملاقاة جيش المشركين ، ولكن سيدنا محمدا وصحابته لم يأبهوا لهذا التخويف ووصلوا بالفعل الى بدر فى الموعد ، ولكن جيش المشركين هو الذى خاف فلم يصل .

وعندنا أن لا تعارض بين الواقعتين ومن المحقق على ماتشير الآيتين ، ان جيش المشركين كان قد فر الى مكة عقب غزوة أحد مباشرة ، كما أن جيش المشركين لم يوف بالموعد المضروب فى بدر ، وأصبحت الآيتان يمكن أن تشيرا الى الواقعتين كحقيقة مؤكدة فلا تعارض بينهما وبعد هذا التمهيد نقول وبالله التوفيق .

« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم» . القرح : بالفتح هو أثر الجرح من الخارج وهو هنا يعنى ما أصاب المسلمين يوم احد ، من استشهاد من استشهد ، وجرح من أصيب بجراح ومظهر الجيش العام الذى بدا كأنه قد انكسر . فعبر القرآن عن ذلك كله بكلمة « قرح » أى أثر لجرح ، وهو قاطع الدلالة فى أن الآية تتحدث عن استجابة المسلمين لسيدنا محمد صلى الله عليهم وسلم عندما دعا المسلمين غداة يوم احد مباشرة للخروج لمطاردة قريش .

فتنص الآية الكريمة على أن الله سبحانه وتعالى يعد الذين استجابوا لدعوة الرسول ، أى صدعوا بالأمر ، رغم ما فيه من صعوبة ومشقة نتيجة ما حدث فى اليوم السابق ، يعد الله هذا النفر بالأجر العظيم .

« للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » والله كما اخبر عن نفسه يضاعف الأجر لمن يشاء ويضاعفه بغير حساب ولذلك فمن التكلف التفرقة فى حرف « من » فى هذه الآية الكريمة وهل هو للتبعيض ، أو التبيين ، فالنتيجة واحدة فى الحالتين وهى أن الفضل له درجات فى كل الأحوال ، وأن الله يتفضل على من يشاء بما يشاء من الأجر .

وقد جاء فى الصحيحين : البخارى ومسلم حديث لعروة بن الزبير عن السيدة عائشة رضى الله عنها ما يقطع بأن المقصود بهذه الآية : هو ما حدث فى اليوم التالى مباشرة لما حدث فى أحد ويبدأ الحديث بقول السيدة عائشة لعروة « يا ابن أختى ، كان ابواك — تعنى أبابكر والزبير — من الذين استجابوا لله والرسول .. الخ ثم يمضى الحديث بمعنى ما كررناه فيما سبق .

ولست أحسب أن أحدا كائنا من كان يمكن أن يمارى فى ذلك ، وانما ظهر خلاف بالنسبة للآية التالية ، فهى اما أن تكون استمرارا لهذه الآية نزلت موصولة بها ، واما أن تكون تأخرت فى

النزول لتشير الى الواقعة الثانية التى وقعت بعدعام ، ثم وضعت عقب الآيةالأولى طبقا لتوجيهات جبريل عليه السلام ، ولنثبت أولا نص الآية :« الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

اتصور ان هذهالآية هىالتى سمحت للبعض أنيقولوا انها نزلت بعد عام ، أى بمناسبة « بدر الصغرى » حيث كان أبو سفيان قد واعدالمسلمين على التلاقى ثانية ، ولعل مبعث هذا التصور جملة « ان الناس قد جمعوا لكمفاخشوهم » فهى تعنى التهديد بتجميع جديد للمشركين (مجهول أمره) حيث كانت قوتهم فى« أحد » معلومة ومعلوم انها هزمت عند الجولة الأولى على ما قدمنا « اذ تحسونهم باذنه » واذاكانت الأمور تطورت الى ما تطورت اليه بعد ذلك ، فقد كان نتيجة لعصيان أوامر رسول الله،ومن هنا جاز أن يقال ان لا محل هنا لتخويف المسلمين ، وانما كان ذلك بعد انقضاء عام كاملوجاء التخويف بجموع جديدة وكبيرة للمشركين ، نقول ان ذلك احتمال قائم ، ولكنه لا يمنع كذلكمن أن يكون القول متصلا بالآية الأولى وأن المرجفين فى المدينة اذاعوا أو أشاعوا أن جيشالمشركين قد أعاد تنظيم صفوفه وأرسل يستجلب مددا جديدا . ليهاجم المسلمين فى المدينة ذاتها ،فكان رد الرسول صلوات الله عليه ، أن استنفر من كانوا معه بالأمس ، ليكونوا هم المهاجمين وليس هناك ما يمنع هذا التصور الذى عليه الجمهور .

الناس .. من هم ؟

وقد راح المفسرون وكتاب السيرة يتساءلونمن هم الناس الذين حاولوا ارهاب المسلمين بتجميع المشركين وكالعادة يتلقفون اقوالا من هناوهناك فمن قائل انهم منافقو المدينة ، ومن قائل بل « هو نعيم بن مسعود » وقال ابن اسحق هو« ركب عبد القيس » دسهم أبو سفيان ليقولوا للمسلمين هذا القول ولنا نص القرآن الكريم منان ناسا « كائنا من كانوا » حاولوا ارهاب المسلمين بتجميع المشركين ، فلم يكن لهذه المحاولة الا أنجعلت المؤمنين يزدادون ايمانا أى اصرارا على الخروج لمواجهة المشركين وهم مؤمنون بنصر الله ، ذلك هو معنى « فزادهم ايمانا » .

هل الايمان يزيد وينقص ؟ : هنا وترى الأثر السىء الذى تركه منطق ارسطو على بعض عقول علماء المسلمين فترى كثيرا من كتب التفسير القديمةتتوقف امام هذه الجملة « فزادهم ايمانا » ويتساءلون (هل الايمان يزيد وينقص) .

ثم يروحون يرددون سفسطة ارسطو من انالايمان « جوهر » لا يزيد ولا ينقص وانما يوجد أو لا يوجد ، ثم يضيفون الزيادة الى أدلة الايمانأو أفعال الايمان وكل ذلك لكى يوفقوا بين منطق ارسطو والقرآن ، حيث لا نتردد نحن لحظة فىتسمية منطق ارسطو أنه لا يعدو أن يكون سفسطة منظمة ، فالقرآن لا يفتأ يحدثنا عنزيادة الايمان فى مثل قوله :

« فمنهم من يقول أيكم زادته هذه ايمانا » (سورة التوبة) .

« واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا » .(سورة الانفال) .

« هو الذى انزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايمانا مع ايمانهم » . (سورة الفتح) .

فالقرآن الكريم يحدثنا من أوله الى آخره عنزيادة الايمان ، فلم يعد من الجائز ان نردد

سفسطات قال بها ارسطو من أن الجوهر لا يزيدولا ينقص ، ثم نعتبر الايمان جوهرا يسرى عليه هذا الحكم ونقطع بأنه لا يزيد ، ثم نحاول صرف كلمات القرآن عن معناها لتتلاءم مع تفسيرات وشروح ارسطو « المعلم الأول ؟ ! » .

وينسى هؤلاء المتكلمون تلامذة المعلم الأول أن القرآن الكريم لم يقف عند حد ذكر كلمة الزيادة بل فصلها تفصيلا فى قصة سيدنا ابراهيم عندما سأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ، فلما سأله ربه « أو لم تؤمن » فكان الجواب « بلى ولكن ليطمئن قلبى » اى أن سيدنا ابراهيم عليه السلام رأى فى أن يرى بعينيه لما يؤمن به طمأنينة لقلبه ونعود فنقول ان القرآن الكريم عندما يكرر قضية، يلزم الوقوف عندها .

« وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وهذه آية تكشف كيف أصبحت آيات القرآن الكريم تجرى فى حياة المسلمين اليومية مجرى الدم فما من مسلم صادق بالأمس واليوم وغدا ، الا وتسمعه يردد فى بعض المواقف العصيبة « حسبى الله ونعم الوكيل » وقد يكررها البعض على سبيل العادة دون أن يدرك ما تعنيه الفاظها على وجه الدقة :

حسب : مأخوذ من الاحساب اى الكفاية .

حسبنا الله : اى يكفينا الله .

ونعم الوكيل : اى واعظم به من سند ومعين لنتوكل عليه ، اى لنعتمد عليه .

وفى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه « قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام عندما القى فى النار ، وقالها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس : « ان الناس قد جمعوا لكم » .

فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ
الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ
إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا
الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ
إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ
الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ

« فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ».

فانقلبوا : اى فعادوا ورجعوا بعد أن ذهبوا لملاقاة عدوهم . بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء أى أن محاولات تخويف المسلمين من المشركين لم تنجح وانما زادت المؤمنين ايمانا واصرارا على مواجهة عدو الله وعدوهم ، وسرعان ما اتضحت الحقيقة ، وهى أن تفوق المسلمين العسكرى على المشركين ، كان قد أصبح مسألة مقررة وانتهى الأمر ، ولذلك لم يعثر المسلمون على جيش المشركين فى كلتا الحالتين ، وهذا ان دل على شىء فعلى أن المشركين أسرعوا يعدون الى مكة ، وعلى الوجه الآخر فقد عجزوا عن الظهور فى الموعد المضروب بعد عام ، وهكذا عاد المؤمنون « بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » ومعنى ذلك انهم حصلوا على انتصار ساحق (بطريقة سلبية) على خصمهم حيث كان هو الذى انسحب فى احدى الحالتين ، وكان هو الذى احجم عن القتال فى الحالة الثانية .

« بنعمة من الله وفضل » :

ونعمة الله هى الخير يسبغه الله على من يشاء وكذلك فضل الله فهو واسع الرحمة والثواب والبر ، ولكن بعض المفسرين يصرون على ان كل كلمة تنصب على واقعة معينة محددة بالذات ، وهى أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم عندما وصل بالجيش الى بدر لملاقاة المشركين كان ذلك فى موسم بدر فاشترى رسول الله صفقة من الابل ثم باعها فربح فيها مالا كثيرا فوزعه على افراد الجيش فهذا هو « الفضل » الذى اشارت له الآية الكريمة ونحن بطبيعة الحال لا يسعنا الا أن ننقل ما قال به الاقدمون مما لا يخالف « عقلا أو نقلا » ولكننا نقول « الله اعلم » .

« واتبعوا رضوان الله » :

اى حصلوا على رضوان الله ، ورضوان اللهرضاؤه ورضاء الله هو « الجنة » وهكذا فاز هؤلاء الذين استجابوا لرسول الله .

« لم يمسسهم سوء » فلم تكن هناك حرب . فازوا بنعمة الله وفضله ورضائه « أى بجنته »

« والله ذو فضل عظيم »

وذلك هو ايمان المؤمن بربه فهو واسع بلا نهايةولا حد لفضله يمنحه لمن يشاء بالقدر الذى يشـاء « انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين » . وهنا يحاول بعض المفسرين أن يقولوا ان كلمة « الشيطان » فى هذاالموضوع تعنى شياطين الانس هؤلاء الذين حاولوا ان يخيفوا المسلمين كنعيم بن مسعود ونحن نرىان ذلك كله خبط وتخبط ، خذ على سبيل المثال ان نعيم بن مسعود قد اسلم فيما بعد وتعزو لهكتب السـيرة النبوية أنه قام بدور عظيم لانقاذ المسلمين فى غزوة الأحزاب فما كان الله سبحانهوتعالى يحكم عليه هنا بأنه شيطان ، ثم يجعله يسلم بل ويكون على يديه نجاة المسلمين ومن هناسمحنا لأنفسنا ان نصف بالتخبط من حاول ان يجعل كلمة « الشيطان » هنا تشير الى بعضالانس ، ونحن يستحيل علينا ان ننكر ان من البشر شياطينفذلك نصالقرآن «شياطينالانسوالجن» ولكن عندما تذكر كلمة « الشيطان » مفردة معرفة فليس سوى شيطان واحد ، وهو ابليس اللعين ،فكيف اذا جاءت الآية تخصص وتحدد بل وتحصر . « انما ذلكم الشيطان » .

« يخوف أولياءه » : وأولياء الشيطان هم كل من تنكب طريقالخير والاستقامة ، كل من آثر العمى على الهدى ، كل من ابتعد عنالنوروسارفى الظلام ، هم الكفرة والمنافقون فى عهد نزول القرآن والى أبد الآبدين .

« فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين » :والخطاب هنا لأتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسـلم الى أبد الآبدين الا يخـافوا من الكفرة والمنافقين واعداء الله أيا كان اسمهم أو قوتهم أو عددهم ، وليكن الخوف من الله بحيث يمحوالخوف من أعـداء الله حتى لا يبقى فى نفس الانسان الا الخوف من الله وما قد يفعله بالانسان اذا هو حاد عن الحق .

ولعل مشكلة البشرية اليوم نتيجة فقدان الناسللخوف من الله ، حتى ليكاد الناس يفترس بعضهم بعضا ، لولا الخوف من الوقوع تحت طائلة العقابالذى تنزله الدولة ، فاذا ضعف سلطان الدولة أو استطاع الانسان ان يحتاط لنفسه حتى لا يقعتحت طائلة القانون ، فلا عليه ان يسرق وان ينهب وأن يكذب وأن ينصب وأن يزور ويرتشى وأن يقتل فى خاتمة المطاف ، وذلك كله نتيجة عدم الخوف من الله .

« وخافون ان كنتم مؤمنين » :

شرط وجواب فليعرف كل من يريد ان يصفنفسه بأنه مؤمن،ان ذلك مشروط بأن يخاف الله فمن لم يخف الله فى سره مثل ما فى علانيته ، فهوليس بمؤمن وقد بلورت مصر وهى مهد الايمان من قديم الزمان هـذه الحكمة الخالدة فطالعتهابنفسى فى شـبابى فوق باب بطريركية الاقباط « راس الحكمة مخافة الله » فأدركت أن هذه حكمةالدهور كلها تلتقى عندها سائر الاديان .

وها هو القرآن الكريم يجليها ويعلنها مدوية الى ابد الدهر ان لا خـوف الا من الله وحـده « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر انهم لن يضروا الله شيئا يريد الله الا يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم » .

مجتمع المدينة :

عندما هاجر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الى يثرب (المدينة المنورة) كانت اكثريتها الساحقة قد اعتنقت دين الاسـلام ، ولكن كان اليهـود لا يزالون فى المدينة فسكتوا على مضض وان دخلوا فى جدل مع المسلمين مما يظهر اثره بوضوح فى سورة البقرة حيث كان الله سبحانه وتعالى يتتبع بعض اقاويلهم فيدحضها ويكبتهم ، كما كان فى المدينة جماعة المنافقين وعلى راسهم عبد الله ابن ابى بن سلول الذى كان أحد كبار الزعماء ، فلما ان جاء الاسلام الى المدينة أضمر له العداء ولكنه كان اهون من ان يعلن عداءه فكان زعيما للمنافقين الذين أعلنوا الاسلام بأفواههم ولكن قلوبهم ظلت تنكره وقد كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين فلما وقع انتصار بـدر الحاسم كبت اليهود والمنافقون فلما ان حدث ما حدث فى احد ، كانت هذه فرصة اليهود والمنافقين لينفثوا اسمومهم قائلين : لو كان محمد رسول الله أكان يهزم ؟ وراحوا يضـخمون ما حدث ، ويهولون فيما سوف يقع ، ولا جدال ان ذلك كله قد ترك اثره فى نفس سيدنا محمد باعتباره بشرا ، فنزل عليه الوحى يسرى عنه ويثبت ايمانه واقـدامه ، وان الله معه وانعـم بالله مؤيدا ونصيرا . .

« ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » :

من المحقق ان سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم مذ بعثه الله لهداية البشر وهو شديد اللهفة على هداية الناس لينجيهم من العذاب الأليم ولذلك فقد كثرت الاشارة فى القرآن الكريم الى ما كان يطرأ على سيدنا محمد من حزن لتأخر قومه عن الايمان ، من مثل قوله تعالى :

ـ « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » . أو قوله تعالى : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسـفا » . ولابد ان يكون سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد حزن اشـد الحزن للحالة التى سادت مجتمع المدينة فى اعقاب غزوة أحد فكان هذا التوجيه والارشاد من الله سبحانه وتعالى .

« يسارعون فى الكفر » .

يقول بعض المفسرين انها نزلت فى قوم ارتدوا بعد اسلامهم ، ونحن نستبعد ذلك وخاصة فى مجتمع المدينة . فقد راينا كيف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قـد كشف عن سـيطرته العسكرية ، عندما ندب الناس فى اليوم الثـانى مباشرة للخروج لملاقاة المشركين وهكذا ظل سيدنا محمد هو سيد الموقف فنحن نستبعد أن يجاهر احد بالارتداد عن دين الاسلام فلم يعتنق احد هذا الدين عن اكراه وكل الذين كانوا قد دخلوا فى الاسلام قد دخلوه والمسلمون مضطهدون معذبون مشردون وما حدث فى غزوة احد لا يمكن الا ان يزيد المؤمنين ايمانا .

ولكن الذى نتصـوره هو ما قدمناه من ان ما حدث فى غزوة أحـد كان هو فرصة اليهـود والمنافقين ، لكى يقولوا ويتقولوا وكان ما يقولونه هو كفر صريح ، ويكفيهم أن يشككوا الانسـان فى رسالة سيدنا محمد كى يكون كافرا بأقوالهم فى مجالسهم الخاصة ، ولكن ذلك ما كان ليغيب عن علم رسول الله وهو الأمر الذى احزنه .

« انهم لن يضروا الله شيئا » .

فليس فى الأمر ما يدعوك الى الحزن يا محمدفليس فى الأمر شىء جديد من ناحية ، فالكفار بكل أشكالهم ، وألوانهم ، سواء كان المقصود بهم كفار قريش أو يهود المدينة ومنافقيها ، أو بعض من جاهر بالكفر بعد الايمان فليس فى ذلك كلهما هو جديد على الدعوة الى التوحيد وبقى ان تستيقن يا محمد ، ان كل هؤلاء لن يضروا اللهشيئا ونتصور ان المعنى المقصود هنـــا انهم لن يضروا الدعوة الى الله فستبقى عالية منصورة« يريد الله الا يجعل لهم حظا فى الآخرة » .
هذا هو ما يجب ان يدركه كل مؤمن عندما يرىمن يتردى فى الكفر فهكذا شاءت ارادة الله ان لا يجعل لفريق من البشر حظا (أى نصيبا فىالآخـــرة) أى الجنـــة وذلك يتبين من قـــوله تعالى : « ولهم عذاب عظيم » . أى نار جهنمذلك ان الآخرة ، اما جنة واما نار فمتى حكم على هؤلاء بالنـــار فقد تحددت كلمة الآخرة هنا بأنها تعنىالجنـــة .

« ان الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم » .

وبعد ان كان الخطاب يدور حول هذا النفرالمحدد على زمان رسول الله أطلق الله سبحانه وتعالى المبدأ ليؤكد لسامعيه أول مرة ، من ناحيةوليجعله عاما لكل البشر فى كل زمان ومكان ، وأن يدفع الايمان ثمنا لشراء الكفر ، أى يختار الكفر والالحاد لأى سبب من الأسباب فهو لا يضر الا نفسه اذ ينتظره عذاب أليم . أما الله سبحانه وتعـــالى فغنى عن العـــالمين لا ينفعه أو يضره ما يفعلون .

« ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خيرلأنفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين .

نملى : من الاملاء ، والاملاء هو الامهال ومن الأقوال الشائعة المأثورة « ان الله يمهل ولا يهمل » فهذا هو معنى « الاملاء » أى ان الله سبحانهوتعالى يمد للكافر والظالم فيطيل فى عمره أحيانا ، ويوسع عليه الرزق ويغمره بالنجاح ، أحياناأخرى .

فلا يتصور الكافرون والظالمون ان ذلك : «خيرلأنفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما » .

أى لا تحسبوا أن الاستمرار على الكفر خير ولوكان يؤيده الواقـــع كازدهار الحـــال ، بل ان ذلك ابتلاء من الله عز وجل وامتحان ليثوب الىرشده ويعدل عن كفره وطغيانه ، أم يزداد تمسكا بكفره وعناده ، وبالتالى يحق عليه قوله تعالى :« ولهم عذاب مهين » .

ســـنة الله فى خلقـــه :

ونرجو أن نكون كرجال الصف الأول الذىسمعوا القرآن أول مرة ففهموا ما ينطوى عليه من عظة وحكمة ليستفيدوا فى تعميق يقينهم والآيةكما تدل عليها معانى ألفاظها تدل على أنهليسمن سنة الله فى خلقه ان يعاقبهم أو يقتص منهم علىالفور ، ذلك أن هذا لو حدث لسقط حق الاختيار والحرية التى منحها الله للانسان « فمن شـــاءفليؤمن ومن شاء فليكفر » على ان يكون الحساب والعقاب أو الثواب يومالقيامة ، أما لو كانالثواب والعقاب فوريا فى هذه الدنيا لمـــا انحرف أحد أو فسق فضلا عن كفر ولمـــا أصبحت الدنيا دار ابتلاء واختبار وعلى ذلك فلا يتخذن الكافر من سكوت عليه فى هذه الدنيا ما يحمله على التمادىفى غيه .

ذلك ما نفهمه فى بساطة فالمعنى واضح وصريح ولكن العالم الاسلامى نكب فى وقت من الأوقات بالمتفلسفين فراحوا يتساءلون ، ولمـــاذا يمد الله للكفار فى عمرهم ورزقهم ليزدادوا اثما وقال آخرون ان هذا يدل على ان الله كتب على الأشقياء شقوتهم الى آخر ماقالوا وملأوا به كتبا وانقســموا عليه فـــرقا .

« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » .

يذر : يترك أو يدع .

يميز : يفـــرق .

وهذا هو موضـــع العظة والتحذير والانذار المذكورين فى الآية الســـابقة ، والقول كله يدور تعقيبا حول ما حصل يوم أحد فمن ناحية خاطب الله الكفار أن لا يغتروا بما حدث يوم أحد فيتمادوا فى كفرهم تصورا منهم ان لو كان الله موجودا لمـــا تركهم ، فالقرآن الكريم يذكرهم أن حكمته اقتضت أن يمد لهم ، وهذه الآية توجه الحديث هذه المرة للمؤمنين فتقول لهم ان الله سبحانه وتعالى : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » وقد وصفنا مجتمع المدينة فيما ســبق وكيف نافق الكثيرون وأخفوا العداوة للاسلام ، وجاء انتصار المسلمين فى غزوة بـــدر ، فازداد المنافقون خفاء ، فجاء هذا الذى حدث فى أحد . ليتكشف كل انسان على حقيقته ومن هو المؤمن الصادق قوى الايمان ، ومن هو الضعيف المزعزع ومن هو المنافق ومن ومن .. الخ وباختصار كان الذى كان لـــ « يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعـــكم على الغيب » أى أن كل ما حدث كائن فى علم الله منذ الأزل فهو يعلم المؤمن ويعلم الكافر والمنافق ولكنه ما كان يطلعكم على قديم علمه فجعل الأحداث هى التى تعلمكم وهى التى ترشدكم لحقيقة ما ومن حولكم .

« ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء »

يجتبى : يختار ويصطفى .

بعد ان أثبت الله سبحانه وتعالى علم الغيب لنفسه وأنه لا يطلع على غيبه أحدا استثنى من ذلك ما يوحى به الى رسله عن عالم الغيب من مثل يوم القيامة والجنة والنار ، فهذه من عالم الغيب الذى يختار الله رسلا من البشر ، ليبلغوها للناس ، قال تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبة أحدا الا من ارتضى من رسول » الآية « فآمنوا بالله ورسله » .

أى يا أيها المؤمنون المخاطبون بهذا القـــرآن ليس معنى ان الله لا يطلعكم على الغيب ، ان سيدنا محمدا ليس رسولا ، فهو واحد من الرسل الذين يختارهم الله ويصطفيهم ليبلغوا النـــاس بعض هذا الغيب ، والذى يبدأ أول ما يبدأ بالله نفسه باعتباره خالق هذا الكون وان ارادته قد شاءت .

فتمسكوا أيها المؤمنون بايمانكم بالله ، وتقوى الله هى الخشـــية من الله بالائتمـــار بأوامره والانتهاء عن نواهيه .

« وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » .

والأجر العظيم هو الجنة ، والجنـــة درجات لا حد لهـــا يمنحها الله للمؤمنين المتقين .

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيـــامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير »

من رأى الشيخ الجليل محمد عبده ، على ما نقله عنه تلميذه العلامة الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار المتداول ، ان لا علاقة بهذه الآية بغزوة أحد ، التى تم التحدث عنها عند الآية السابقة ، وأن الحديث فى هذه الآية قد انتقل الى الحديث عن اليهود وأشـــار الى ان البعض يرون ان « البخل » هو كتمان العلم ، ونحن نخالف هذا القول جملة ، وتفصيلا ، ونرى ان الآية الكريمة لا تزال متعلقة بما قبلها فى التحدث عن احد ومعقبات أحـــد ، وان البخل هنا هو البخل بمعناه الحقيقى أى الشح بالمـــال وهو موجه لمجتمع المدينة بكل من فيها من مؤمنين ومنافقين ويهود وكل من دعاهم رسول الله للانفاق فى سبيل الله لمواجهة الآثار التى خلفتها معركة احـــد ، فلابد ان يكون المسلمون قد فقدوا قدرا من الأسلحة لزم ان تعوض ولابد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا الى الانفاق فى سبيل الله ، ولابد أن يكون المنافقون وغيرهم من كبار الأغنياء قد غلبهم البخل وشح أنفسهم فامتنعوا عن الاستجابة وفى تصورهم ان الحرص على المـــال انفع لهم من انفاقه فى سبيل الله ، ومن هنا نزلت الآية الكريمة ، وسوف نورد حديثا فى صحيح البخارى واخرجه ابن كثير فى تفسيره بروايات متعددة وكلها تقطع أن المقصود بالبخل هو المـــال وليس كتمان العلم « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم » .

وهذا قول بلسان عربى مبين يندد بمن آتاه الله فضلا (أى مالا) ثم يبخل به فلا ينفق بعضه فى سبيل الله ولا يتصور البخيل أن الشح بالمال خير بل هو شر فى الدنيا والآخرة ولكن لمـــا كانت سنة الله فى الدنيا هى ما ذكر فى الآية السابقة « الاملاء » أى التمهل كان المحقق والمؤكد يوم القيامة أن البخل شر يحيق بالانسان .

هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ
الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾
الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن
قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن
قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ

« سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة »

ونحن نفهم من كلمة « سيطوقون » أنها من الطوق جاء فى معجم الفاظ القرآن : الطوق حلى يجعل فى العنق وكل شىء استدار فهو طوق وطوقه كذا جعله له طوقا كقلده البسه ويكون المعنى الذى نفهمه من الآية . هو أن اموال البخيل ستصبح طوقا وغلا للبخيل يوم القيامة وقد جاء فى صحيح البخارى والنسائى وما أخرجه ابن كثير فى تفسيره بصيغ وروايات مختلفة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له شجاع اقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمتيه يقول انا مالك انا كنزك ثم تلا هذه الآية » .

ونحن نكتفى بهذا القدر فلا نلقى بالا للكلام الكثير الذى قيل لتبرير تفسير البخل بأنه كتمان العلم .

« ولله ميراث السموات والأرض » .

اى أن اى انسان مهما طال به العمر وكثر ماله ، فسوف يموت حتما وستموت ذريته من بعده وسيفنى كل شىء على الأرض ولا يبقى سوى الله وحده ، واليه يؤول كل شىء واذا كان الناس قد اعتادوا ان يسموا ما يخلفه الانسان ميراثا فان الله سبحانه وتعالى سيرث الأرض والسموات بكل ما فيهما ومن عليهما .

« والله بما تعملون خبير » .

اى عالم بنواياكم وما تسرون وتعلنون ، فكيف بأعمالكم المالية كحبس المال والتوقف عن انفاقه فى سبيل الله .

البخل والحديث عنه :

والآية تثير موضوع البخل ، ونرجو أن يقدرنا الله بمناسبة آيات قادمة أن نتحدث عنه طويلا، وحسبنا اليوم ان نسجل ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بطرق مختلفة ولا يجتمع شح وايمان فى قلب رجل مسلم أبدا .

● لولا الاسلام ما بقيت اليهودية كدين سماوى :

فى آيتين قادمتين ما يكشف عن حقيقة مؤكدة توصلنا اليها نتيجة دراستنا للأديان المختلفة ، وهى أنه لم يبق على اليهودية كدين سماوى ،سوى شهادة القرآن لها بذلك ، فهو وحده الذى طالب المسلمين (وقد كانوا فى القرن الأول للاسلام هم أعظم قوة فى العالم) طالب المسلمين أن يؤمنوا بابراهيم وموسى وعيسى ، ايمانهم بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وأبقى القرآن على العقيدة اليهودية بعد أن طهرها من الأرجاس ، والوثنية والانحرافات التى تسربت اليها ، وقرر القرآن الكريم كما بسطنا القول أكثر من مرة ، ان جوهر الأديان السماوية كلها واحد وهو ما جاء به الاسلام « ان الدين عند الله الاسلام » وشهد لليهودية ، بأنها انبثقت من نفس مشكاة الاسلام ، وتعلق اليهود بهذا الشق من شهادة الاسلام ، واسقطوا الشق الثانى من انها على عهد الاسلام ، كان معتنقوها قد غيروا فيها وبدلوا حتى جعلوا منها دينا وثنيا كبقية ما فى الدنيا من اديان ومعتقدات وثنية ، ولنقصر اليوم حديثنا عن الصفة العامة للديانة اليهودية نظرا لأن الآيتين القادمتين تتحدثان عن هذه المعتقدات اليهودية التى هى معتقدات وثنية ومغرقة فى الوثنية . والحق أننى ماطالعت هذا الكتاب اليهودى « العهد القديم » ، مرة فى الماضى « وأنا أطالعه هذه الأيام مرة أخرى » الا وامتلأت نفسى انكارا لما اقرأ ، لا باعتبارى مسلما يتعصب لدينه ، ولكن باعتبارى مجرد مفكر طالع الكثير عن الاديان ،فلا أرى فيما أطالع الا وثنية وأفكارا بدائية ينكرها الذوق السليم ، ويأباها العقل ، فالله كما يصوره كتاب اليهود هو اله « دون الانسان احيانا وهو ما سوف تشير اليه الآية القادمة ، والكتاب كله من أوله الى آخره محشو بالكفريات ولكنى كمسلم مؤمن بالقرآن ، وأنه وحى من الله ،مأمور بأن أومن بأن جوهر اليهودية هو جوهر الاسلام وأن هذه الكتب المتداولة هى شىء يخالف كل المخالفة « التوراة » .

ولليهود أن يوافقوا على قول القرآن أو لايوافقوا « لا اكراه فى الدين » ولكن الشىء المحقق أن شهادة القرآن لليهودية هى التى أبقت عليها فاذا كانت الأفكار الماركسية تستطيع أن تهدم اليهودية هدما ، فليس سوى الاسلام ما يهدم الماركسية ، وببقاء الاسلام وكتابه القرآن ستبقى اليهودية بشهادة القرآن لها وتسمية معتنقيها بأهل الكتاب .

فليدرك ذلك اليهود الذين ينظرون شذرا للاسلام والمسلمين ، فضلا عمن يتصدون لحربهما ، فلا بقاء ليهودية بدون الاسلام وكتاب المسلمين وهو « القرآن » وتعالوا بعد هذا التمهيد نستعرض قول العزيز الحميد :

« لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن اغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

لقد سمع الله : من أسماء الله الحسنى « السميع » والسمع هو ادراك الانسان للاحداث عن طريق « الأذن » والجهاز الذى أعد لذلك فى رأس الانسان ومهما استطاع العلم أن يفسر عملية

السمع التى توصل الأصوات الى المخ ليدرك معناها ، فان عملية الادراك ذاتها سر يستعصى على العقل تفسيرها .

وقد تنزه الله عن أن يسمع بجهاز مادى ولكن عملية الادراك التى هى سر من الأسرار تشير الى قدرة الله المطلقة لسماع كل شيء ، ورؤية كل شيء ، وعلم كل شيء ، واستطاعة الانسان أن يدرك عن طريق السمع والبصر يدلنا على أن هناك قدرة مطلقة كاملة لا تحدها حدود ، وما يمتلكه الانسان من قدرة محدودة ليست الا قبسا من هذه القدرة المطلقة العلوية ، وقد منحها الله للانسان لتكون دليلا عليه على ضوء هذا الفهم يجب أن نطالع مثل هذه العبارات « قد سمع الله » فهو « سميع » ولكن بغير هذه « الأداة » التى نعرفها وسمع هنا معناها أنه أحاط علما بقول من قال ، وسجل عليه ليحاسبه على ما قال فما هذا الذى قالوه ؟ لقد قالوا قولا عظيما لا ينطق به الا وثنيون لا يعرفون حقيقة الله ومكانة الانسان منه ، وأنه حيث الله هو الكمال المطلق ، فان الانسان يمثل النقص ، فقد كان قولهم : ان الله فقير ونحن أغنياء ، ولم يطف بخيال قدماء المفسرين أن اليهود يعنون هذا القول فحاولوا جميعا أن يتأولوه بأنه قيل على سبيل التهكم عندما نزلت آية :

« من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » .

ومنهم من قال : ان رؤساءهم قالوا هذا القول لصغار اليهود للتمويه عليهم ، وغنى عن البيان أن كل هذه محاولات لتبرير قول اليهود الذى ينضح بالوثنية ، وهو ما ينطق به « العهد القديم » فهو وثنية من أول سطر فيه حتى آخر سطر ، فهو يصور الله على أنه محتاج لليهود ليعبدوه ، فهو يغريهم ، وهو يطعمهم ويعيش فى وسطهم ، ويعتبر كل من على ظهر الأرض عبيدا لليهود ان شاءوا قتلوهم ، وان شاءوا سمحوا لهم بالحياة ليخدموهم ، فليس بعيدا أن يكون القول الذى حكاه القرآن عن اليهود قد قيل على سبيل الاعتقاد وليس على سبيل التهكم يدل على ذلك اعتبار القرآن له كبيرة الكبائر ، فقرنه الى أعظم جرائم اليهود وهى قتلهم « الأنبياء بغير حق » وقد أشرنا فيما مضى أن التعبير هنا « بغير حق » تعنى عدوانا وطغيانا وفجورا ، اذ يستحيل أن يكون هناك قتل للانبياء « بحق » .

● « ونقول ذوقوا عذاب الحريق » .

هذا هو السياق الذى يؤكد أن اليهود يعتقدون ما يقولون من أن الله سبحانه وتعالى قد توعد اليهود بتسجيله عليهم قول ما قالوا وأنهم سيلقون يوم القيامة عذاب نار جهنم .

« ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد » .

والله سبحانه وتعالى يعلم اليهود أنه اذ يعذبهم فذلك : « بما قدمت أيديكم » أى بأعمالكم وفى هذا رد على مزاعم اليهود الوثنية من أنهم « أبناء الله وأحباؤه » وتبرز الآية الكريمة عدل الله المطلق بالنسبة لبنى البشر كافة : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

الذين قالوا ان الله عهد الينا الا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين » .

اسرائيليـــات :

هذا كلام عربى مبين ناطق بأن اليهود على أيام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم طلبوا منه أن يلتزم بطقوســـهم وأن يخضـــع لكهانهم ، فيقدم القرابين على مذابحهم ، وقد كان من القرابين انواع تحرق بالنـــار ، وبطبيعة الحال ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذى بعثه الله سبحانه وتعالى ليعيـــد للدين صفاءه ونقاءه واستقامته ، بالذى يخضع للكهنة والأحبار الذين نصبوا من انفسهم وسطاء بين البشر وبين الله واعتبروا انفسهم بذلك أوصياء على الأنبياء فلا نبى الا من قال عنه الكهنة انه نبى ، ولعل أعظم ماجاء به الاسلام للدنيـــا وجعله حقـــا وصدقا هو آخر الأديان وأكملها ، هو شجبه والغاؤه لهـــذه الوســـاطة والتى هى ضرب من ضروب الوثنية ، ولذلك فقد جرى الاسلام على منهجه ، فهو اذ يرفض ما يطلبه اليهود من ان يقدم قرابين على مذبحهم فهو يحاجهم بالحجة المنطقية التى تبهتهم ، فهو يقول لهم : اذا صح زعمكم بأن الله عهد اليكم أن لا تؤمنوا لنبى حتى يقدم القرابين على مذابحكم ، فلم قتلتم بعض من جاءكم قبلى من الرســـل ، جاءوكم بالبينـــات : « وبالذى قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين » .

وهكذا يدحض القرآن زعمهم من انه لم يؤخرهم عن اتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الا أنه رفض أن يقدم القرابين على مذابحهم .

« تأكله النـــار »

ونقف قليلا أمام عبارة « بقربان تأكله النار » والنار تحرق كل شىء وتأكل كل شىء فيكون المطلوب من النبى صلوات الله عليه هو ان يقدم قربانا على طريقة طقوس القوم وهو ما رفضه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بتوجيه من الله طبعا ، ولكن الاسرائيليات التى تسربت الى تفسير القرآن راحت تتحدث عن نار تنزل من السماء لتحرق القربان ، وهى من تخليطات الوثنية ، والآية الكريمة لا تشير الى شىء من هذا لا من قريب او بعيد فلزم الوقوف عنـــد نص القرآن وعـــدم الاستعانة على تفسيره بالكفريات الاسرائيلية .

« فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير » .

البينات : اى الدلالات ، والحجج ، والآيات .

الزبر : اى الكتب المكتـــوبة والزبر جمـــع زبور وهو الكتاب وأصله من زبرت اى كتبت قال الشاعر الجاهلى أمرؤ القيس :

لمن طلل أبصرته فشـــجانى كخط زبور فى عسيب يمانى

المنير : اى الواضح المضىء .

والآية فى معناها تكمل المعنى فى الآية السابقة، وتسرى عن سيدنا محمد صلوات الله عليه ، وتقول له :

ان لا يأسى لتكذيب اليهود له ، فهذا هو ديدنهم، كم جاءتهم من قبله رسل (آخرهم عيسى بن مريم) بالآيات البينات ، والكتب السماوية الموحى بها فأنكرها اليهود وكذبوا الرسل الذين جاءوا بهـــا .

« كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » .

« كل نفس ذائقة الموت » :

يكاد الموت ان يكون هو الحقيقة الوحيدة التي يراها ويعاينها كل انسان في هذه الدنيا ولقد تصدى العلم الانساني لكل شيء في الطبيعة يحاول أن يفهمه وأن يفسره ويقلده ويسيطر عليه ، حتى اصبح يطير بأسرع من الصوت ، ويغوص في أعماق البحر ويسير فوق القمر ، ويستبدل اعضاء في جسم الانسان ، ولكن شيئا واحدا لم يستطع الانسان أن يقترب منه خطوة واحدة اكثر من اسلافه منذ عشرات الآلاف من السنين ، مما يقطع بأن شأنه في المستقبل سيكون كشأنه في الماضي والحاضر ، وهو العجز والعجز المطلق ، أمام الموت وسره الالهي من أن :

ـ لكل أجل كتاب .

ـ وما تدري نفس بأي أرض تموت .

ـ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة .

فساعة الموت وكيفيته ومكانه امور حددها الله وأبقى علمها لنفسه ، وقد أكد القرآن هذه الحقيقة بعشرات من الآيات وبشتى الطرق والأشكال ، وقد تكلمنا من قبل ، وسوف نتكلم كلما عرضنا لآية تتحدث عن الموت ، فقد شاء الله أن يذكر به دائما ليعمق الايمان بالله ، وانه هو الذى يحيي ويميت في نفوس المؤمنين فكفى بالموت واعظا كما قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى خاطبه الله ، وخاطب البشر بدون استثناء في شخصه بقوله تعالى : « انك ميت وانهم ميتون » .

وهو ما يتكرر ويتأكد في الآية التى نحن بصددها « كل نفس ذائقة الموت » .

« وانما توفون أجوركم يوم القيامة » .

يوم القيامة هو يوم الحساب ، حيث يثاب المرء أو يعاقب ، جزاء وفاقا على ما قدمت يداه ، وفي الحياة الدنيا قد يلقى الانسان عاقبة طغيانه وبغيه وانحرافه ، وقد يجزل له العطاء جزاء بره واستقامته ، وتصدقه على الناس ، ولكن ذلك ليس هو القاعدة فالدنيا دار اختبار وبلاء ، وقد يلقى فيها المؤمن الصادق عنتا ، وضيقا ، حيث يلقى الشرير والآثم سعة وازدهارا وانما المحقق والمؤكد وهو ما يقطعه الله على نفسه ، أن يحاسب كل انسان على أفعاله في هذه الدنيا بالعدل والقسطاس .

« وانما توفون أجوركم يوم القيامة » .

وتوفية الأجر ، أى اعطاء كل مستحق لما يستحقه من عقاب أو ثواب .

يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿١٨٥﴾
۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ
وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ
لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ
يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨٨﴾
وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ

« فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز » .

زحزح : أبعد : نحى . قال فى الكشاف : الزحزحة تكرير الزح وهو الجذب بعجلة .

والتعبير يشعرنا بأن الجميع يوشكون أن يقعوا فى النار ، لولا أن الله بلطفه وكرمه يبعد من يشاء عن أن يقع فى النار ومثل هذا الشخص الذى نحاه الله عن النار وادخله الجنة « فقد فاز » والفوز هو النجاح وهو التوفيق ، وهوأعظم نعم الله على الانسان .

« وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور » .

الدنيا : مؤنث الأدنى وهى صفة للحياة ،والحياة الدنيا هى حياتنا هذه التى نحياها .

متاع : كل ما يتمتع وينتفع به .

الغرور : الغرور : هو ما له ظاهر تحبه ولهباطن يكره أو باطن مجهول ، ومنه بيع الغرر وهو ما كان له ظاهر بيع يغر ، وباطن مجهول ،والغرور (بفتح الغين) هو الشيطان وقال البعض : الغرور هو الخداع ولقد تحدثنا طويلافى اكثر من مناسبة أن الاسلام هو دين الوسط وهو لا يبغض المؤمن فى الدنيا بل يطالبه بأن يأخذ حظا منها بالحلال « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ولكن القرآن الكريم لا يفتأ يحذر من الانحراف مع الدنيا والاسراف فى تعاطى شهوات النفس ورغائبها وذلك بادراك أن الدنيا ليست غاية فى نفسها كما يتصور الماديون وانما هى مزرعة الآخرة ، وهى دار ابتلاء واختبار فيجب ان يأخذ الانسان بأعماله الصالحة فيها ما ينفعه فى الآخرة فهى الدار الباقية ، ومتى كانت متع الدنيا كلها فانية وهى الى زوال فحق أن توصف بانها « متاع الغرور » فليس لها بقاء ، وانما البقاء والخلود للحياة الآخرة نصل اليها بأعمالنا الصالحة فى هذه الدنيا .

« لتبلون فى اموالكم وانفسكم ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور .. صدق الله العظيم ..

اشهد ان القرآن وحى من رب العالمين ، نزل به جبريل الأمين على قلب سيدنا محمد ليكون من المرسلين ، فها هو ذو قول قيل منذ الف واربعمائة سنة ، لقوم يختلفون عنا ، وفى ظروف مغايرة لظروفنا ، وكانت الدنيا غير الدنيا ، وكان سلوك الناس غير سلوكهم اليوم ، ومع ذلك فكأن هذه الآية الكريمة تخاطبنا خطابا مباشرا نحن معاشر العرب المسلمين المواجهين لاسرائيل عام ١٩٧٧ ميلادية ، ان كتب التفسير القديمة تحدثنا عما يظن انه اسباب النزول ، من تأذى سيدنا ابى بكر رضى الله عنه من قول فنحاص اليهودى من ان الله فقير وهم الأغنياء ، وقال البعض ، وانما هو قول كعب بن الأشرف اليهودى والذى راح يقول شعرا يؤذى المسلمين، والله تعالى اعلم اى ذلك كان ، والمهم أن القرآن الكريم يعرض لهذه الأحداث بالتعبير « العام » المطلق غير المحدد بزمن أو مكان معينين ، فضلا عن ذكر اشخاص بعينهم ، فيأتى الكلام مخاطبا المؤمنين فى كل زمان ومكان ، ثم تأتى بعض المناسبات لترى القول كأنه توجيه خاص لمواجهة حدث قائم .

ولنبدأ اولا بذكر الظروف التى نزلت بسببها الآية ، ثم نعرض لمدى انطباقها على وقتنا الحاضر (فى هذه الساعة) واننا يجب أن نستلهم منها كيف ينبغى علينا أن نتصرف .

فى اعقاب غزوة أحد :

ولقد تحدثنا من قبل على امتداد السورة عن الجو الذى ساد الجزيرة العربية بعامة ، والمدينة ومكة بخاصة ، عقب ما اشيع وما صور بأنه هزيمة للمسلمين فى « أحد » وكيف شمت الشامتون ، وقوى المستضعفون ، وارتفعت أصوات المنافقين مما اجملته الآيات السابقة ، وردت عليه ودحضته كما مر بنا .

والآن والسورة تقترب من نهايتها ، فكأن الله سبحانه وتعالى — واستغفر الله من الزلل — كأنه شاء أن يلخص الموقف كله فى آية كريمة .

« لتبلون فى اموالكم وانفسكم » .

فكل ما جرى ووقع فى غزوة احد ، انما تم على سبيل الابتلاء والاختبار للمؤمنين وغير المؤمنين مما كشفت عنه الآيات السابقة ، والأمر المحقق ان المؤمنين قد بذلوا الكثير من اجل الاستعداد الحربى قبل احد ، ولابد انهم خسروا الكثير وكان عليهم ان يبذلوا الأكثر لتعويض ما فقدوا من سلاح ، ولهذا ذكرهم الله سبحانه وتعالى ان هذا الابتلاء فى الأموال والأنفس ، هو قدرهم ودورهم فى الحياة الذى يجب أن يتحملوه فى رضا وصبر ، وقدم الله الاشارة الى المال قبل الاشارة الى النفس وهى سنة الهية من سنن الكون ، أن تكون التضحية بالمال كله اشق من التضحية بالنفس ، وهو المشاهد والملحوظ بالتجربة ، فهناك الوف وعشرات الألوف على مر العصور يجودون بأرواحهم فى سبيل معتقداتهم ولكنك لن تجد الا افرادا ينزلون عن كل اموالهم فى سبيل الله ، ومن فعل ذلك فقد خلده التاريخ ، وقد اباحت القوانين الوضعية فى الدنيا كلها على مر العصور « القتل » دفاعا عن المال ، وما ذلك الا ادراك للغريزة البشرية .

« ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيرا » .

قف الآن امام هذا المعنى من أن المؤمنين ، اى مؤمنين ، سوف يسمعون ما يؤذيهم من اليهود والذين أشركوا ، فأما اليهود فأحسب ان مجرد الاشارة يكفى لنستحضر مدى الأذى الذى يسببه لنا فى كل يوم زعماء اليهود بتصريحاتهم المنكرة المتبجحة ، والمشركون اليــوم هم هــؤلاء الذين اتخذوا من الكفر بالله دينا ، بينما جعلوا من جسد زعيمهم الذى مات منذ أمد بعيد مزارا يحجون اليه ويحيطونه بالتقديس شأن المشركين تماما ، وهؤلاء لا عمل لهم الا ايذاء المؤمنين بالقول ان الايمان بالله هو خرافة الأجيال ومظهر التخلف والجهــل .

فما هو الداء ؟

واذا كان هذا قد حدث ويحدث وسوف يحدث وسيظل الذين آمنوا يسمعون من اليهود والذين اشركوا اذى كثيرا ، فما هو العلاج وما هو الدواء لهذه الآفة ؟ ان القرآن الكريم يقــدم الجواب والحــل .

« وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور » .

يبين الله تعالى للمؤمنين كيف يواجهون مساءات اليهود والمشركين عن طريق القول ، وان ذلك يتم بسلاحين :

١ ــ الصــبر .

٢ ــ التقــوى .

فأما التقوى فهى معروفة وهى اتقاء محارم الله او ما لخص فى انه اتباع لمــا أمر الله به والانتهــاء عما نهى عنه ، ومن شــأن ذلك ان يكسب الانســان ثقة بالنفس وقــوة تتولد من الايمان بالله وأن من يتقيه فلابد أن يجد المخرج والحل لأى مشكلة من المشــاكل أو أزمة من الأزمات .

الصــبر : واذا كانت التقوى هى العنصر الأول لمواجهة المصاعب والمشاكل ، فان الصبر هو عنصرها الثانى وقد قدمه الله فى الآية على التقوى لاظهار أهميته ، واذا كان مفهوم التقوى بصفة عامة مستقرا فى نفس الجمهرة العظمى من المسلمين ، فليس الشأن كذلك بالنســبة « للصبر » فالأكثرون يتصورون الصبر على أنه الاستسلام ، والصبر عكس ذلك تماما ، فهو عمل ايجابى وهو مجاهدة مستمرة للضــعف والشهوات ، انه عملية اعداد فى صمت وهدوء لتجميع العناصر المؤدية للنجاح ، فليس ينجح فى الدنيا الا من يعرف كيف يصبر ، جاء فى محــكم التنزيل :

« والعصر ان الانسان لفى خسر . الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحــق . وتواصوا بالصــبر » .

وقد أعجبنا قول الامام الشيخ محمد عبده :

« الصبر هو تلقى المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه ، مع الروية فى دفعه ومقــاومة ما يحدثه من الجزع فهو مركب من أمرين : دفع الجزع ومحاولة طرده ، ثم مقــاومة أثره حتى لا يغلب على النفس » .

« فان ذلك من عزم الأمور » .

ووصف القرآن الكريم التقوى والصبر بأنهمامن عزم الأمور .

وعزم الأمور من الناحية اللغوية ، اى شدهاوصلابتها ، ولكنها هنا تعنى . كل ما هو جليل ، ورفيع الشأن ، وما يؤدى الى النجاح والفلاح .

« واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون » .

مر علينا تفسير هذه الآية من قبل فى سورة البقرة ، فمن الواضح المحقق الذى نشهده نحن اليوم ان اليهود لا يغيرون مسلكهم ابدا مهمــاتوالت عليهم النذر وعاينوا من الآيات فاليهود هم اليهود وسيبقون بكل صفاتهم التى جعلتهممن « المغضوب عليهم » الى ابد الآبدين والآية التى نحن بصـددها تفيد ان اليهــود من أول الشعوب التى لا تزال فى وقتنا الحاضر ، تلقيــا لرسالة التوحيد ، اذ بعث الله من بينهم سيدناموسى ليكون رسولا نبيا ، وأنزل عليه التوراة ، التى اصبح لزاما على اليهــود ان يتبعونها وان يتقيدوا بأوامرها وينتهــون بنواهيهــا ، وأول التزامات المعرفة والهداية هى ان يبذلها الانسان للآخرين ليسـيروا معه فى النــور ويستضـيئوا بالمعرفة التى افاءها الله عليهم ، ولكن اليهــودلم يفعلوا ذلك بل فعلوا النقيض تماما ، فاعتبروا انفسهم انهم هم الناس ومن عداهم ليسوا بناس وراحوا يختارون من التوراة ما يحلو لهم فى كل زمان ومكان ، وينبذون وراء ظهورهم كل مالا يحلو لهم « والنبذ » هو الطرح ، ووراء الظهر ، صيغة مبالغة تفيد « اللامبالاة » وعكسها « وضع الأمر نصب عينيه » فاليهــود لا يبالون بالتوراة فى كل ما لا يوافق هواهم ويرددون من نصوصها ما يستفيدون منــه ، حيث « يكتمــون » أى يخفــون بقية النصوص ، من ذلك على سبيل المثال (وقد طالعت مؤخرا كتاب اليهود) هذا الذى يشيعونه من ان الله قد أعطى الأرض من الفرات الى النيل لنسل ابراهيم ، ثم يكتمون أن سيدنا اسماعيل هو ابن ابراهيم ، وأنه أب العــرب المســتعربة ، وأن الله قال لسيدنا ابراهيم أنه سوف يبارك فى نسل ابنه اسماعيل فاذا كان سكان المنطقة من الفرات الى النيل هم العرب فان ذلك هو تحقيق مباشر لـمـا فى كتاب اليهود ، ولكن لأنهم قوم ملعونون وقد غضب الله عليهم تراهم يغفلون هذا القول الذى يفقـأ عيونهم لنصاعته وصراحته ويصرون على أنهم وحدهم نسل ابراهيم ، ومــاذا عن اسماعيل الذى وعد الله على ما يقول كتابهم ان يبارك فى نسله ويكثرهم (بعدد نجوم السماء ، هذه مسألة لا تعنى اليهود فى قليل او كثير ، فمايوافق شهواتهم يظهرونه ويتمسكون به ، وما يخالف اهواءهم الرخيصة يكتمونه ولا يبينونه بل ويزيدون على ذلك عدم المبالاة به وطرحه وراء ظهــورهم « فنبذوه وراء ظهورهم واشــتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون » وهــذا هو ما فعله اليهود وما سوف يفعلونه دائما وهو ان يعرضوا عن آيات الله وتوجيهاته فى مقــابل شهواتهم ورغباتهم وما اتفه واتعس هذا الثمن الذى يتقاضونه مقابل اغضاب الله واهمــال أوامره ونواهيه .

« لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب اليم » .

بمفازة : اى بمنجاة ، اى ليسوا بفائزين فى الصحيحين اكثر من حــديث ، فى سبب نزول الآية ففى قول انها نزلت فى اليهود وقول آخــر انها نزلت فى المنافقين ولم ير بعض المفسرين

ما يمنع أن تكون نزلت بسبب مواقف الاثنين معافكلاهما تنطبق عليه هذه الآية ، ونحن من هذا الراى ونزيد انه أيا كان سبب النزول فآيات القرآن تأتى منطوية على مبادىء عامة تصور الطبيعة البشرية التى هى واحدة ثابتة فى كل زمان ومكان .

« لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا » .

اى لا تظنن ، الذين يفرحون بما اتوا ، وكلمة « أتوا » هنا بمعنى قالوا أو فعلوا ايجابا أو سلبا ، وهذا الذى قالوه أو فعلوه ، اما أن يكون حقا وصوابا ، أو يكون زيفا وبطلانا ، فأما بالنسبة لهذه الحالة الأخيرة فالأمر جد مفهوم فكل من قال أو فعل باطلا فلابد من محاسب ومجازى على ما قدمت يداه ، وانما الذى يستحق التوقف أمامه والتأمل هو عندما يقول الانسان أو يفعل ما هو حق وخير ، فهل الفرح محظور ويستتبع المؤاخذة ؟ والجواب على ذلك انه اذا وصل الفرح الى مرتبة الغرور والبطر والكبر والخيلاء ، وهو ما يوجد عندما ينسى الانسان ان ذلك قد تم بنعمة من الله وفضل ، ويكون مظهر الفرح هو شكر مفيض النعمة ، وهو الله سبحانه وتعالى واهب النعم ، نقول انه فى مثل هذه الحالة لا يكون ثمة غرور ولا بطر أو خيلاء ، وفى هذه الحالة يتحول الفرح الى رضا وسكينة فى القلب ، وغبطة بنعمة الله تحس بها الروح ، أما عندما يكون تصور الانسان أنه هو بقدراته وذاتيته ، هو السبب فى الأمر المفرح « انما أوتيته على علم » فهذا هو الغرور والخيلاء المذمومان مهما كان ما اتاه الانسان ، اى قدمه واعطاه ، فالآية تنذرهم بسوء المصير .

« ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » .

واذا كان الانسان لا يجدر به أن يتيه فخرا وخيلاء وغرورا بما فعل ، حتى لو كان ما فعله حقا وصوابا ، فكيف اذا أحب الانسان أن يحمد وأن يثنى عليه بما لم يفعل ، وهى منقصة يقع فيها غالبا أصحاب النفوذ سواء كان نتيجة السلطة أو الجاه أو المال أو العلم وقد كان هذا شأن المنافقين واليهود على زمن رسول الله فهؤلاء الآخرون كانوا يقولون عن انفسهم « نحن أبناء الله واحباؤه » اى انهم جديرون بكل حمد وثناء حيث لم يفعلوا ما يجعلهم جديرين بذلك ، أما المنافقون فقد تخاذلوا عن نصرة رسول الله فى غزوة « أحد » على ما قدمنا ، وسنراهم يتقاعسون عن السير معه فى غزوة تبوك ، ومع ذلك فقد فرحوا بهذا التقاعس واحبوا أن يحمدوا على ما لم يفعلوه ، وقد قدمنا ان الكلام عام ، وسيوجد فى كل زمان ومكان اقوام يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا .

« فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » .

وتكرر لفظ « تحسبن » وهو أسلوب من أساليب البلاغة والفصاحة ، وينطوى على التأكيد « فلا تحسبن » يا محمد أو يا أيها المخاطب بالقرآن أن أمثال هؤلاء الأشخاص ممن امتلأوا بالغرور والخيلاء لبعض أعمال قاموا بها وتصوروا أنها من عند انفسهم . أو كانوا ممن يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تظن انهم فى منجاة من العذاب .

ولهم عذاب اليم .

واذا كان التعبير الأول يساق على سبيل دفع الظن ، فقد جاء ختام الآية ليقطع بالحكم على هذا الطراز من الناس بأن « ولهم عذاب اليم » .

« ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير » .

واذ تقترب السورة من نهايتها بهذا الختام الذى اعتبر هو وختام سورة البقرة ذروة الذروة من القرآن كما ورد فى بعض الأحاديث ، نقول وقدجاءت هذه الخاتمة فان القرآن يمهد لها بلب القرآن وجوهره ، بل لب الأديان كلها ، وهو وحدة القوة المهيمنة على هــذا الكون وقدرتها التى لا يحدها حد ، وليس الخلق بأكمله من سموات وأرضين الا بعض مظاهر هذه القدرة التى يحار العقل من مجرد مواجهتها ، فضلا عن استيعابها .

عجز الماديين وقصورهم :

واللطيف الذى لا يدركه الكثيرون أن الماديين ، عندما ظنوا أنهم علموا الكثير ، فتوصلوا الى وحدة القوة المسيطرة على الكون ، ابتداء من أصغر ذرة ، حتى اضخم المجرات ، وابتداء من الخليــة الواحدة ، حتى أرقى الأحيــاء وهو الانسان ، واكتشفوا أن ذلك كله يسير وفق نظام بالغ التعقيد ، ولكنه واحد ، ينطق بوحدة القوة الخالقة التى لا حد لقدرتها ، وعجزت عقولهم عن استيعاب هــذه القوة ، فاذا بهم يلجأون باسم العلم الى حل غريب جدا ، وهو أن ينكروا على هــذه القوة علمها وحكمتها ، وأنها تهدف من وراء هذا الخلق الى غاية .

وقد توصلوا الى هــذا الحل الغــريب على مرحلتين الأولى لا تجردهم من الايمان ، ولــكنها من الناحية العملية ، جرتهم الى المرحلة الثانية مرحلة الانكار والجحود .

فأما المرحلة الأولى ، فكانت عندما قالوا ما خرج عن المدركات الحسية ، فليس من العلم ، وانمــا هو ما يجب أن يطلق عليــه « ما وراء الطبيعة » فهو ليس محلا ، لادراك العقل فضلا عن الحواس ، وقد قدمنا أن هــذه المرحــلة لا تجرد معتنقها من الايمان بالدين وبالله وباليوم الآخر ، فقد اعتبر القرآن هــذه الأمور غيبية لا يستطيع العقل ادراكها ، وينبغى التسليم بها وتلقيها عن الرسل ، حيث أطلق القرآن الكريم بعد ذلك العقل الى ما لا نهاية ليبحث فى الكون وفى أسراره ونواميسه والســيطرة على شتى المخلوقات والكائنات للاستفادة منها .

وانما تولد الخطر المادى المدمر فى المرحلة الثانية ، عندما جاء أقوام ، ينكرون ويجحدون هذا « ما وراء الطبيعة » فأنكروا أن يكون هناك شيء وراء الطبيعة ، فالطبيعة المادية المحسوسة الملموسة هى كل شيء ، ولا شيء غيرها ، ولم يتصوروا أنهم زادوا الأمور تعقيــدا واستعصاء على أن يدركها ، فلماذا كانت المادة على هــذه الصورة قادرة قدرة لا حدود لها ، ولمــاذا كان ناموسها بحيث يوجد الكون على هذه الصورة هنا ويطلب منك الماديون أن تسلم بهذه الحقيقة التى « لا يدركها العقل » وهــكذا أعادونا الى نقطة البداية ، من أن هناك دائرة يعجز العقل عن تفســيرها وينبغى أن يقــر بعجـــزه عن استيعابها .

ويكون المادى (أى مادى) دون المؤمن فى قوة النفس ، ذلك أن المادى يسقط من حسابه أقوى وأعظم حقيقة فى هــذا الــكون وهى « الله » الخــالق ، المالك ، المدبر ، المهيمن ، العــليم الحكيم ، حيث المؤمن يتطلع بروحه ويتجاوب مع هذه القوة العلوية التى احتجبت عن العقول قدر احتجابها عن الأبصار ، وهو تبعا لذلك أعلم من أى عالم مادى مهما تحدثوا عن درجاته العلمية . وحسب المؤمن أن يدرك بحســه والهــامه أن لله ملك السموات والأرض » لكى يكون عالمــا ويكون من الصالحين الناجين ، وأن يجهل أعظم الفلاســفة أو العلمــاء الماديين هــذه الحقيقة الأزلية ، لكى يكون من الجهلة « المدمرين » .

« والله على كل شيء قدير » .

وهى حقيقة يراها الانسان ويلمسها فى كل دقيقة ، فأما المؤمن فيدرك ان هذه القوة غير المحدودة هى الله ، اما المادى الكافر فيسمى هذه القوة « الطبيعة » ويعتبرها طبيعة عمياء صماء لا ادراك لها ، ولم يسأل نفسه : فمن أين اذن جاء بصر الانسان وسمعه وادراكه وحكمته، ان قاعدة العلم الأساسية ، ان فاقد الشيء لا يعطيه ، ومع ذلك فطبيعة عمياء صماء لاوعى فيها ، قد أوجدت هذا الانسان الواعى المدرك المبصر ، أرايت الآن لماذا نصف « أعلم علماء الماديين » بأنه أجهل من دابة ؟

حمدا لله وشكرا أن كتابنا من المؤمنين الذين يؤمنون بأن الله الحى الحكيم العليم — وليس الطبيعة — على كل شيء قدير

الاسلام فكر كله وعلم كله :

روى الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنه، قال : اتت قريش اليهود فقالوا : بم جاءكم موسى من الآيات ؟ فقالوا عصاه ويده بيضاء للناظرين، واتوا النصارى فقالوا : كيف كان عيسى ؟ قالوا : كان يبرىء الأكمة والأبرص ويحيى الموتى : فأتوا النبى فقالوا : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا ، فدعا ربه ، فنزلت هذه الآية « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » فليتفكروا فيها . انتهى . وقد توقف البعض أمام مدى حجية الحديث ، على أساس ان هذه المحاورة بين المشركين ومن سألوهم ، والطلب الذى طلبوه من سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام من تحويل (جبل الصفا) الى ذهب كل ذلك يفيد أن الآية مكية ، مع أن المقطوع به أن سورة آل عمران مدنية ونحن ندع لأئمة المتخصصين فى علم الحديث تحقيق هذا الأمر ، ولكنا من ناحيتنا نقول : ان فحوى الحديث وما اشتمل عليه ، صحيح مائة فى المائة ، وهو يطابق ما ورد فى القرآن الكريم ، والفارق الفعلى والأساس بين الاسلام واليهودية يتلخص فيما اشتمل عليه الحديث ، فحيث يمكن أن يقال من الملحدين ان الايمان بالمسيحية واليهودية يقوم على أمور ينكرها العقل البشرى ، كالقول بأن المسيح كان يحيى الموتى وموسى شق البحر بعصاه ، فان الاسلام ونبى الاسلام ، كانت معجزته الكبرى عقلية تخاطب العقل وتفحمه حسب مقاييسه التى قررها لنفسه وأطلق عليها « لغة المنطق » وعلى ذلك فمعجزة القرآن ، ليست مجرد معجزة سماعية ، تدور حول أمور خارقة لا يسيغها العقل ، وانما هو كتاب حى دائم يتحدى بثباته ومحتوياته العقل البشرى فى كل زمان ، وها هو العالم الاسلامى اليوم يغص بعشرات الألوف ممن درسوا العلوم الحديثة بل واوغلوا فيها ، ومع ذلك لا يجدون فى الاسلام وسيرة الرسول حادثا واحدا يمكن للعقل البشرى أن يعترض عليه ، باستثناء ما ورد من حديث عن معجزات الرسل السابقين ، ونحن الذين بالقرآن الكريم مأمورون أن نؤمن بكل ما رواه القرآن عن ابراهيم وموسى وعيسى « لا نفرق بين أحد من رسله » ولا يظن ظان أن الايمان بما رواه القرآن عن خوارق جرت على يد الرسل السابقين الموغلين فى القدم شيء يتعارض مع لغة العقل ، فهذا العقل يقرر انه كما يكون الاثبات بدليل ، فكذلك النفى لا يكون الا بدليل ، فأى دليل يمكن أن يسوقه العقل ، على أن حادثة « ما » يقال انها حدثت منذ آلاف السنين أنها لم تحدث ، مثل هذا النفى يفتقر الى دليل ، فلم يبق الا القول بأن العقل الحديث لا يقبلها ، ويكون الرد ، ومن انى للعقل ان يحكم ويجزم ، بأن أمورا كانت تسير منذ آلاف السنين ، على غرار سيرها فى عصرنا المادى الحديث ، ولأسوق نموذجا واحدا يقطع بأن بعض الأمور التى يتصورانها مستحيلة فى وقت من الأوقات تصبح شيئا

عاديا فى وقت آخر ، فعندما قال «كولمبس» فى وقت من الأوقات أنه يمكن الوصول الى الشرق عن الطريق السير فى الغرب ، اعتبر علماء عصره، أن هذا القول تخريف وجنون ، ولأدع هذا المثل حتى لا يقول قائل ، أن « كولمبس » فى هذا كان يطبق نظرية كروية الأرض ، واذن فلنضرب مثالا آخر ، هل كان يوجد عقل يتصور أن الانســـان اذا ارتفع بضع مئات من الكيلو مترات ، فانه لا يقع او يسقط وانما يمكن أن يظل سابحا ومعنى ذلك ، أن العقل يخرج عن حدوده ولا يتحدث بلغته عندما ينكر واقعة حدثت منذ آلاف السنين بغير دليل ، أو أن يكون دليله الوحيد أن مثـــل هذه الأمور لا تحدث هذه الأيام ، فان عدم حدوثها اليوم ، لا يقطع بأنها تحدث فى القديم فى ظل ظروف كونية مغايرة ، فعندما يقص علينا القرآن الكريم قصص موسى وعيسى وابراهيم ، فنحن نقول آمنا وصدقنا فاكتبنا مع الشاهدين ، ولكنه (ولا لوم ولا تثريب) هو ايمان بالغيب حيث يتوقف العقـــل لأنه يصبح فى غير ميدانه وليس كذلك الاسلام .

ومن هنا تأتى عظمة الاسلام وسر تفوقه وأن المستقبل له لأنه دين العقل وحيث لم يبق على النصرانية واليهودية الا شهادة القرآن لهما بأنهما ديانتان سماويتان ، فى وقت كان فيه حملة القرآن، هم الذين فتحوا الدنيا شرقا وغربا، ولولا شهادة القرآن لهما لأنكرهما البشر ، فى عصر النـــور والعقل والعلم ، حيث عاش الاسلام ونما وينمو وسوف ينمو ، بالرغم من جحد اليهود والنصارى، وسيكون هو الذى يدحر الالحاد والمادية ، لأنه مبنى على العقل ويخاطب العقل ، فلينتشر العلم وليعلو ويعلو فسيكون ذلك اســـتجابة مباشرة للقرآن ولأمثال هذه الآيات التى نحن بصددها بالذات .

ولنرجع الى ما اشرنا اليه من أن ما قيل فى سبب نزول هذه الآيات من حيث اظهار التبـــاين بين اليهودية والنصرانية من حيث استنادهما الى معجزات خارقة ، حدثت فيما مضى وانتهى أمرها ، وبين الاســـلام ومعجزته العقلية التى لا تنتهى ، قلنا أن معنى الحديث الوارد بهـــذا الخصوص كما ورد فى سورة الاسراء الآيات ٨٩ وما بعدها « ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفورا . وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالهـــا تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » .

فأنت ترى أنه حيث طلب من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن يجيء لمشركى قريش بالخوارق فقد رد القرآن بأنه هو المعجزة ، وهو ما ثبت على مر القرون ومن هنا قلنا ان الحديث لا يخرج عن نص القرآن وندع للمتخصصين فى فن الحديث ما زاد على ذلك .

ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ

« ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » .

الألباب : جمع لب ، واللب هنا يعنى العقل ذلك ان لب كل شىء هو محل حياته ، ومحدد صفاته وخصائصه وشخصيته ، وهذا هو الدور الذى يقوم به العقل فى حياة الانسان ، ويكون معنى هذه الآية وما تلاها من آيات ، أن لا تلتمسوا ايها البشر خوارق تصدع عقولكم لكى تؤمنوا بالله ، بل على العكس من ذلك ، فان التفكر وتعقل كل ما حولكم من ظواهر الطبيعة وشتى العوالم والكائنات ، كفيل بأن يدلكم على الله الخالق وقدرته اللانهائية .

وهكذا دعا الاسلام العقل لينطلق فى ملكوت السماء والأرض ، باحثا دارسا منقبا ، فلا عجب أن أحدث الاسلام اكبر ازدهار لحضارة العلم وسيبقى كذلك الى ابد الآبدين ، فلا يوجد مسلم واحد يتصور أن هناك تعارضا بين أن يعلم ويعلم الى مالا نهاية وأن يكون فى ذات الوقت مسلما عميق الايمان ، حيث رأت الكنيسة فى فهمها للمسيحية، أن هناك تعارضا بين الفكر والعلم والايمان المسيحى ، فكان موقفها يتلخص فى التعبير التالى فى العصور الوسطى : « اطفىء سراج عقلك واعتقد » وكانت النتيجة أن الحضارتين الاغريقية والرومانية انقرضتا فى أوروبا فسادها الظلام ، ولولا المسلمين لجهلت الدنيا ، أنه كان فى الدنيا فكر وعلم وحضارة .

حديث شريف : جاء فى تفسير القرطبى أنه روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، قالت : لما نزلت هذه الآية على النبى صلى الله عليه وسلم قام يصلى ، فأتاه بلال يؤذنه بالصلاة فرآه يبكى، فقال : يا رسول الله أتبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : يا بلال افلا أكون عبدا شكورا ، ولقد انزل الله على الليلة آية « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها .

« الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » .

اعلم حفظك الله أن الانسان مذ يولد حتى يموت لا يخرج أمره عن هذه الأحوال الثلاث : القيام والقعود والرقاد ، ولما كان العقل هو جزء من الانسان ، وعمل العقل وهو الذكر والتفكر ، فما على المؤمن الا ان يعمل عقله على الدوام ما بين ذكر وفكر فيكون ذلك هو ذروة العبادة وما يبلغ

بالانسان الى ذروة الرضا والراحة ، والعــزةوالكرامة ، لأنه يكون عائشا مع ربه وخالقهوذهب نفر من المفسرين ، الى أن ذكر الله هنا مقصود بهاالصلاة ، وراح البعض يستخلص بعض أحكام الصلاة ، اذا لم يستطعها قائما ، فقالوا يصلىقاعدا فان لم يســتطع فراقدا الى غير ذلك من احكام الصلاة .

والراى عندنا أن ذلك من قبيل تفسير العــامبالخاص (بدون مخصص) فالذكر أعم من الصلاة، والفكر اعم من الأثنين وفى القرآن الكريم حديثعن الذكر فى كل وقت وحال باعتباره أمرا يغاير الصلاة ، قال تعالى :

«فاذا قضيتمالصلاة فاذكروا الله قياما وقعوداوعلى جنوبكم ».

« ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » .ومرة أخرى انظر يا رعاك الله الى سعة هذه الآية ، وكيف تدفع المؤمن للتفكير الى مالا نهاية،فى طبيعة الكون وخلقه وتطوره ، وأنها تتســع لكل علوم الدنيا ومعارفها .

« ربنا ماخلقت هذا باطلا » .

هذا هو ما ينتهى اى تفكير وتأمل فى ظواهرالكون ، فيتعمق ايمان الانسان بالقدرة الخالقة المبدعة ذلك ان طبيعة العقل وخصيصته ولغته،تقوم على سعيه الدائم لمعرفة السبب خــلف اى مسبب ، والعلة وراء اى معلول ، لا يهداالعقل ولا يستريح اذا راى مجرد ورقة تتحرك الا اذا بحث عن السبب فى تحريكها اهو الهواء ،أو يد كائن او اى شىء آخر وهذا هو شأن العقل بالنسبة لأتفه الأشــياء ، فاذا ســمع صوتااى صوت ، فلا يمكن أن يهدأ قبل أن يدرك مصدر الصوت وما الذى أحدثه أى أن العقل لابد أنيصل من أى حدث الى محدثه ، فاعجب لأقوام يدعون العلم « والعقلانية » يريدون منك أن تقول ان هــذا الكون بأرضه وسمواته وكائناته قد خلق ووجد بدون خالق أو موجود ولغير علة ،فاذا أصبح هــذا فان العقل ينهدم من أساسه ولا يستطيع أن يصل الى اى نتيجة ، فالنتائج لابدلها من مقدمات ، والا أصبح كل شىء حولنا ، بل أصبحنا نحن ، عبثا فى عبث ، ووهما ولعبا وهزلا ، وهذا هو ما يرفضه المؤمن لأن العقل يأباه ، « ماخلقت هذا باطلا » أى لايمكنأنيكونكل ذلك « لغير حكمة وغاية » والباطل ضد الحق ، فاذا كان الحق هو الدائم الثابت الخالد فان الباطلهو الزائل المضطرب الفانى :

قال الشاعر الجاهلى لبيد :

الا كل شىء ماخــلا الله باطــــل   وكل نعــــيم لا محـــــالة زائــل

« سبحانك فقنا عذاب النار » .

بلاغة القرآن :

لا نعدو الحقيقة اذا قلنا : ان اللغة العربية التى لا تزال حية مزدهرة حتى اليوم ، فذلك بفضل القرآن وسره المعجز ، وقد أخذت البلاغة والفصاحة وكل علوم اللغة مسارا جديدا هو الذى ابتاها وسوف يبقيها وكلما تصور الناشئون ، أن باستطاعتهم أن ينالوا من اللغة العربية ، اذا بهم يسقطون مندحرين وتبقى اللغة العربية مرفوعة اللواء ، كاملة السيطرة والهيمنة على الحياة ، ذلك أن القرآن الكريم هو أساسها المكين .

من التحدث عن الغائب الى صيغة المتكلم :

انظر الى هذا التعبير الذى نحن بصدده ،تدرك كيف سبق القرآن الكريم ، شأنه فى كل شيء ، ما يتصورونه من أساليب العصر فى أرقى فنون التعبير ، فقد حدثنا القرآن حديث «الغائب» وهو يصور لنا المؤمنين وهم « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » ولكى يعطى الصورة معها حيويتها وروعتها ، نراه ينتقل من صيغة التحدث عن المؤمنين الى ما يقوله المؤمنون بعد التفكير والتأمل ، فينطقون بـ « صيغة المتكلم » .

« سبحانك فقنا عذاب النار » :

سبحانك : اى تنزهت عن كل سوء وعلا شأنك وتأكدت وحدانيتك ، وعندنا أن كلمة سبحان الله تعنى كل ما يليق بقدرته وكماله ،وان كان الجمهور يقفون عند معنى التنزيه وهو الأقرب للغة .

فقنا عذاب النار : دعاء الى الله سبحانه وتعالى أن يقى المؤمن ويلات جهنم ، جزاء ايمانه « ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار » .

أخزيته : من الفعل خزى يخزى خزيا : اذا وقع فى بلية والاسم «الخزى» والمعنى ، أن من يدخله الله النار فقد أخزاه والخزى يتراوح فى المعنى من مجرد الاستحياء ، الى الاهانة والاذلال ، وتصل الى معنى الاهلاك ، والذى يحدد درجتها هو المقام الذى تستعمل فيه .

أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ
لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم
مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ
وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ
تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ

وما للظالمين من أنصار : حكم قاطع من الله عز وجل ان الظالم لا يمكن ان يكون له انصار وحتى لو ناصره البعض نفاقا ، فعلى أساس أن ما فعله هو العدل ، اى انه يستحيل من يؤيد الظلم لمحض كونه ظلما ، فلا بد أن يلبس لباس العدل (ولو زورا وبهتانا) قبل أن يوجد انسان واحد يناصره والمجتمعات لا تقوم الا لالتماس البشر لاقامة العدل ، فقيل بحق : العدل أساس الملك وتنهار المجتمعات ، اذا تفشى فيها الظلم ، وتقوم العقيدة الدينية ، التى هى فطرة كل نفس « سوية » على أساس وجود « اله عادل » يقيم العدل فى حياة آخرة .

« ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا » .

المعنى جد واضح وهو أن المؤمنين بمجرد أن سمعوا الدعوة الى الايمان ، فقد انفتحت قلوبهم على الفور ، فلبوها واستجابوا لها ، وقد دار التساؤل حول المنادى الى الايمان من هو ، فقال البعض : هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وان صدق ذلك فى حياته ، فما القول فيمن جاء بعد ذلك ، ومن هنا قال بعض آخر المنادى هو القرآن ، ثم جاء القول وهو ان من يسمع القرآن فكأنما يتلقى الدعوة عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

« ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا » وبديهى أن المؤمن الا لكى يتلقى جزاء ايمانه من هنا فقد طلبوا جزاء ايمانهم وهو ان يفوزوا فى الآخرة بالنعيم والجنة ، ولما كانت الجنة لا يدخلها الا من كان طاهرا من الأرجاس مبرأ من الذنوب والخطايا ، ولما كان ذلك يشبه أن يكون متعذرا ان لم يكن مستحيلا لترصد الشيطان للانسان ، وطبيعة الانسان وما أودع فيه من شهوات وغرائز وضعف مما يؤدى به حتما الى الخطأ ، ومن هنا فليس أمام المؤمن الا أن يلجأ الى الله ويفزع اليه ليغفر الذنوب ويكفر عن السيئات والسيئة مفرد سيئات ، وهى كل

مايسوء وكل انحراف عن تطبيق أوامر الله وتجنب نواهيه لا يمكن الا أن ينتهى باساءة ، والذنب هو التقصير والخطيئة ، وطلب المغفرة والتكفير بمعنى واحد وهو الستر ، والستر يكون فى الدنيا ، أما فى الآخرة فيكون باسقاطها والتجاوز عنها .

« وتوفنا مع الأبرار » :

احتراز لا مناص منه فالانسان حتى بعد أن يغفر الله ذنوبه ، كما هو الشأن بالنسبة لمن يحج حجا مبرورا ، اذ يطهر من الذنوب ويعود كما ولدته أمه ، ولكن ذلك لا يمنع بحال أن يقع من جديد فى المعاصى ، فالعبرة دائما بالخواتيم ، وقد يعيش الانسان طول حياته مؤمنا ، وفى لحظة واحدة ينقلب (والعياذ بالله) الى الكفر ، ومن هنا كانت الدعوة الى الله لا تتم الا بعبارة : وتوفنا مع الأبرار » أى واجعل خاتمة حياتنا ، عندما نستوفى أجلنا ، اجعل هذه الخاتمة سعيدة بأن نكون ممن تصفهم بالأبرار فجزاؤهم معروف ومقرر « ان الأبرار لفى نعيم » والأبرار هم المحسنون فى أعمالهم ، وقد سبق تعريف البر فى سورة البقرة بمناسبة آية « ليس البر » .

« ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد » :

بعد أن فرغ المؤمنون من الدعاء بما يرجونه لأنفسهم فى الآخرة ، بأن يغفر الله لهم ذنوبهم ويكفر عنهم ما وعدهم به على لسان الرسل ، ويكون السؤال : ما هو هذا الشىء الذى يزيد عما طلبوه من قبل ، وما سوف يطلبونه من بعد « ولا تخزنا يوم القيامة » فلابد أن يكون هذا المطلوب ، شيئا يغاير كل ما سوف يناله المؤمن يوم القيامة ، فما هو هذا الشىء . انه النصر فى الدنيا على غير المؤمنين .

نحن نأخذ بقول من قال : ان هذا الشىء الذى يرجوه المؤمنون من الله سبحانه هو « النصر فى الدنيا » فسورة آل عمران كلها قد نزلت بسبب حرب دارت رحاها بين المؤمنين والكافرين ، وقد انتصر المؤمنون فى أولها فلما أن خالف بعضهم وعصى فقد حجب الله عنهم النصر ، فأما وقد عفا الله عنهم وصفح ، وأما وقد دعوه أن يغفر لهم ذنوبهم ، فقد راحوا يسألونه النصر الذى وعد الله به المؤمنين فى الدنيا ، قال تعالى : « وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب » وأما نص الوعد فقوله : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

ويعزز هذا الرأى فى تصورنا ما ختمت به الآية من قول المؤمنين « انك لا تخلف الميعاد » وتلك قضية مؤكدة لدى المؤمن ، وعليها يقوم الايمان من أساسه ، بأن من عمل للجنة فسيصل باذن الله ــ اليها فى الآخرة ، وانما النجاح والرزق والنصر فى الدنيا ، فتلك أمور علقها الله على مطلق مشيئته ، يمنحها وفقا لحكمة يعرفها وغاية اختص بعلمها ، قال تعالى : « ينصر من يشاء » فحق للمؤمنين أن يدعوا طالبين النصر فى الدنيا .

« ولا تخزنا يوم القيامة » .

قدمنا أن المؤمنين يوقنون أن من يدخله الله سبحانه وتعالى جهنم فقد أخزاه ، وقد فسرنا

الخزى أنه يبدأ من الامتهان والاذلال والفضيحةحتى يندرج تحت الكلمة معنى الاهلاك ، وهم هنا اذ يركزون دعاءهم فهم يسألون الله الا يخزيهميوم القيامة اى لا يسىء اليهم بأى نوع من الاساءات معنوية كانت أو مادية .

« انك لا تخلف الميعاد » .

وينتهى الدعاء باقرار صفة من صفات الألوهيةوالربوبية ، بأن قوله الحق ، ووعده الصدق ، وقد حاول بعض المفسرين القدامى أن يتساءل —وهل فى ذلك شك —وعندنا ان تقرير الواقع المحقق بالنسبة لله سبحانه وتعالى ، لا يعنى الشك فىصفاته ، فعندما نقول « انك عليم قدير » فلا يعنى ذلك شكا فى علمه او قدرته وانما هو تعبد للهوتقرب بذكر صفاته ، ومخاطبته بأنه « لا يخلف الميعاد » من هذا القبيل .

«فاستجاب لهم ربهم انى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » .

فاستجاب : بمعنى يستجيب وسوف يستجيب .

حاول نفر من المسلمين فى بعض العصور (من باب الدفاع عن النفس) أن يصوروا أن الأمر فى هذه الآية ، خاص بالمعاصرين لسيدنا محمــدصلى الله عليه وسلم وحقا كان القرآن ينزل بمناسبة معينة ، ولكن القــرآن الكريم قد جــاءعاما لكل زمان ومكان ، ولذلك كان التعبير بصيغة الماضى يعنى أحيانا الحاضر والمستقبل أيضا ،ذلك أن هذه الأزمنة الثلاث خاصة بالانســان وعمره المحدود ونقصه المشهود فكان له ماضوله مستقبل ، اما الله عز وجل فتنزه عن ان يكون له ماض أو يكون له مستقبل ، وانما هو الله القدرة المطلقة ، والكمال المطلق ، فهو اذا خاطبنا بلغتنا على قدر عقولنا ، فلا يجب أن يغيب عن وجداننا ولو للحظة واحدة أنه شأنه غير شأننا ، فاذا تعلل أقوام بأن صيغة الماضى فىكلمة « فاستجاب » تعنى ان القول خاص بأقوام معينين ، فهو جدواهم ، فالقول موجه للمؤمنين فى كل زمان ، يذكرون ويتفكرون ثم يرفعون أكف الضراعة الى الله فيستجيب لهم واذا كانت هذهالآية الكريمة قد نزلت بسبب المؤمنين فى عهد رسول الله فقد نزلت عامة شاملة لكل زمان ومكان .

« انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أوانثى » :

وليس أدل ذلك من أن الله سبحانه وتعالىقرر سنته الخالدة ولن تجد لسنة الله تبديلا ، بأنه مسجل عمل اى انسان ، ذكر كان أو انثى ،فى عهد رسول الله ، أو بعد عهده الى ابد الآبدين ، وانه لا يضيع ابدا أجر العاملين (ايا كانوا)وايا كان عملهم ، وان كان السياق يفيد فى الآية التى نحن بصددها ، ان الأعمال الحسنة والخيرلن تضيع ابدا ، فالقاعدة كذلك بالنسبة للأعمال الشريرة : قال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرةخيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » فاذا كانت الآية التى نحن بصددها ، تشير للذكر والأنثى ،فان « من » التى تعنى الاشارة الى مجرد الكائن ، اعم واشمل وقال تعالى : « وأن ليس للانسانالا ما سعى وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » .

ومرة أخرى يطلق الله سبحانه وتعالى القول بالنسبة لجنس « الانسان » وهكذا نرى انفسنا بازاء مبدأ ثابت وقاعدة مقررة يمتاز بها الاسلام على سائر ما عرفت البشرية من أديان وما سوف تعرف من مذاهب (كالماركسية) مثلا ، فلا اجناس ولا قوميات ، ولا طبقات ، بل ولا ذكورة أو انوثة ، وانما هو مقياس واحد لكل البشر وهو العمل الصالح الذى سوف تعرض الآية لنماذج منه ، ولكننا قبل أن نتعرض لهذه النماذج من الأعمال الصالحة ، نتوقف أمام قول الله :

بعضكم من بعض :

الحقيقة الأبدية وهى وحدة الجنس البشرى ، ولكن هذا القول اذ يذكر بمناسبة الذكورة والأنوثة ، فهو يقرر الطبيعة الواحدة للجنسين ، وان كلا منهما بعض الآخر ، وهى حقيقة يعيشها كل انسان فلولا المراة ماكان الرجل ، ولولا الرجل ماكانت المراة ، وصدق الله العظيم اذ يقول : «بعضكم من بعض» وفى كتاب كتبناه منذ اكثر من اربعين سنة بعنوان « الزواج والمراة » واعدنا نشره ملخصا منذ بضعة أعوام ، تحت عنوان « حقوق المراة فى الاسلام » تفضل المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بنشره ، وقد بينا فى هذا الكتاب بأسانيد من الكتاب والسنة المساواة المطلقة بين الرجل والمراة « بعضكم من بعض » ولكن « المساواة فى الطبيعة » ، لا تعنى بحال من الأحوال « المساواة فى الوظيفة » فلكل من الذكر والأنثى دوره فى الطبيعة ، فالرجل يشارك الأنثى فى عملية « الانجاب » ودوره بعد ذلك هو أن يحمى الأنثى ويعاونها على القيام بأقدس مهمة فى الوجود وهى اعداد الطفل ليكون انسانا صالحا .

ولما كانت السورة الآتية هى سورة النساء ولما كانت آيتها الأولى تشير لهذا المعنى ، فنحن نرجىء حديثنا المطول عن هذا الموضوع ، الى حديثنا القادم بمناسبة سورة النساء .

ونكتفى اليوم بالاشارة الى عظمة الاسلام وانه لا يمكن بل يستحيل أن يكون من صنع بشر ، فحيث درج البشر فى القديم على الغض من شأن المراة ، حتى تساءلت بعض المجامع المسيحية فى أوروبا فى العصور الوسطى « هل للمراة روح كالرجل (واعتبرت) احبولة الشيطان » وحظر عليها دخول الكنائس ، أما فى جزيرة العرب حيث انبثق الاسلام ، فقد كانت الأنثى تدفن حية فى طفولتها وجاء الاسلام يرفع المراة مكانا عليا ، وبعد أن زالت حماسة الاسلام الأولى وحرارته لم يستطع اكثر العلماء علما ورفعة أن يتابع التعاليم الاسلامية ، وهى تقرر « بعضكم من بعض » ولأنقل لك نص ما قال به علامة من فطاحل علماء المسلمين ، قال القرطبى فى تفسيره الكبير :

« بعضكم من بعض » أى دينكم واحد ، وقيل : بعضكم من بعض فى الثواب والأحكام والنصرة وشبه ذلك . وقال الضحاك : رجالكم شكل نسائكم فى الطاعة ، ونساؤكم شكل رجالكم فى الطاعة ، نظير قوله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » ويقال فلان منى أى على مذهبى وخلقى ومن هنا ارجأنا حديثنا المستفيض عن موضوع المراة ومكانتها الى مستهل سورة النساء .

الشيخ رشيد رضا وحقوق المراة :

وقد كان اول ما لفت نظرنا الى المرحوم الشيخ رشـيد رضـا ، **وفهمه العميق لروح الاسلام ،** ما كتبه فى كتابه « الوحى المحمدى » عن حقوق المراة فى الاسلام ، ورسالته التى سبقت ذلك بعنوان : « نداء الى الجنس اللطيف » .

« فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سـبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب » .

الجزاء على قدر العمل :

لم يقف القرآن الكريم عند حد القول بأن الجزاء من جنس العمل وانه لن يضيع عمل عامل ذكرا كان او أنثى ، لم يقف عند التقرير « بعضكم من بعض » بل راح يعدد أمثلة من العمل الصالح تقوم به المراة مثل ما يقوم به الرجل ، فلا تبخس قيد شعرة ، عن نيل « الثواب » والثواب عند الله بتكفير الذنوب والسيئات ودخول الجنة .

« فالذين هاجروا »

واول هذه الأعمال واعظمها على عهد رسول الله والى أبد الآبدين ، هى الهجـرة من دار الفساد والظلم والظلام ، الى دار الخير والرشاد ، وقد ذكر القرآن بعد ذلك « واخرجوا من ديارهم » فقال بعض المفسرين ان ذلك من قبيل التفصيل بعد الاجمال ، ولكننا نخالفهم فى هذا الرأى ، فقد هاجر بعض المسلمين فى أول ظهور الاسلام الى الحبشة ، وكانت هذه الهجرة اختيارية ، فرارا بدين الله من ان يصاب بسوء ، وكان من بين المهاجرين مؤمنون ذوو مكانة ومنعة فى قـومهم مثل سيدنا عثمان بن عفان .

« وأخرجوا من ديارهم »

وثمة فريق آخر كان لا مناص لهم من الخروج من ديارهم نجاة بدينهم وأنفسهم فقد بدأ المشركون لا يرضون بأقل من ايذاء المؤمنين ، ايذاء بين المقاطعة والمنابذة والاضطهاد والتعذيب ، ويصل الى حد القتل ، ولذلك فلم يلبث القرآن الكريم أن استعمل التعبير العام الذى يتناول الحالين وهو قوله تعالى :

واوذوا فى سبيلى :

ويصبح كل من يؤذى فى سبيل الله الى ابد الآبدين ، ممن تتحدث عنهم هذه الآية ، كما تنطبق بطبيعة الحال على كل من يخرج من دياره وبلاده ووطنه عنوة على سبيل النفى أو الاضطهاد . .

هل هناك هجرة ابدية ؟

ويبقى السؤال: أيمكن أن يكون فى عصرنا الحديث « هجرة » فنبادر ونقول : من الجـائز ان يقال ان الهجرة المكانية لا وجود لها اليوم ، بعد أن تشابهت الأحوال والظروف فى سائر انحاء العالم ، ولا توجد بقعة فى الأرض تخلو من المخالفـات والانحرافات وذلك على خلاف الهجرة فى صدر

الاسلام ، حيث كانت مكة مستقر الشرك والوثنية والحرب على سيدنـــا رسول الله ومن معه ، وتحولت المدينة بعد انتقال رسول الله اليها الى معقل الاسلام والمسلمين ، واتباع رسول الله من اوجب واجبات المسلم فالهجرة المكانية فى عصرنا الحديث اصبحت غير ذات موضوع ، ولكن ستبقى دائما والى أبد الآبدين هجرة المؤمن الى الله ورسوله باتباع اوامره والانتهاء بنواهيه ، ستبقى دائما والى ابد الآبدين هجرة الانسان من المعـــاصى والذنوب الى دنيا الطهارة والاستقامة والخوف من الله ظاهرا وباطنا .

هل هناك هجرة إلى الصحراء ؟

وقد تصور قوم أن يعتزلوا الناس ويهاجروا الى الصحراء وهو خلط وتخبط يبرأ منهما الاسلام واذا كان بعض المسيحيين فعلوا ويفعلون ذلك ، فهو على خلاف الاسلام ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا رهبانية فى الاسلام » .

والاسلام دين عمل وجهاد وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وسوف تختتم السورة كلها بما يعبر عن ذلك كله « اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

« وقاتلوا وقتلوا »

وتمضى الآية لتشير الى عنصر ثان ظهر بين اتباع رسول الله بعد هجرته الى يثرب ، وذلك هو القتال لنصرة دين الله ورسوله ، فاذا كانت صفوة من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم من اهل مكة ، قد هاجروا معه ، واصبح يطلق عليهم اسم المهاجرين ، فان صحابة رسول الله فى يثرب ناصروه فى الحرب والقتال ، واصبحوا يسمون بالانصار ، واصبحت ذروة الايمان تتلخص فى القتال ، ولا يتصورن متصور ان الاستشهاد فى سبيل الله هو غاية فى حد ذاته ، كلا ، وانما هو السبيل لنصرة الله ، اى أن الغاية هى النصرة ، ولمـــا كان الانتصار هو ثمرة الثبات والاقدام ، وعدم الخوف من الموت ، فقد وعد الله من يقتل فى سبيل الله بما وعد . والقتال فى سبيل الله ، وعدم الخوف من الموت فى سبيله ، هو سر عظمة المسلمين وآية عزهم ، واذا كانوا قد تدهوروا فى يوم من الأيام فلفقدانهم هذه الروح ، واذا كنت أتفاءل بمستقبل المسلمين ، فذلك لعودة هذه الروح اليهم .

« لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهـــار » :

وهذا هو جزاء المؤمنين صادقى الايمان ، ان يغفر الله ذنوبهم ، اى يسقطها ويعفو عنها ثم يدخلهم الجنة .

جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

« تجرى من تحتهــا الأنهــار » .

ولطالما استوقفنا ــ ونحن فتية صغار ــ التعبير بـ « تجرى » « من تحتها الأنهار » وربما سببت لنا بعض الارتباك فى الفهم ، فتحت هى عكس فوق، ولذلك لزم أن أنبه هنا أنها لا تستعمل هنا بهذا المعنى ، وقد اختار القرآن الكريم دائما ان يستعمل هذا التعبير ، ولكن فى القرآن الكريم كذلك ما يقطع انها تعنى « خــلال » قال تعالى على لســان فرعون : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى » (سورة الزخرف) .

وجاء فى سورة الأنعام بمناسبة التحدث عن قوم غضب الله عليهم « وجعلنا الأنهار تجــرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم » .

فدل ذلك على أننا لا يجب أن نفهم من « تجرى من تحتها الأنهار » غير هذه الصورة المعتادة من جريان الأنهار فوق سطح الأرض .

« ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب »

اى أن ادخال الجنة هو الجزاء والمكافأة التى وعد بها الله عباده الصالحين، والله سبحانه وتعالى عنده حسن الثواب والأصل اللغوى لكلمة الثــواب بمعنى الجزاء من الفعل، ثاب يثوب ثوبا أى رجع، وفى المجاز ثاب الله عقله اى رجع اليه ، ومنه :« واذ جعلنا البيت مثابة للناس» فانهم يرجعون اليه ويعودون، والثواب هو مايرجع الى الانسـان جزاء عمله ، وعلى ذلك يكون الثواب لغة هو :جزاء عمل الانسـان سواء كان خيرا أو شرا ولكن الاصطلاح جعله قاصرا على الجزاء الحسن ــ كما هو الحال فى هذه الآية « ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب » .

«لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد. متــاع قليل ثم مــأواهم جهنم وبئس المهــاد . لــكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار » .

مفـــــردات :

لا يغرنك . اى لا يوهمنك بالباطل أو يخدعنك، يقال : اخذه على غرة (بالكسر) اى على غفلة منه وعدم تحرز والمعنى هو نهى المخاطب عن الأخذبظواهر الأمور .

«تقلب الذين كفروا فى البلاد» المقصود بالتقلب هنا ، اى تحرك الذين كفروا فى أمن ورفاهية ونعيم خلال البلاد .

«متاع قليل ثممأواهم جهنم»:المتاعهوكلمايتمتعبه ، اى ينتفع به ، ووصف القرآن الكريم مايتمتع به الكافرون أنه « قليل » فأيا كان هذا الذى يتمتع به الكافر من مال او جاه أو سلطان فهو الى زوال محتم فان أحدا لا يأخذ شيئا من ذلك معه الىقبره ، والحياة فى نهاية الأمر قصيرة قصيرة ، بالقياس الى مثوى الكافر النهائى فى « جهنم »

« وبئس المهـــاد »

بئس ونعم كلمتان متضادتان تشير أحداهما « بئس » الى كل ما هو سىء وشر وظلام ، ونعم الى ضد ذلك من الرمز للخير والبهجة والنور .

والمعنى هنا : ما اتعس الكافر بمصيره الى النـــار .

المهاد : المكان المهد الموطأ كالفراش : ووصف الجحيم بأنه فراش ممهد للكافرين على سبيل التهكم وعلى اى حال فقد سبقت بكلمة « بئس » اشعارا بالتعاسة والشقاء .

من المخاطب بالآية ؟ : وقد داربحث بين قدامى المفسرين عمن هو المخاطب بالآية ، اهو سيدنا محمد عليه السلام ، أم صحابته الذين هزموا فى غـــزوة « أحد » فقد كان يحـــز فى صـــــدورهم وينغص عليهم حياتهم ، رؤيتهم للكفار فى متعةوغنى ، يروحون ويجيئون فى طـــول الجـــزيرة وعرضها .

وكان ما جعل البعض يصرف النظر عن أنيكون القول موجها الى سيدنا محمد ، ان الآية الكريمة استهلت بكلمة « لا يغرنك » وقد رأينا كيف أن الكلمة تعنى ما لا يتفق وشخص ســـيدنا محمد وايمانه ، ومن هنا قال البعض انه وان كان الظاهر أن المخاطب بالآية هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فان حقيقة المقصود بها هم جماعة المؤمنين حول سيدنا محمد ، ورأى بعض آخر ان يستبعدوا بالكلية — أن يكون الخطاب موجها لسيدنا محمدعليه الصلاة والسلام ، ونحن نرى ان كل هذه أبحاث لا غناء فيها متى كانت النتيجة واحدة فى كل الأحوال وهى الاتعاظ بما اشتملت عليه الآية .

انطباقها على العصر الحاضر :

رتل الآية مرة أخرى ثم أعد ترتيلها كما فعلنانحن ، الست تراها وكأنهـــا تخاطبنـــا نحن مسلمى أواخر القرن العشرين — الا تطالبنا ، الايخدعنا — فضلا عن أن يهولنا ويروعنا — « تقلب الذين كفروا فى البلاد » فليسيطروا ماشاءوا على أسباب القوة ، فليزدادوا رخاء وبسطة فى العيش ، بل فليصلوا الى القمر ، فكل ذلك قد حكم الله عليه وهو أحكم الحاكمين ، بأنه :

« متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » وكداب القرآن دائما ، لا يكاد يذكر بالنار والعذاب حتى يذكر بالجنة ونعيمها للمتقين والأبرار .

« لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وماعند الله خير للابرار » .

النزل : ما يهيأ للنزيل ، والنزيل الضيف كأن الله فى كلمة واحدة ، اراد ان يعتبر المتقين الداخلين الجنة بمثابة من حلوا ضيوفا على الرحمن ، ولك ان تتصور ماذا يفعل الكريم العادى بضيوفه ، فكيف بأكرم الكرماء ومن لايحداكرامه حد « وما عند الله خير للابـرار » ولمـا كان كـرم الله سبحانه وتعالى لا تحده حدود ، فهو بعد ان عبربكلمةوا حدةعن مدى ماسوف ينعمبه «المتقون » من كرم مضيفهم ، فقد اضـاف ان لديه مزيدا «للأبرار» والزيادة عند الله مقررة « ولدينا مزيد » ولا جدال ان البر بمعنى البار درجة تعلو التقوى فالتقوى هى اتقاء محارم الله والائتمار بأوامره والانتهاء بنواهيه ، وهى ليست بالشىء القليل أو السهل المنال وطوبى لمن يتقى الله فانه يرزقه دائما ويجعل له مخرجا من كل ضيق وشدة ، ويدخله الجنة يوم القيامة ، ولكن البر أو البار وهو المتصف الذى رسمه وفصله القرآن فهذا هو الذى يتقى ، فالمـؤمن الذى يخـرج الزكاة بحدودها الشرعية وبنية صادقة راضية ، فهذه هى التقوى ، ولكن اذا زاد على ذلك الانفاق فى سبيل الله على وجه الاحسان فهذا هو البر ، وهو ما يكافىء الله عليه مكافأة أبقى مقدارها وكيفيتها غيبا مكتفيا بالتعبير عنها بقوله تعالى : « وما عند الله خير للأبرار وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم اجرهم عند ربهم ان الله سريع الحساب » .

ما سوف يحقق انتصار الإسلام :

هذه الآية وأمثالها فى القرآن الكريم ، هى ماحققت انتصار الاسلام الساحق لعدة قرون ، وما سوف تحقق له النصر والغلبة فى المستقبل القريب ، ذلك ان الاسلام ، على خلاف أى دين آخر ، يعترف بما سبقه من الأديان السماوية وما انزل من الكتب ويدعو الى الايمان بالرسل من مثل (ابراهيم وموسى وعيسى) ومع تقرير الاسلام بأنه جاء ختاما لهذه الرسالات ، ومهيمنا عليها ، ومصححا لمـا وقعت فيه من انحرافات ، وما غرقت فيه من اضاليل ، فان الاسلام لم يشـأ ان يجبر اليهود والنصارى على اعتناق الاسلام تاركا لهم حرية الاختيار ، ولم يشأ ان يحرمهم من الثواب ، ان هم آمنوا بما انزل على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وعملوا الصالحات ، وقد سبق فى سورة البقرة تفصيل هذا الموقف من القرآن الكريم ، حيال « أهل الكتاب » وها هو ذا يكرره ويؤكده فى سورة آل عمران ، وقد أوشكت على نهايتها .

« وان من اهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما انزل اليكم وما انزل اليهم » .

قدمنا فيما سبق ان بعض قدامى المفسرين كلما عرضت لهم آية من هذا القبيل تتضمن الثناء على نفر من أهل الكتاب بادروا بالقول أن المقصود بهم هم من آمن بالاسلام من اعلام اليهود وعلى رأسهم عبد الله بن سلام ، وقد رددنا هذا القول على اسـاس أنه بمجرد اعتناق اليهـودى أو

النصرانى للاسلام ، لم يعد يوصف بأنه من « أهل الكتاب » وانما اصبح واحدا من المسلمين ، وكالعادة كرر البعض هذا القول بمناسبة هذه الآية ، ولكن من حسن الحظ انه ورد فيها احاديث عن سبب نزولها تدحض هذا المعنى وتؤكد المعنى الآخر من أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا وخاصة اذا آمن بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وما أنزل عليه، قال جابر بن عبدالله وأنس وابن عباس وقتادة والحسن ، ان هذه الآية نزلت فى النجاشى (ملك الحبشة النصرانى) ذلك أنه لما مات نعاه جبريل عليه السلام ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه « قوموا فصلوا على أخيكم النجاشى » فقال بعضهم لبعض يأمرنا ان نصلى على علج من علوج الحبشة، فأنزل الله الآية : (على ما روى القرطبى) وفى تفسير ابن جرير نحو ذلك .

والخلاصة أن النبى صلى الله عليه وسلم طلب من اصحابه ان يصلوا صلاة الغائب على النجاشى (ومن هذه الواقعة تقررت سنة الصلاة على الغائب) ولم يرد فى سيرة رسول الله أن النجاشى اسلم ، ولكنه حمى المسلمين الذين هاجروا اليه، وعندما سمع ما يقوله القرآن عن سيدنا عيسى آمن به وصدقه .

واصبح القول ينصرف لليهود والنصارى ممن يؤمنون بما « أنزل اليهم » اى التوراة والانجيل ويؤمنون فى ذات الوقت بما « أنزل اليكم » اى بالقرآن الكريم وما تضمنه من التقرير بأن التوراة والانجيل ، قد حرفا ، وأن حقيقتهما هى عبادة الله الواحد « الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

« خاشعين لله يشترون بآيات الله ثمنا قليلا » وهذه هى آية صدقهم وانهم يؤمنون بالله وما انزل اليكم وما أنزل اليهم ، انهم خاشعون لله والخشوع لا يكون الا نتيجة الخوف من الله والتقوى .

« أولئك لهم أجرهم عند ربهم »

هؤلاء الكتابيون ، ممن يؤمنون بالله ويحسنون العمل ويؤمنون بما أنزل اليكم وما انزل اليهم وآية ذلك أن تراهم خاشعين لا يبيعون دينهم فى سبيل عرض من اعراض الدنيا التافهة ، هذا الصنف من الكتابيين « لهم أجرهم عند ربهم » اى أن ثوابهم لا يضيع ، طبقا للقاعدة العامة التى طالما نوهنا بها « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره »

« ان الله سريع الحساب »

واذا كان التعبير بسرعة الله فى الحساب ينطوى على معنى الانذار والتهديد ، فان السياق هنا يقطع بأن المقصود هو الوعد لا الوعيد ، وأن الله لا يضيع اجر من احسن عملا ، بل انه سريع الحساب .

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

اصبروا : أمر بالصبر ، والصبر لغة هو الحبس المادى ثم استعير المعنى فأصبح الصبر بمعنى حبس النفس عن شهواتها ، أو غرائزها ، وكل ما يقتضى العقل حبس النفس عنه فى سبيل غاية سامية .

وصابروا: صفة (مفاعلة) من صبر، لافادة زيادة التحمل، ورابطوا : من الفعل ربط يربط ربطا فهو مرابط ، والمعنى اللغوى « شده » والرباط هوما يربط به ولــكن الرباط ، اصــبح يعنى فى الاصطلاح الاسلامى « ملازمة الثغور » والثغور هى المناطق التى قد يدهمها العدو ، وقد كانت فى القديم هى الحدود ، أما اليوم بعد وجــود سلاح الطيران ، فقد أصبح كل مكان معرض لهجوم الطيران عليه يمكن أن يكون رباطا وبالجملة فان كلمة « ورابطوا » تعنى واظبوا وحافظوا على العمل الصالح والدفاع عن أرض المسلمين فذلك هو ذروة الأعمال الصالحة .

ختـــام السورة :

وهكذا ختمت السورة بأعظم واقوى ما يدعى اليه مؤمن فى مثل الظروف العصيبة التى حاقت بالمسلمين وقت نزول الآية مما مضى علينا فيما سبق مفصلا ، وكشأن القرآن دائما تشع آياته وتنادى المؤمنين الى أبد الآبدين ، فى كل زمان ومكان والدعوة هنا هى الى الصبر الجميل ، والمزيد من الصبر ، وملازمة الحذر واليقظة على سبيل الدوام فى مواجهة العدو .

وقد وردت عشرات الأحاديث فى فضل المرابطة فى ســبيل الله فليرجع اليها من يريد الاحـــاطة والاستقصاء فى كتب الأحاديث وفى تفاسير ابن جرير والقرطبى وابن كثير ، والجهاد فى سبيل الله هو ذروة الايمان .

« واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » : .

ولابد — ونحن فى الحديث عن الرباط والمرابطة — أن نذكر الآية المشــهورة التى تأمــر المسلمين الى أبد الآبدين بالاخذ بكافة اســباب القوة ، وذلك فى أمره سبحانه : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة » اى بأخذ ما فى استطاعتكم، ويضيف القرآن الكريم « ومن رباط الخيل » أى الخيل المشــدودة فى مرابطها على اســتعداد لاستعمالها فى القتال ، وعندنا انه مهما تبدلت اسلحة الحرب واصبحت دبابات وطائرات ، فان تجهيز هــذا يدخل فى الشــق الأول من الآية « ما استطعتم من قوة » أما الشق الثانى « رباط الخيل » فيجب دائما أعماله نزولا لنص القرآن ، كل الذى نتصوره أن كيفية استعمال الخيل ،هو الذى يمكن أن يتطــور ليناسب الظــروف الحديثة ، ولكن اهداره كلية بمعنى أن الظروف تغيرت ، فقول غير مقبــول ، وقد اثبتت آخر الحروب ، أن الجندى الفرد ، سيظل هو العنصر الحاسم ، ومن هنا فلا منــاص من اســتخدام الخيول فى الحرب ، وعلى العسكرية الاسلامية، أن تبتكر استعمالات جديدة للخيول .

« واتقوا الله لعلكم تفلحون » :

وكشأن القرآن الكريم عندما يواسى جماهير المؤمنين ، فبعد أن يأمر بذروة ما يمكن أن يبذل من طاقة تتمثل فى الصبر والمصابرة والمرابطة ،فهو يرأف بغير القادرين على بذل هذا الجهد ، لكبر أو ضعف أوعجز لا حيلة للمؤمن فيها ، فيعود القرآن ليذكر ان القاعدة العامة للنجاة من النار والفوز بالجنـــة ، هى تقوى الله اى خشــيته والخوف منه بالائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه « جهـــد الاستطاعة » فهذا هو ســبيل الفلاح « لعلكم تفلحون » .

انتهت سورة آل عمران بعـــون من الله تعـــالى

فهرس تفسير سورة آل عمران

صفحة

صفحة

صفحة



رقم الايداع ٤٧٧٦ / ١٩٨٢

الترقيم الدولى ٩٧٧—٠٣—٠٠٠٤—٧ ISBN